AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
24 MAR 1972
Tel. 260458

909
H243gA

بيروت

الدكتور جورج حنا

قصة الإنسان

وهو عرض تحليلي شامل لنضال الإنسان
في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية وإقامة المجتمع الأفضل

دار العلم للملايين

بيروت — ١٩٥١

للمؤلف

العقم والسلالة الجنسية		١٩٣٦
من الاحتلال الى الاستقلال	(طبعتان)	١٩٤٤
انا عائد من موسكو		١٩٤٧
طريق الخلاص		١٩٤٨
المرأة جسد وروح		١٩٤٩
رحلة في عالم جديد		١٩٥٠
قصة الانسان		١٩٥١
كهان الهيكل	(تحت الطبع)	

بيروت
كانون الاول ١٩٥١

١. نشوء الحياة

نحن في حقبة من التاريخ تعود الى الفي مليون سنة الى الوراء . الفضاء كتلة من الهيولى الملتهبة . شهب وضاءة ومستقلة تحوم بسرعة فائقة حول محور يزيدها لمعاناً واشتعالا . اعمدة نارية ، وبراكين متفجرة ، يتصادم بعضها مع بعض . حتى اذا مرت الملايين من السنين اخذت هذه الاجرام النارية بالتباعد لتنفصل وتغدو اجراماً متفرقة . فاذا بالارض كتلة غير مجزأة تشتعل كالاتون ، واذا بالارض والقمر والاجرام الاخرى تدور حول الشمس ، وكلما ابتعدت عنها خف لهيبها . واذا بالقمر يتوسط المسافة بين الارض والشمس فيخفف من حدة اللهب الممتد اليها من الشمس ، ويتحول البخار الى غيوم تتساقط بعد ذلك امطاراً على صخورها الملتهبة ، وتسيل انهاراً وبحاراً تقطع اوصال الصخور الصلبة وتحولها الى تراب مستنقع في مجار وبحيرات حارة لا اثر فيها للحياة لان الحياة لا تقوى على مغالبة اللهب والاشتعال .

ومر من هذا الزمن التقديري نصفه او اكثر ، فانطفأت الى حد ما درجة الحرارة المشتعلة في كوكبنا ، المانعة للحياة ، ولكن ما من اثر يدلنا على وجود الحياة عندئذ . فما من صدفة ولا جذور كلسية تنبىء عنها . غير ان بعض بقايا كربونية اكتشفت في صخور ذلك العهد جعلت علماء الآثار يرجعون عمر الحياة الى ذلك التاريخ البعيد ، اعتقاداً منهم بان تلك البقايا الكربونية مصدرها تفاعل

كيماوي بين ذرات ذات الحياة .

يجزم علماء الآثار ان ظهور الحياة كان في المياه المستنقعة . كان ذلك قبل ان تبرد حرارة اليابسة . ولكن المياه بحكم حركة المد والجزر تقذف ما يعيش فيها من ذوات الحياة المائية الى اليابسة حيث لا تلبث ان تموت. غير ان للطبيعة نواميس، منها ناموس التكيف. وبموجب هذا الناموس استطاعت المواد الحية ان تركز نفسها في اليابسة فتنمو جذورها في طيات الارض ، تأخذ من هذه الرطوبة وتنقلها الى الجذوع النامية فوق الارض لتقاوم بها الحرارة . ذلك شأن الحياة النباتية . اما الحياة الحيوانية ، وهي لا جذور لها تستمد الرطوبة بواسطتها ، فقد كان عليها ان تغلف نفسها بصدف كلسي صلب يقيها أثر الحر .

لكن الحياة تحتاج لكي تبقى حية ، الى اكثر من رطوبة وغلاف يقيانها خطر الحرارة والجفاف . انها تحتاج الى الغذاء والى وسائل البحث عنه . ولذلك كان طبيعياً ومحتماً ان ينشأ لهذه القبيلة المائية الزاحفة الى اليابسة فم لتأكل ، وعين لتنظر ، ومخالب للقضم ، واعضاء للصراع ، وهلم جرا . هذا ما كان على الناموس الطبيعي ونظام التكيف ان يؤمناه لبقاء الحياة طبقاً لنظرية «داروين» في النشوء والارتقاء.

ان هذه النظرية كانت لقرن مضى موضوعاً للمساجلة والنزاع . فقد انكرتها الكنيسة وكفرت الذين يقولون بها لانها رأت فيها انكاراً لوجود الخالق . ولكن النظرية الداروينية لا تنفي وجود الخالق ولا تتعرض لاثباته . وهي اذ تبكر ان الانسان او الحيوان انما خلق على الشكل الذي هو فيه الآن ، واذ تقول بان الحياة انما ظهرت اول ما ظهرت في المستنقعات المائية ، ثم تدرجت من البيئة المائية الاولى الى نباتات اعلى فاعلى ، ومن حيوانات تعيش في المياه الى حيوانات تعيش في اليابسة، ثم الى حيوانات ريشية ومجنحة ، فحيوانات ذات فقرات ، الى قرود فيها كثير من الشبه بالانسان ، الى انسان اول لا يعقل ولا يدرك ولا يتكلم ، الى الانسان الحاضر بعقله وادراكه وتفكيره ، ان هذه النظرية اذ تقول ذلك فانها تدع امر ظهور الحياة فلا تتعرض له . واذا كان ثمة نفر من العلماء يقول بان الحياة هي نتيجة

تفاعل كيماوي بين المادة والمادة فقوله هـذا ليس من صلب النظرية الداروينيـة . ولذلك نرى ان بعض فلاسفة الدين في عصرنا هذا لم يعودوا ينكرون نظرية دارون في النشوء والارتقاء ، بل اخذوا يطبقون فلسفتهم الدينية على هذا الاساس بحيث لا يكون هناك تناقض بين النظريتين : نظرية دارون و نظرية الخليقة كما جاءت في الكتب الدينية .

ومن جهة اخرى فان عنصر الحياة في المادة يفرض التوالد والتكاثر . وهـذا بدوره يفسح المجال للصراع في سبيل النمو والبقاء والازدياد . فعندما غزت القبيلة المائية اليابسة وجدت نفسها في محيط يختلف كل الاختلاف عن المحيط الذي كانت فيه قبلا ، فكان على افراد القبيلة ان يصارعوا الاحوال الطبيعية في سبيل بقـائهم . ومن الطبيعي ايضاً ان التوالد ينقل بعض الخصائص من الآباء الى الابناء . ولما كان بعض الخصائص الموروثة يصلح للتكيف بالمحيط الخارجي ، في حـين ان بعضها لا يصلح لتغير الاحوال الطبيعية باستمرار ، اصبح طبيعياً ان تبرز في الابناء خصائص تختلف الى حد صغير او كبير من خصائص الآباء . وهذه الخصائص الموروثة والمكتسبة هي الامتحان لمقدرة الحيوان على التكيف للاحوال الطبيعية . فما لاءم منها شروط الحياة بقي ونما ، وما كان غير ملائم امحى واندثر ، ومع التغير المستمر في شروط الحياة كان تغير الخصائص في النوع سبباً لتحوله وتحول الفصيلة نفسها من فصيلة غير فقرية مثلا الى فصيلة فقرية ، او من فصيلة مريشة و مجنحة الى فصيلة ذات ثدي وهلم جرا . هذا ما سماه العـالم البيولوجي دارون « الاصطفـاء النوعي الطبيعي » وهو اساس نظرية النشوء والتحول والارتقاء .

و نظرية النشوء والارتقاء لم تكن من وحي دارون . فقد قال بها علمـاء قبله اهمهم «لامارك» الفرنسي . غير ان لامارك ورفاقه كانوا يرجعون هذا التحول الى الصدف والزمن ، فجاء دارون يقول ان الصدفة والزمن لا يركن اليهما في تحول الانواع ، وان طريقة الاصطفاء النوعي الاختياري التي يجريها المزارعون عن طريق التلقيح الاصطناعي ما هي الا اشتقاق من ناموس الاصطفاء الطبيعي وبرهان عملي

وعلمي على صحته .

فاذا اخذنا بالنظرية الداروينية التي اصبحت في نظر العلم حقيقة لا شك في صحتها، اصبح من الواجب علينا في هـذا البحث ان نعود الى الوراء لنرى كيف تطورت الحياة منذ ظهرت الى يومنا هذا : كيف انتقل الاحياء من طور الى طور؟ وكيف تكيف المجتمع الانساني ؟ وكيف انبثقت الشرائع والانظمـة والحضارات ، وما هو انسان اليوم بالنسبة لانسان التاريخ ؟ وما هي القيم الانسانية ، وماذا كانت نتيجة هذا التحول العضوي وتأثيره في حياة الانسان واوضاعه الاجتماعية والنظامية . ان العمران الذي يتمتع به انسان اليوم ليس وليد العفوية ، وانما هو وليد سلسلة من التفاعل العضوي والكيماوي والطبيعي ثم وليد سلسلة من التفاعل العقلي والادراكي. انه قصة بدأت منذ ملايين السنين ولم تنته بعد ، وليس طبيعياً ان تقف عند حد .

٢. نشوء الانسان

اختلفت اراء العلماء في تاريخ نشوء الانسان . فبعضهم ارجعه الى اربعين الف سنة او اكثر ، مدللا على ذلك باكتشاف اثار لجمجمة انسانية في « النياندرتال » مما حمل على الظن انها جمجمة الانسان الاول لعدم وجود آثار بشرية اقدم عهداً . وقد عاش هذا الانسان في العصر الجليدي ، عندما كانت اوروبا قطعة من جليد ، وعندما لم يكن هناك فاصل مائي بين انكلترا وفرنسا ، وعندما كان البحر المتوسط والبحر الاحمر عبارة عن واد سحيق تنتثر فيه هنا وهناك بحيرات صغيرة ، وعندما كان الصقيع يكتسح كل الاراضي الواقعة شمالي افريقيا .

كان هذا الانسان يختلف كثيراً عن انسان اليوم : جبهة ضيقة ، وفك ناتىء ، وعنق لا يلتوي بحيث يتعذر على صاحبه ان ينظر الى الوراء ، ودماغ كبير الحجم من الوراء وصغيره من الامام ، دليل النقص الادراكي والعقلي .

ومرت آلاف من السنين فزحف على هذا الانسان زميله « الروديسي » من جنوبي افريقيا حيث المناخ اكثر حرارة من الشمال . وكان هذا الانسان الزاحف شمالا اكثر شبهاً من زميله بالانسان العصري ، تركيباً وادراكاً وتفهماً . ومن المعقول ان يكون الانسان الروديسي اقدم عهداً من زميله الشمالي .

ولا يزال علماء الآثار يعملون حتى الآن على اكتشاف بقايا الانسان الاول . واذا كان هؤلاء العلماء قد اكتشفوا اول ما اكتشفوا آثار الانسان «النياندرتالي»

فلعل مرجع ذلك الى ان اكثرهم من الاوروبيين الذين حصروا جهودهم في اوروبا وفي مستعمراتها . فقد اكتشف حديثاً هيكل عظمي انساني وادوات للاستعمال المعيثي في جوار انطلياس من اعمال لبنان ترجع الى سبعين الف سنة . ومن يدري فقد تحدث اكتشافات اخرى ترجع تاريخ الانسان الى اكثر من ذلك ، لاسيما وان العلماء يقدرون ان الانسان الاول وجد قبل مئات الالوف من السنين . وليست هذه الاكتشافات دليلا على عدم وجود آثار غيرها لم تكتشف بعد .

على ان علماء الاثار يرجحون ان الانسان الحقيقي كما نعرفه اليوم شكلا وادراكاً انما يرجع تاريخه الى ثلاثين الف سنة تقريباً ، اذ ان زميله الذي عاش قبل هذا التاريخ ، وان تقارب في شكله الى الانسان الحالي ، فقد كان اقرب الى المعيشة الحيوانية منه الى المعيشة الانسانية ، لا يعرف في حياته نظاماً ولا قاعدة .

كان هذا الانسان يعيش في الادغال ، يعيش على صيد الوحوش ، ويلتهم لحومها نيئة ، يسكن البراري والمغاور ، وينزع الى القتال متخذاً من الحجارة سلاحاً . فعصره كان عصر الحجر ، لا آلات فيه غير الآلات الحجرية . ولم يكن جدنا هذا لسناً ، فاللغات لم تكن موجودة بعد . كان يتفاهم مع اقرانه بمقاطع ونبرات صوتية واشارات . وعلى الجملة فلم تكن ثمة انسانية في الانسان الاول .

على ان هذا الانسان على قلة ادراكه لم يكن محروماً من الشهوات وميزة التصور . بل كان له منها ما يقوده ، في مسلكه واعماله وعلاقته مع رفاقه ، الى نوع فطري من الحياة الاجتماعية . واذا كانت هذه الحياة لا تشبه بشيء الانظمة الاجتماعية المعروفة ، فقد كانت على كل حال مأخوذة عن المقتضيات الطبيعية . الذكر تجتذبه الانثى ، والانثى يجتذبها الذكر ، ناموس الطبيعة في التوالد والتكاثر . للام المقام الاول . انها الإلاهة في القبيلة ، ولم يكن عندهم آلهة غيرها . ومن الوهية الام انبثقت فكرة التأليه والعبادة .

وعندما اخذ الانسان يخطو الى المعيشة الاجتماعية ، كان لا بد من قيام افراد يتولون السلطة والسلطان ، فكان يتزعم القوم اكثرهم قوة وشجاعة وبأساً فيقضي

فهم ويكتسب طاعتهم وثقتهم .

لم يكن للدين اثر في حياة تلك الجماعة البشرية. غير ان طوارىء غريبة كانت تطرأ عليهم فتزعج ذهنيتهم الفطرية . من هذه الطوارىء ، مثلا الاشباح التي كانت تتراءى لهم في احلامهم فتصور لهم ان هناك قوة خارقة تسيطر عليهم ، وما تلبث هذه القوى الخفية حتى تتجسد احياناً بشكل انسان واحياناً بشكل حيوان ، فيفزعون اليها في كروبهم ، ويستنجدون بها في محنهم ، وينسجون حولها الاساطير والخرافات ، فتستحيل هذه الى عقائد دينية وغيبية ، وتوطد فيهم فكرة العبادة والدين ، ويصبح المشعوذون ومفسرو الاحلام كهاناً كما تصبح الاماكن التي تظهر فيها الاشباح مزارات وهياكل .

هكذا بقي الانسان الاول اجيالا وقرونا يعيش في الادغال يقتات من الصيد واكل الاعشاب البرية ، الى ان ادرك ان الارض تنبت العشب في بعض فصولها السنوية بينما تجدب في فصول اخرى . فلجأ الى زرع الاعشاب في الفصول المخصبة تدفعه الى ذلك غريزة البقاء ، ثم علمه الاختبار ان خصب الارض وجدبها رهينان بحالة الطقس والجو ، فتلهب القوم نشوة الفرح لهذا الاكتشاف الاختباري ، ويقيمون الاعياد في بدء المواسم الخصبة ويقدمون الضحايا قرباناً لها ، مختارين من بينهم احسن شبانهم او فتياتهم ليذبحوه تكريماً لآلهة الموسم . وقد بقيت هذه العادة آلاف السنين حتى ادرك الانسان ان العلوم الطبيعية لا الآلهة ، هي التي يجب ان يستجير بها في معرفته لأزمنة الخصب والجدب .

٣. نشوء الحضارة والممالك

يجهل المنقبون ما كانت عليه حياة اجدادنا الاقدمين قبل عشرة آلاف سنة وكيف كانت مدنيتهم — اذا جازت الكلمة — اذ لا يوجد من الاثار الدالة على ذلك غير ما يستنتجه الباحثون من العلوم الطبيعية والبيولوجية. وقد اجمع المؤرخون على ان يبدأوا ابحاثهم ودروسهم التاريخية من عشرة آلاف سنة . والجدير بالذكر ان معالم هذا التاريخ تبدأ في عالمنا الشرقي العربي . ففي البلاد الواقعة بين النهرين ، دجلة والفرات ، التي يطلق عليها اسم العراق ، وفي وادي النيل ، ظهرت اول مدنية عرفها التاريخ . ولا شك في ان خصب التربة في هذه الاقطار فسح المجال لامكان المعيشة فيها ، فتوارد عليها الناس يعملون فيها ويستثمرون مواردها الطبيعية ، ويعيشون معاً عيشة جماعية ، يتعاونون ويتبادلون ، ويحرثون الارض ويتمتعون بخيراتها ، وهم يساكنون بعضهم بعضاً ، ويتزاوجون ويتوالدون ، ويؤلفون اول مجتمع انساني في التاريخ المعروف .

كانت هذه المجموعة البشرية النازلة في الاقطار المحيطة بأودية دجلة والفرات والنيل اول من كون حضارة يجوز ان تسمى بهذا الاسم . اذ ادرك افرادها فائدة الزراعة والحراثة واستثمروا الارض ، والفوا الحياة الاجتماعية ، ونظموا مجتمعهم ، وانشأوا المدن ، كل مدينة مستقلة عن غيرها ، لها هياكلها وآلهتها وكهانها . وكان الكهان يتمتعون بصفة دينية ومدنية ، يقضون بين الناس ، ويفسرون الاحلام ،

ويعالجون المرض بالشعوذة بغية طرد الارواح الشريرة ، سبب كل الامراض على زعمهم ، تلجأ اليهم العامة لاستشارتهم في جميع الامور احتراماً لتفوقهم وخبرتهم وسطوتهم . الكهان هم الملوك ، وهم الزعماء ، وهم الفلاسفة ، كلمتهم مسموعة ، وامرهم مطاع ، وحكمهم قانون. ولعلنا لا نعدو الواقع اذا قلنا ان الزعامة الزمنية التي يتمتع بها رؤساء الاديان في الشرق اكثر من امثالهم في الغرب ، ليست الا ارثاً لعادات وعقائد درج عليها اولئك الاجداد .

وعندما تعددت القبائل ، وازداد عدد المدن ، وكثر الكهان والملوك والآلهة ، بدأ التزاحم والتنافس بين الناس ، او بالاحرى بين زعماء الناس ، فكان ذلك سبباً للتقاتل في سبيل السيادة . واخذت المدينة الواحدة ، بامر الملك الكاهن ، او الكاهن الملك ، تغزو جاراتها ، فتستعبد سكانها ، وتهدم هياكلها . ومنذ ذلك العهد ابتدأ الناس يستعبد بعضهم بعضاً ، وينقسمون الى طبقات متفاوتة ، فئة الملوك ، وفئة الكهان ، وفئة المقاتلين ، وفئة العبيد ، حتى اذا ما تغلبت مدينة على جارتها او جاراتها استعبدت اهلها ووسعت دائرة حكمها ونفوذها فاصبحت عاصمة لامبراطورية يخضع لها ولسيدها ملوك المدن الاخرى ورعاياهم .

وهكذا نرى ان الحياة بدأت تأخذ صفتها الجماعية منذ ذلك الحين . ومن ثم كانت الامبراطورية الاولى التي امتدت من خليج العجم الى البحر الاحمر فنشرت مدنيتها في الاقطار المجاورة لها ، وعرفت فيها الكتابة لاول مرة وكانت مؤلفة من صور ورسوم للاشياء المرموز عنها تنقش على قطع من الطين متى جفت قامت مقام الكتب . وعندما قامت الامبراطورية المصرية في وادي النيل ظهرت معها الكتابة الهيروغليفية فسهلت التعامل بين الناس وبقيت الوسيلة الفضلى للتفاهم الى ان اخترع الفينيقيون حروفهم الابجدية فوضعوا بها اساساً للغات القائمة الآن . وليس من المستغرب ان يكون الفينيقيون وجدوا في الكتابة الهيروغليفية مفتاحاً لاختراعهم العجيب . فالفينيقيون قبيلة سامية زحفت من شواطىء خليج فارس واستقرت على شواطىء المتوسط منذ خمسة آلاف سنة، وقد امتازت بالمغامرة والاسفار وحب

التجارة والتوسع، فاسست المدن المتعددة في ارواد وجبيل وصيدا وصور وقطعت البحار الى شواطىء افريقيا فاسست قرطاجة واستعمرت الاصقاع البعيدة ، وازدهرت تجارتها وصناعتها ، ونشرت مدنيتها حيث حلت . ومما لا شك فيه ان العقلية التجارية التي طغت على الفينيقيين كانت تدفعهم للمغامرات والتوسع والاختراعات التي كان اهمها على الاطلاق اختراع الابجدية . ولا شك ايضاً في ان طغيان العقلية التجارية على الفينيقيين جعلهم عديمي الاهتمام بالسيادة القبائلية، فباستثناء حروبهم مع روما التي برز فيها بطلهم الشهير « هانيبال » كانت سياسة الفينيقيين تجارية بحتة ، يتجهون فيها شطر الجهة التي يأتيهم منها الربح اكثر من غيرها ، ومثلهم الاعلى الكسب عن اي طريق كان . فهل تكون العبقرية التجارية التي يمتاز بها سكان لبنان واحفاد الفينيقيين ارثاً اخذوه عن اولئك الاجداد ؟

كان ازدهار الحياة في المدن « الممالك » مثيراً لطمع القبائل الرحل، فغزا ارض الفرات قوم من الرعاة اشتهروا بالبأس فاستعمروا البلاد وحكموا اهلها واسسوا المملكة البابلية. كما استعمر وادي النيل فرع ثان من الساميين واسسوا المملكة المصرية، فكانت هاتان المملكتان باكورة الحكومات والانظمة الدولية . في ذلك العهد الذي يرجع الى اربعة آلاف سنة بدأت الحكومات تسن الشرائع . فسن الملك حمورابي البابلي شريعته العظمى وهي اول شريعة عرفها التاريخ . فكان الناس يتقاضون على اساسها وكانت النظام الوحيد لتوزيع الحقوق وفرض الواجبات .

ومن ذلك الحين تعاظمت سلطة الملوك ، واشتد بأس الغزاة والفاتحين وانتشرت الحروب . وكان الشعب المنتصر يستعبد الشعب المقهور ، يفرض عليه العقوبات ، ويبيد آلهته ، ويصدر الشرائع، ويجمع الجزية والغرامات العينية ، اذ ان النقد لم يكن قد ظهر للوجود. ولعل اول من اوجد النقد هو الامبراطور داريوس الفارسي ، وذلك عندما شيد امبراطوريته العظمى التي حكمت اسيا الصغرى ، وسوريا ومملكتي الاشوريين والبابليين ، وبلاد فارس ، وقسماً من الهند ، فاستنبط النقد تسهيلا للتعامل والتجارة في هذه الامبراطورية الواسعة الارجاء . وقد كان

لايجاد النقد اثر حاسم في المعاملة بين الشعوب ، فاحتلت التجارة المركز الاول في مدنية ذلك العصر ، وكانت صلة الوصل بين الممالك والبلدان .

بقيت الممالك في حروب مستمرة ، كما بقيت الشعوب رازحة تحت وطأة المطامع والفتوحات . وكان الملوك في اكثر الاحيان ينتحلون صفة الالوهية فيعبدهم الشعب ويخلص لهم ويستميت في المحافظة عليهم . وكان الناس الى جانب ذلك يجسدون الآلهة ببعض الظاهرات الطبيعية كالرعد والبرق ، او بالسيارات والاجرام الفلكية كالشمس والقمر ، او ببعض الحيوانات كالعجل والبقرة ، فيقيمون من هذه الآلهة واحداً للحرب وواحداً للحب وواحداً للانتقام وهلم جراً ، يبنون لها الهياكل ويسخرون لتشييدها الجماهير المستعبدة ، يسوقون العمال بالسوط ، وهؤلاء يكدحون ، اما خوفاً من بطش الرؤساء ، او خشية غضب الآلهة او طمعاً بعطفها ورضاها . هكذا بنيت هياكل بعلبك والاكروبول واهرام الفراعنة . واذا اردنا ان نسمي الاشياء باسمائها ، سمينا تلك العصور : عصور العبودية ، استعباد الملوك لرعاياهم ، وعبادة الشعوب لملوكها وآلهتها المتعددة . على هذه الصورة كان يعيش الناس في تلك الازمان : قطيع من الغنم يسوقه رعاته يوماً الى المرعى ، ويوماً الى الذبح ، والقطيع يمشي وراء مليكه ويشكر الآلهة .

كانت مصر في ذلك التاريخ البعيد اكثر الممالك خصباً وغنى بفضل النيل السعيد . وكانت القبائل السامية النازلة في ارضها في تنازع مستمر حتى قام من سكانها الاصليين حوالى عام ١٦٠٠ ق.م. قادة تغلبوا على القبائل الغازية واستعادوا السيادة منهم واسسوا امبراطوريتهم الفرعونية . فانتشرت مدنية الفراعنة واستعمرت بفتوحاتها الاقطار المجاورة لها ، وانشأت علاقات تجارية مع بقية الشعوب ، فحالفها الفينيقيون عندما وجدوا في محالفتها او في الخضوع لها مجالا لتوسيع تجارتهم . والفينيقيون كما اشرنا سابقاً لا مطمع لهم سوى التجارة والكسب . فقويت شوكة الامبراطورية الفرعونية وبسطت نفوذها ، وخطبت ودها الممالك ، وخضع لاباطرتها الملوك ، وكان ذلك مثيراً لحسد الممالك الاخرى فتوالت الحروب بين مصر والاشوريين

تارة ، والبابليين والسوريين تارة اخرى ، وبين مد وجزر كانت مصر تسود مرة وتخضع مرة اخرى الى ان ظهر الامبراطور داريوس الفارسي ، فتغلب عليها وعلى خصومها وانشأ امبراطورية ربما كانت اعظم امبراطورية عرفها التاريخ . ولعلنا لا نخطىء اذا قلنا ان هذا الشعب الآري الزاحف من شواطىء بحر قزوين ، والذي اسس هذه الامبراطورية العظمى ، واخضع الامبراطوريات المصرية والبابلية والاشورية ، ونشر فيها معالم حضارته ، قد انزل الضربة الاخيرة بالشعوب السامية فانتزع منها السيادة ، لينتزعها منه بدوره الاغريقيون كما سيأتي فيما بعد .

٤. اليهودية

على مسرح التاريخ

من الشعوب السامية التي هبطت ارض مصر ، شعب تميز بجلده وعبقريته ، وانتهاجه فلسفة جديدة في الحياة هي فلسفة الروح . نشأ في الصحراء فلم ير فيها ما يشبع مطامعه ، فرحل الى وادي النيل الخصب قصد الارتزاق . فنما وتوالد وكثر حتى خشي فرعون على نفسه منه ومن فلسفته القائمة على عبادة آله واحد غير منظور . وادرك ملك مصر ان ذيوع هذه الفلسفة قد يقضي على الآلهة المصرية وبالتالي على سلطته المستمدة منها ، فضرب على اليهود نطاقاً محكماً ، وانزل فيهم من ضروب الاضطهاد ما اضطرهم الى الهرب من الديار المصرية . فخرج اليهود من مصر ميممين شطر الصحراء وقبلتهم فلسطين ، الارض التي وعدهم بها ربهم على لسان نبيهم موسى. وبقي هذا الشعب تائهاً في الصحراء اربعين سنة كما جاء في الكتب المقدسة ، كانوا اثناءها عرضة للعذاب ، كلما اشتد عذابهم تنكروا لربهم وعادوا الى عبادة الاصنام . ولكن قيض لهم نبي وفيلسوف هو موسى ، فما ترك حيلة ولا وسيلة الا استعملها معهم حتى اقنعهم بانهم هم الشعب المختار من الرب ، وان عذابهم سينتهي عندما يطأون ارض الميعاد، وان هذا الرب الجبار سيخضع لسلطتهم شعوب الارض كلها ، فاعتنقوا الفكرة التي وعظهم بها موسى ، وقال انها وحي من الاله الواحد اوحي اليه في مناجاة بينه وبين ملاك الرب .

ليس هنا مجال للبحث في الاساطير التي حيكت عند الشعب اليهودي اثناء تيهه في

الصحراء . ولكن من الانصاف ان نقول ان الفلسفة التي بشر بها موسى كانت موفقة جداً .

لقد قال لهم موسى : ويحكم ايها الناس ان الآلهة التي تعبدها الشعوب المتعددة هي من صنع البشر . وهي عرضة للتحقير . فاذا تغلب شعب على شعب حطم اصنامه واباد آلهته ليقيم آلهة واصناماً من صنعه . واما الهنا اله الحق والقوة والصلاح ، فهو غير منظور ولا تصل اليه يد ملك او فاتح . هو فوق البشر ، ذو مهابة ووقار وسؤدد ، يضرب بيده الخفية جماعة الظالمين ، ويقود شعبه المؤمن الى النصر على اعدائه . وهذا الاله قد اختارنا نحن شعبه الخاص ووعدنا بالعودة الى ارض ابائنا واجدادنا التي تفيض لبناً وعسلا ، ومهما تقلبت علينا الايام فلن تتغلب علينا المحن ، لان الله سيساعدنا على اعدائنا وينيلنا مبتغانا . هكذا استطاع موسى واخوه هارون الذي خلفه في القيادة بعد موته ان يثبتا في شعبهم فكرة الاله غير المنظور حتى وصلا به الى ارض فلسطين ، ولكنهم لم يستولوا الا على قسم صغير منها في الجبال وبقيت السواحل ملك قبائل فلسطينية نزحت من جزر ايجه ، ولم يستطع اليهود التغلب عليها بل بالعكس كانوا في اكثر حروبهم معها ومع قبائل غيرها من المؤآبيين والميديين خاسرين . فادعاء اليهود بان فلسطين كلها كانت تحت سلطتهم هو ادعاء يكذبه التاريخ .

لم يكن لليهود يوماً قوة عسكرية او حربية . فتاريخ هذا الشعب مجموعة من الاضطهادات والانكسارات والسبي والذل . وليست اساطير التوراة اكثر من دعاوات اشتهر بها الشعب اليهودي ، وهو شعب حاد الذكاء ، قوي في مناعته المعنوية استلم قيادته فلاسفة عباقرة وزعماء متعصبون عرفوا كيف يخدمون مطامعهم . فوضعوا عبقريتهم كلها في خدمة شعبهم واذكاء روح الحقد فيه على بقية الشعوب .

لقد سبق القول ان اليهود هم اول من ابتدع فكرة الاله الواحد غير المنظور . وقد كانت هذه الفكرة نقطة الانطلاق لجمع شملهم ضمن فلسفة واحدة خلقت فيهم

قوة معنوية على عكس بقية الشعوب . ولكن اليهود لم يكتفوا بذلك بل كانوا اول من اوجد كتاباً خاصاً لنشر مبدأهم وعقيدتهم الدينية ، اذ وضع لهم فلاسفتهم كتاب «التوراة» الذي جمعوا فيه تاريخهم واسفارهم وتعاليم قضاتهم وانبيائهم ، وسطروا فيه شرائعهم وعقائدهم ، وبثوا الدعاية عن علاقاتهم مع « يهوه » آلههم الجبار ، وبالغوا فيه بانتصاراتهم على اعدائهم ، ناسبين انتصاراتهم الى معونة الاله الجبار الذي اخرجهم من العبودية واختارهم من بين شعوب الارض لينشروا رسالته الالهية ويحكموا حسب شرائعه واحكامه . والجدير بالذكر ان التوراة وضعت في ابان محنتهم عندما كانوا سبايا بابل في القرن الخامس ق.م. شعب تنزل فيه النوازل فلا يستسلم لها ولا تحط من معنوياته ، بل تحفزه على العمل والنضال للتخلص منها ، واسترجاع مكانته بين الشعوب. ومما لا شك فيه ان العقيدة التي جمعت حولها اليهود ، والكتاب الذي اوجده فلاسفة اليهود ، كانا في ذلك العهد العامل الاكبر في نهوضهم من كبواتهم ، وازدهار مدنيتهم ، وتغلبهم على القوى المتعددة التي كانت تضمر لهم الشر . فما كان اليهود يوماً محبوبين من غيرهم ، وما تغلب اليهود مرة بواسطة قواتهم العسكرية ، وانما مبعث قوتهم هو ايمانهم بعقيدة ابتدعها لهم فيلسوفهم الاكبر موسى وحمل لواءها ، بايمان وعبقرية ودهاء ، خلفاؤه من قضاة يقضون بينهم ، ومن فلاسفة قالوا لشعبهم انما نحن انبياء ، قولنا هو قول الرب الذي نعبد وتعبدون . هؤلاء الانبياء الذين من الانصاف ان يشهد لهم العالم بالتفوق والاخلاص لعقيدتهم وشعبهم ، والذين كانوا اول المبشرين بالحق والقيم الانسانية وعمل المعروف ، واول من وضعوا نظاماً اجتماعياً ومدنياً يمت بشبه الى الانظمة القائمة اليوم . ولو لم يتميز اليهود بالتعصب الجنسي والغرور الديني ، والميل الى العزلة وحب الاستئثار لكان شأنهم في العالم ارفع مما هو عليه ، ولما كانوا عرضة لكره الامم الاخرى وحذرها منهم ، ولما شحن التاريخ باخبار اضطهادهم وتشريدهم .

٥. الحضارة الاغريقية

بينما كان اليهود يعانون المتاعب في الشرق دون ان تعيقهم عن نشر رسالتهم والدعاية لها هبط الى جنوب شرقي اوروبا من الشمال ، في القرن التاسع ق.م. شعب آري ادخل على مدنية ذلك العصر نوعا جديداً من الثقافة مبنيا على البحث العلمي والفكري والمنطقي . ذلك هو الشعب الاغريقي الذي لم تستهوه روحانية اليهود ولا عقيدتهم بالاله الواحد غير المنظور والكلي القدرة ، فانصرف الى البحث الفكري والمنطقي مقدراً قيمة العقل البشري في تفهم الحياة والانسان .

ادرك هذا الشعب قيمة الفن فشيد لآلهته هياكل « الاكروبول » اعجوبة الفن الاغريقي الى اليوم ، ونظم شعراؤه الملاحم تفاخراً بامجاده واذكاء لحماسته . ان حصار طروادة قد الهم هوميروس الياذته الخالدة ، وحروب اسبارطة واثينا والاسكندر قد اغنت الحضارة الاغريقية بما كتبه عنها كتابهم وشعراؤهم ومؤرخوهم ، الذين اقتبسوا الابجدية من الفينيقيين وتفوقوا فيها على الفينيقيين انفسهم ، مسطرين بواسطتها القصص والاساطير تنويراً لشعبهم الطموح .

وادرك الاغريق قيمة العلوم والابحاث والفلسفة والحكمة فقام منهم جهابذة اعلامهم سقراط وافلاطون وارسطو وابوقراط . « اعرف نفسك » كلمة بشر بها سقراط منذ اربعمائة سنة قبل المسيح فكانت كلمته هذه اساساً لفلسفة تنكر على الآلهة الاغريقية تحكمها بالعقل البشري . «المعرفة بنت العقل والادراك» هكذا علم سقراط

فقد عليه الشيوخ والحكام وحكموا عليه بالموت متجرعاً السم فتجرعه مطمئناً ، ولكن تلاميذه ظلوا امناء لتعاليمه فنشروها بعد موته وعلموا بها ، فكانت نقطة الانطلاق للفلسفة الاغريقية في العالم . وسبب ذلك ان ارسطو كان معلم الاسكندر ، وكان من الطبيعي ان يتأثر التلميذ بمعلمه ويحمل معه تعاليمه في فتوحاته ، مما جعل هذه الفتوحات ذات طابعين، طابع عسكري حربي وطابع ثقافي فلسفي، انتشرت على اثرها فلسفة ارسطو في الغرب والشرق فضعف مركز المدرسة القديمة القائمة على وحي الآلهة وخرافات الاساطير ، وتبوات المركز الاول المدرسة الجديدة القائمة على المعرفة والمنطق والعلوم الطبيعية والدروس الموضوعية للاشياء . لقد كان من مميزات الثقافة الاغريقية انها لم تترك ناحية من النواحي العلمية الا طرقتها . الفيلسوف الاغريقي ابوقراط هو الاب الاول لعلم الطب ، هذه الحرفة الفنية والانسانية التي وضع قواعدها العلمية وانتزعها من ايدي الكهان والمشعوذين وسلمها الى العلماء. وهو الذي وضع القسم الطبي تكريساً لانسانية حرفة الطب، هذا القسم الذي يعتبر للآن ناموس هذه الحرفة . كل الظاهرات الطبيعية كانت موضوع دراسة علماء الاغريق في الفلك والكيمياء والرياضيات والطبيعيات . ولو لم ترافق فتوحات الاغريق الثقافية فتوحات الاسكندر الحربية لما بقي لحروب «ذي القرنين» هذه الاهمية التي يسجلها لها التاريخ . ان فتوحات جينكيزخان وتيمورلنك تغيب معالمها من التاريخ لانها اقتصرت على الحروب والغزوات العسكرية ولم تخلق حضارة ولا نشرت مدنية بل اكتفت بالتقتيل والاضطهاد ونشر الرعب والاستبداد ، بينما كانت فتوحات الاسكندر الحربية واسطة لفتوحات ثقافية وحضارية قلبت وجه التاريخ والمجتمع الانساني . وعندما وصل اسكندر الفاتح الى الشرق وفتح مصر وضع في الاسكندرية ، المدينة التي سميت باسمه ، اساس المكتبة الكبرى وترك لخليفته بطليموس مهمة تشييدها والعمل على ازدهارها ، فبقيت وقتاً طويلا قبلة الباحثين وطلاب المعرفة والعلم . ولو لم يستهتر خلفاء بطليموس بهذا الاثر العظيم عندما تمصر اولئك الخلفاء ، ولو لم تلعب به فيما بعد ايدي الغزاة المخربين لبقيت مكتبة

الاسكندرية اعظم اثر تاريخي وعلمي . واذا نسي العالم اسماء فيليب والاسكندر وامثالهما فانه لن ينسى اسماء سقراط وافلاطون وارسطو وابوقراط وارخميدس وسوفوكليس وغيرهم من الفلاسفة الذي شيدوا حضارة تقوم على العلم والفن والبحث والمعرفة بعد ان كانت الحضارات السابقة قائمة على الوحي والشعوذة والاساطير .

يضاف الى ذلك كله ان الاغريق هم اول من وضعوا اساساً للاحكام والادارة والانظمة وهم اول من اوجد الفكرة الديموقراطية اي حكم الشعب للشعب . لم يجرؤ احد قبل افلاطون على التبشير بالنظام الجمهوري، وقد كان مؤلفه عن الجمهورية بمثابة انقلاب اجتماعي . وعلى الرغم من ان الديموقراطية الاغريقية كانت بعيدة كل البعد عن مفهوم الديموقراطية الحديث فلا يسع احداً ان ينكر ان نشوء الفكرة الديموقراطية كان من وحي الفلسفة اليونانية . لقد قالوا ان الشعب يجب ان يحكم نفسه ، ولكنهم قسموا الشعب الى طبقتين : طبقة المواطنين وطبقة العبيد، واعطوا حق الحكم للاولين فقط . وهذا مفهوم محدود للديموقراطية ، لا تمثيل فيه ولا انتخاب ، ولكنه على كل حال خطوة اولى في المنظمة الشعبية . فالمجالس هي التي تحكم وتسن الشرائع وليس الفرد . انها ديموقراطية محدودة ضيقة ولكنها على كل حال ديموقراطية تصلح لان تكون اساساً لديموقراطية افضل .

٦. روما تثب الى المقدمة

لم تعمر السيادة اليونانية طويلا، اذ قامت في شبه الجزيرة الايطالية مدنية جديدة نشأت في مدينة روما وما لبثت ان انتزعت السيادة من الاغريق .

لقد ظلت روما خاضعة لملوك الاترسكيين طوال القرن السادس والسابع قبل المسيح . ولكن ما ان اصطدم هؤلاء الملوك مع الاغريق النازلين في شبه الجزيرة الايطالية وفي جزيرة صقلية ، حتى هب سكان روما فثاروا على اسيادهم وطردوهم من الحكم وانتزعوا منهم السيادة والفوا لانفسهم حكومة جمهورية لم تلبث ان اخذت تتوسع في ايطاليا على حساب الاترسكيين والاغريق وانتهت الى طرد هؤلاء واولئك من شبه الجزيرة كلها بعد حروب كانت الغلبة فيها احياناً لاهل روما واحياناً لليونان . ولكن الاغريق كانوا في النتيجة هم المقهورين عسكرياً لانهم لم يكونوا في حرب مع الرومان وحدهم بل وجدوا امامهم عدواً عنيداً ثانياً في الفينيقيين الذين زحفوا من شواطىء المتوسط الشرقية واستعمروا الشواطىء الافريقية وبنوا مستعمرتهم العظمى في قرطاجة . كان هم الفينيقيين ان يقضوا على الاغريق غير آبهين في بادىء الامر لروما، فاستوطنوا على الشاطىء الافريقي تاركين الشاطىء الاوروبي للرومان. ولكن ما ان تخلص الفينيقيون من اليونان حتى بدأت المزاحمة بينهم وبين جيرانهم الرومان ، ووقعت بين الفريقين الجبارين الحروب البونية التي دامت مائة سنة ونيف تتخللها فترات من السلم. لقد حارب اهل قرطاجة الرومان فانجدهم

اخوانهم الفينيقيون في اسبانيا والشواطىء الشرقية في المتوسط مستخدمين فنونهم الحربية في بناء اسطول استطاعوا بواسطته في بادىء الامر غزو الاراضي الرومانية من البحر . ثم جيش عليهم «هنيبال» جيوشه البرية وتغلب عليهم . ثم استعان بالغاليين على مهاجمة روما في البر قاطعاً لاول مرة جبال الالب فانزل بالجيوش الرومانية الهزائم . غير ان الاضطرابات التي جرت في بلاده اضعفت من مقاومته ، ثم نزلت على شواطىء مرسيليا جيوش رومانية ، فهددته بقطع خط الرجعة عليه ، وصادف ذلك انكساره في معركة «زاما» على ابواب روما على يد القائد الافريقي الروماني سيبيون فتشتتت جيوشه واستسلمت الى العدو ، غير ان هنيبال استطاع الهرب والنجاة بنفسه ، فهاجر الى آسيا الصغرى حيث مات منتحراً . وقد حاول القرطاجيون الاخذ بثأرهم بغير ذلك فردوا خائبين ، وكان بذلك نهاية الحروب البونية وتثبيت السيادة الرومانية .

تعاظمت سلطة روما وسيادتها واخذت بالتوسع في الغرب وكانت في بادىء الامر دولة جمهورية اقتبست هذا النظام الجمهوري عن اليونان . وقد امتد حكمها الى فرنسا وبلجيكا وبريطانيا شمالا ، والى هنغاريا وجنوبي روسيا وجميع المقاطعات التي كانت تحت سلطة اليونان شرقاً ، والى اسبانيا والشواطىء الافريقية جنوباً ، وبقيت روما ردحاً من الزمن جمهورية شبه ديموقراطية يحكمها مجلسان : مجلس اعلى يسمى مجلس الشيوخ مؤلف من الاشراف والكبار ، ومجلس العموم المؤلف من المواطنين العاديين . ومع ان اعضاء هذين المجلسين لم يكونوا اعضاء منتخبين انتخاباً ، فقد كانوا الى حد ما يمثلون الفئات الشعبية التي كان افرادها يتمتعون بحقوق المواطن ، اذ ان روما كانت كاليونان تقسم الشعب الى فئة المواطنين وفئة العبيد . ومما يجدر ذكره ان الشعوب التي كانت تستعمرها روما بالفتح كان افرادها يعطون حقوق الروماني الاصيل . ثم ما عتمت هذه الجمهورية ان انقلبت الى ديكتاتورية عسكرية ثم الى قنصلية على يد قوادها العسكريين الفاتحين من ماريوس الى بومباي وانطونيوس الى يوليوس قيصر . وعندما سطع نجم يوليوس قام

بغزواته المشهورة فافتتح فرنسا وكل غربي اوروبا وقطع المانش الى بريطانيا ، ثم اتجه شطر الشرق فنزل القطر المصري وهناك احب كليوباطره الملكة الألالهة في مصر وهام بها فحمل معه الى الغرب فكرة الملك الاله ونصب لنفسه في روما هيكلا ودعا الناس الى عبادته كملك واله ، فقضى بذلك على النظام الجمهوري مما اغضب مجلس الشيوخ ، فحقد هذا على يوليوس قيصر وكان مقتله نتيجة لهذا الحقد . وعندما تولى السلطة من بعده اوغسطوس قيصر بعد ان هزم مزاحمه ماركوس انطونيوس اتخذ لنفسه لقب امبراطور واعاد سلطة مجلس الشيوخ مستكفاً عن الوهية الفرد واستقلاله في حكم الدولة ، وكان ذلك في سنة ٢٧ قبل المسيح .

ولم يسبق لامبراطورية ان بلغت من المجد والسؤدد ما بلغته الامبراطورية الرومانية . لا ريب في ان امجاد الامبراطورية الرومانية اوجدت حضارة رومانية ، واذا كان لا بد من الاعتراف بان هذه الحضارة كانت مقتبسة من الحضارة اليونانية ، فمن الحق ايضاً القول بان التوسع الاستعماري الروماني كان ذا اثر فعال في ازدهارها. ومن اهم العوامل التي ساعدت على هذا الازدهار عامل التجارة بينها وبين الاقطار المجاورة لها والبعيدة عنها . فالتجارة بطبيعتها تقرب الشعوب بعضها من بعض وتنشىء المواصلات وتوثق العلاقات بين البلدان والدول ، فتتشابك الحضارات ويسهل الاقتباس فيما بينها .

كان للناحية العمرانية قسط وافر من اهتمام الامبراطورية . فعندما كان الرومان يفتحون البلدان كانوا يسهلون سبل العمل لسكانها . كانوا يشقون الطرق وينشئون الاقنية للمياه إحياء للزراعة . كانوا يفتحون المدارس ويسنون الشرائع وينظمون الادارة . غير ان نظام الرق والعبودية كان يقصر منافع هذه المشاريع على الرومان المستعمرين وعلى القلة المفضلة من سكان البلدان الخاضعة للاستعمار الروماني . وهنا لا بد من التنويه بانه قد طغت على الاباطرة والبلاطات اثناء العهد الامبراطوري الروماني ولا سيما في الفترة الاخيرة موجة من التفسخ الخلقي اذا اضفتها الى ما كان عليه نظامهم الاستعماري من قسوة والى تفريقهم بين الفئات المتمتعة بحقوق المواطن

وهي القلة والفئات التي يطلق على افرادها لقب العبيد ، ادركت عندئذ ما كان عليه المجتمع في تلك الايام . ان نظام الرق والعبودية في عهد الامبراطورية كان يسير في عهد الاباطرة من سيء الى اسوأ ، فكانت جميع الاعمال تقوم على السخرة . قطعان من العبيد يكدحون والسياط تلعب في اجسامهم ، اذا تمرد احدهم كان نصيبه الجلد حتى يموت ، واذا قتل احدهم سيداً اعدم منهم عشرات . حتى العبيد كانوا فئات متفاوتة ، فمنهم من كانت تترك له الحرية في الزواج والعيش في كوخ على ان يشتغل في ارض سيده في النهار ، ومنهم من كان يشتغل نهاراً ثم يقيد بالسلاسل ليلا خوفاً من ان يهرب ، ومنهم من كان لا يفك من قيوده الا لمقاتلة الثيران ترفيهاً عن الامبراطور وجماعة الاشراف . لقد كان نظام العبودية في العهد الروماني اكثر قسوة مما كان عليه في العهد اليوناني او اي عهد آخر ، حتى بلغ الحقد بين الناس على هذا العهد درجة ساعدت الغزاة من برابرة الشمال على انزال الضربة تلو الضربة بالامبراطورية الرومانية على الرغم من قوتها العسكرية . ولم تقتصر العبودية على العمال والشغيلة بل ان كثيرين من المعلمين في بيوت الحكام والاشراف وكثيرين من الاطباء كانوا عبيداً ايضاً . ولم تستطع الامبراطورية الرومانية حتى في اوجها ان تتغلب على المدرسة اليونانية ، فبقيت لغة اليونان اللغة المنتشرة في الاصقاع اليونانية المستعمرة ، كما كان الكثيرون من بطانات الاباطرة انفسهم يؤثرون التخاطب بها . وبينما كان الاستعمار الروماني يحمل معه لغته اللاتينية الى كل اوروبا ، بقي عاجزاً عن ادخال هذه اللغة الى بلاد اليونان ، على الرغم من قسوته وسعيه الملح لمحو اللغة اليونانية والفكر اليوناني . ولهذا نرى انه لم تكد شمس الامبراطورية الرومانية تتوارى حتى برزت فلسفة سقراط وافلاطون وارسطو من جديد . اما اللغة اللاتينية ، لغة الامبراطورية الرومانية ، فقد ظلت مزدهرة في غربي اوروبا التي استقت منها لغاتها ، كاللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية والبورتغالية فكان للغة اللاتينية صفة الامومة عليها . وهذا ما يفسر لنا دوام ازدهار الحضارة اللاتينية . على ان العامل الاكبر في استبقاء المدنية اللاتينية انما يرجع الى الكنيسة الكاثوليكية

والسلطة البابوية كما سيجيء فيما بعد .

لقد استمرت روما خمسة قرون ونيف ، بينما لم تدم سيادة آثينا اكثر من قرن واحد وبعض القرن . ومع هذا فان آثينا قد تركت للتاريخ وللاجيال الآتية في قرن واحد ، ميراثاً لم تهيء روما مثله في خمسة قرون ، وما استطاعت غطرسة روما ان تقلل من شأنه او تمحو اثاره . ذلك ان آثينا قد غذت سيادتها بفلسفة فكرية عامية وروحية بينما شاءت روما ان تبقى على سيادتها بالقوة العسكرية والحربية والمادية ، مستهترة بالقيم الاخلاقية والفكرية والروحية ، فكانت حضارتها حضارة عسكرية وادارية فحسب. وما كانت حضارتها العمرانية الا وسيلة لبسط سيطرتها الاستعمارية. هكذا كان شأن الاستعمار منذ اقدم العصور ولا يزال شأنه الى يومنا هذا. المستعمر يعمر لكي يستفيد هو من التعمير ، له الحصة الكبرى ولسكان البلدان المستعمَرة جرعات مقننة لا تكفي الا لتخديره عن حقه الكامل واستكانته الى الوضع الذي فرضه عليه المستعمِر . ولكن الاستعمار غرار وهو خداع بطبيعته يقسو احياناً ويلين احياناً اخرى ، تبعاً لما يفرضه الزمن وتطور الفكر البشري ، ولكنه في حالتي القسوة واللين لا يهدف الا الى غاية واحدة هي استعباد الانسان للانسان واستثمار القلة للكثرة . وما ثورات العامة على الخاصة عبر التاريخ الا نتيجة حتمية للاستعمار في جميع معالمه الاقتصادية والسياسية والفكرية والدينية.

٧. رحلة خاطفة الى داخل آسيا

يعرف المبتدىء في علم الجغرافيا ان القارة الاسيوية اكبر القارات الارضية مساحة واكثرها سكاناً . انها تنبسط على ثلاثة واربعين مليون كيلومتر من اليابسة ، وهي مساحة تزيد على مساحة اوروبا وافريقيا مجتمعتين ، وتضم من السكان ملياراً من البشر او اكثر قليلا ، وهو ما يشكل نصف عدد سكان العالم. ولما كانت زاويتها الجنوبية الغربية المعروفة بآسيا الصغرى اكثر ملاصقة لاوروبا وللغرب اكثر منها للبطاح الاسيوية الواسعة في الشرق ، فان هذه الزاوية كانت على ممر الاجيال تحت تأثير الحضارة الغربية كما كانت ميداناً للاستعمار الغربي . استقبلت في القرن الخامس ق. م. فتوحات الاسكندر ثم غزاها الاستعمار الروماني ، ودان قسم منها في القرون الوسطى للصليبيين ، وبقي الغرب طامعاً فيها خلال الاجيال المتعاقبة ، وهي لا تزال الى الآن قبلة انظار الاستعمار البريطاني والفرنسي واخيراً الاستعمار الاميركي .

ولكن هذه الزاوية في آسيا ليست الا جزءاً صغيراً من القارة الاسيوية الكبرى. فلنذهب اذن في جولة خاطفة الى ذلك القسم الكبير المترامي وندرس ما كانت عليه احوال شعوبه وحضارة سكانه وانظمة حكوماتهم وطرق معايشهم .

كانت الصين ، ولما تزل ، البقعة الكبرى والاهم من بقاع آسيا . ويقال ان شعوب الصين كانت تزدحم حول الانهر والاودية طلباً للخصب والرزق ، مثلما كانت شعوب الشرق الادنى تزدحم على شواطىء النيل والنهرين . تزرع الارض وتعيش

على خيراتها وتقدم لآلهتها ذبائحها الانسانية اولا ثم الحيوانية . وكان ابناء تلك الشعوب في نزاع دائم مع القبائل الرحل الهابطة عليهم من الشمال وهو نزاع ادى الى اختلاط الشعوب الصينية والشعوب النازحة من الشمال . فلم تقم في الصين وحدة قومية وسياسية الا حوالى القرن السادس عشر ق.م. عندما خضعت الصين كلها الى كاهن ملك منح لقب «ابن السماء». وتوالت على الصين منذ ذلك الحين سلالات ملكية متعددة انتهى النزاع فيما بينها الى تجزئة الصين وقيام مقاطعات مستقلة متعددة يقال انها بلغت في القرن السادس ق. م. الستة آلاف عداً ، حتى سمي ذلك العهد عهد الفوضى .

غير ان عهد الفوضى السياسية والادارية والحكومية رافقته يقظة فكرية وروحية ، فظهر بين الشعوب حكماء وفلاسفة ومعلمون ينشرون الحكمة ويبشرون بالقيم الروحية . وكان اعظمهم واكثرهم تأثيراً ثلاثة : كنفوشيوس وبوذا ولاوتسي.

كان كنفوشيوس اكثر الثلاثة واقعية في الحياة . حزن كنفوشيوس للفوضى الادارية والاخلاقية التي سادت الحكام ورعاياهم . فطاف انحاء الصين داعياً الى النظام واصلاح المجتمع عن طريق اصلاح النفس . «اصلح نفسك» هذه هي الآية التي كان يرددها كنفوشيوس على تلاميذه كما كان سقراط الاغريقي يردد آيته «اعرف نفسك» . لقد تحدر كنفوشيوس من اسرة ارستوقراطية فساعده ذلك على ان يتبوأ مراكز رسمية في الدولة وعلى ان يستغل هذه المراكز للتبشير بنظامه الاصلاحي . فطفق يدعو الحكام والامراء الى اصلاح انفسهم اولا لكي يتمكنوا من اصلاح رعاياهم . هو لم يكن يؤمن بالفلسفة القائلة « كما تكونون يولى عليكم » بل كانت فلسفته «كما تكونون تكون رعاياكم» . سئل مرة عن رأيه في الحكومة الصالحة فقال : «الحكومة الصالحة هي التي يثق بها شعبها» فسأله تلاميذه « وماذا يجب ان تعمل الحكومة لتحوز ثقة الشعب؟». فاجاب «على الحاكم ان يصلح نفسه اولا ومتى اصلح نفسه عمل على اصلاح اقاربه وبطانته، ومتى اصلح اقرباءه وبطانته استطاع ان يصلح شعبه فيثق به وبحكومته» . ولكن كنفوشيوس لم يسلم من

دسائس الانتهازيين والمقربين للحكام ، فخابت آماله ومات حزيناً مقهوراً لانه لم يجد اميراً صالحاً يتعظ بتعاليمه . غير ان فلسفة كنفوشيوس لم تمت بموته ، كما ان فلسفة سقراط لم تمت بموته ، بل اخذها عنه تلاميذه وبشروا بها فكتب لها البقاء ، وتزود منها من اتى بعده من الفلاسفة والحكماء. كثيرة هي التعاليم المسيحية المأخوذة عن تعاليم كنفوشيوس، اختلفت في الوضع ولم تختلف في الجوهر. «لا تفعل بالناس ما لا تريد ان يفعله الناس بك». هكذا قال حكيم الصين. فلما اتى المسيح وضع الآية نفسها بقالبها الايجابي فقال «افعلوا بالناس ما تريدون ان يفعلوا بكم» . قال حكيم الصين «لا تبغضوا اعداءكم» فقال المسيح «احبوا اعداءكم». الاثنان بشرا بالمحبة والصلاح وان اختلف المصدر الذي نسب اليه كل من الاثنين المحبة والصلاح والخير ، اذ كان هذا المصدر بنظر كنفوشيوس الآلهة الصينية القديمة ، بينما كان بنظر المسيح الاله الواحد غير المنظور ، ولا عبرة في هذا الاختلاف ما دام الجوهر واحداً .

ان الاثر الذي تركته الكنفوشيوسية في التاريخ لم يضارعه اثر البوذية او اللاوتسية على الرغم من ان مئات الملايين من البشر في آسيا هم من اتباع بوذا، وعلى الرغم من ان هؤلاء الملايين قد اعتبروا معلمهم «غواناما» الهاً . ذلك لان تعاليم بوذا كانت اقل واقعية من تعاليم كنفوشيوس ، فاكتفت بالتبشير باصلاح النفس عن طريق انكار الذات وكبح الشهوات واقامة الهياكل يأوي فيها كهانها ونساكها ويدلف اليها الحجاج والمتعبدون والمتقشفون، مهملين دنياهم، مسترسلين في الخمول والتواكل طمعاً براحة ابدية خالدة لنفوسهم . روحانية مغمضة مملوءة بالاسرار والرموز والخرافات والدعوة الى التقشف والخمول مما يجعل مجال التقدم والتطور غير متسع امام معتنقيها . ان بوذا ولاوتسي حصرا تعاليمهما بالساحية الروحية ، واحاطوها بهالة من القدسية والميتافيزيكية الغامضة ، فكان هذا الغموض سبباً في جمودها وعدم تطورها شأنها في ذلك شأن كل روحانية محصنة لا تترك مجالا للانطلاق والتحرر .

طال عهد الفوضى في الصين مدة ثلاثة قرون الى ان قام «شي هوانغ تي» عام

٢٤٦ ق.م. وجمع المقاطعات المتفرقة في امبراطورية واحدة بقي هو امبراطوراً عليها مدة اربعين سنة فاستطاع توحيد الصين وبنى حولها ذلك السور المنيع المعروف بالحائط الصيني . وهكذا عرف الامبراطور «شي هوانغ تي» بحنكته وشجاعته كيف يستغل تعاليم كنفوشيوس لانشاء اكبر امبراطورية شرقية بل اكبر امبراطورية في العالم.

كان العالم مقسوماً في القرون الثلاثة التي سبقت مولد المسيح الى امبراطوريتين جبارتين ، هما الامبراطورية الرومانية في الغرب والامبراطورية الصينية في الشرق . ولكل من هاتين الامبراطوريتين حضارتها التي تتفق مع الاخرى في بعض النواحي الروحية كعبادة الآلهة الصنمية واقامة الهياكل لها ، ولكنها تختلف عنها في النواحي العمرانية والمعاشية ، فالحضارة الغربية كانت تفوق زميلتها الشرقية في التحسس بكيان الفرد الاجتماعي والاقتصادي ، وتعتمد اكثر منها على واقع الحياة وتطور حاجة المجتمع .

بقيت هاتان الامبراطوريتان منعزلتين الواحدة عن الاخرى مئات السنين . فالمسافات الشاسعة بين حدودهما وصعوبة المواصلات جعلت كل تفاعل بين حضارتيهما مستحيلا الى زمن . غير ان هذا التفاعل بدأ يظهر عندما اخذت المطامع تساور الامبراطوريتين بزيادة التوسع فتوغلت الامبراطورية الرومانية شطر الشرق وتوغلت الامبراطورية الصينية شطر الغرب ، واصبحت القطاعات الجنوبية الشرقية من آسيا نقطة الاتصال بين الامبراطوريتين . وقد زاد في هذا التفاعل اندفاع الرومان الى الشرق بعد غزو برابرة الشمال لروما ، واندفاع الصين نحو الغرب بعد غزو منغول شمالي آسيا ومنشوريا للصين . فكان هذا الغزو واسطة للاختلاط بين الشعوب . وكانت المناطق المحيطة ببحر قزوين وقطاعات الهند نقطة الارتكاز في هذا التفاعل بين الغرب والشرق وبين حضارتيهما . وكان طبيعياً ان يتعرف الشرق الى فلسفة سقراط وافلاطون وارسطو ، كما كان طبيعياً ان يتعرف الغرب الى فلسفة كنفوشيوس وروحانية بوذا ولاوتسي ، وبدأ كل من الشرق والغرب يحاول الاتصال بالآخر عن طريق الاسفار وتبادل التجارة والثقافة بين اقطارهما .

بيد ان التفاعل بين الامبراطوريتين وشعوبها لم يقف عند حد التبادل الثقافي والتجاري ، اذ ما كاد يبزغ فجر القرن الثاني بعد المسيح حتى اكتسح الصين وباء الطاعون فكانت ضحاياه تملأ الطرقات وتبيد السكان ، وساعد الوباء غزاة الشمال على تقويض الامبراطورية الكبرى فدب فيها الانحلال وعادت اليها حالة الفوضى ، ولم يقم لها بعد ذلك قائمة الا في القرن السابع على يد سلالة «تان» . وكان وباء الطاعون واسع الانتشار سريع الانتقال ، فما لبث ان زحف من آسيا على اوروبا ليساعد برابرة الشمال في غزوهم الامبراطورية الرومانية وتقويض اركانها على الرغم مما بذله اسيادها وحماتها لدفع وطأة الوباء وما بذله قوادها وجنودها من بطولة لكسر شوكة الغزاة الشماليين . وعندما قهرت روما وسادتها قوات البرابرة ، ولم تعد اهلا لان تكون عاصمة الامبراطورية ، غادرها الامبراطور قسطنطين في الثلث الاول من القرن الرابع واختار بيزنطية عاصمة له ، فسميت بالقسطنطينية على اسمه ، حتى اذا مات هذا الامبراطور انقسمت الامبراطورية الى قسم غربي مستضعف عرضة لغزوات جيرانه ، وقسم شرقي اكثر منعة عاصمته القسطنطينية . فكان هذا الانقسام الضربة الحاسمة التي نزلت بالامبراطورية الرومانية وسيادتها العالمية .

٨. ملكوت السماوات

ومملكة المسيح

بعد انقلاب الديكتاتورية الرومانية الى امبراطورية ، وفي عهد القيصر اوغسطوس، ولد في بيت لحم اليهودية طفل اسمه يسوع. قدر له ان يقلب وجه التاريخ.

كانت بيت لحم وبلاد اليهودية في ذلك الحين ولاية من ولايات الامبراطورية الرومانية . وكان اليهود يتمتعون بنوع من الحكم الذاتي تحت سيادة روما . ان بحثنا هذا لن يتناول الاحداث التي رافقت ولادة المسيح وما جاء في الكتب عن اضطهاد يوسف النجار ومريم خطيبته وهربهما مع الطفل . فهذه امور نتركها للمؤرخين . المهم لدينا هو البحث في المسيحية وتعاليم المسيح ، وهذه لم تظهر الا بعد مرور ثلاثين او على الاصح ثلاث وثلاثين سنة على ولادته . والتاريخ نفسه لا يذكر لنا شيئاً عن المسيح في غضون هذه الثلاثين السنة ، والغموض الذي رافق هذه المرحلة من حياة المسيح جعل بعض الباحثين يذهبون الى انه قد سافر خلالها الى الهند ودرس على حكمائها ووقف على اعمال فقرائها «العجائبية» واستوعب فلسفة بوذا وكنفوشيوس التي وصلت الى الهند بحكم الجوار . ويقولون ان هذه الرحلة قد تركت فيه اثراً تجلى في بعض اعماله وتعاليمه . ما لنا ولذلك ، فان الذي يهمنا في هذا الكتاب هو البحث في تعاليم المسيح والحضارة التي جاءت نتيجة لها .

لقن المسيح في طفولته التعاليم اليهودية ، فاخذ عن اليهود عقيدتهم ، وقال مثلهم بالاله الواحد غير المنظور ، وكان حرباً على الوثنية وعبادة الاصنام . ولكن

اليهود انفسهم انكروه واضطهدوه لانه انكر عليهم ما كانوا يدعونه من ان هذا الاله غير المنظور والفائق القدرة هو الههم وحدهم وقد اصطفاهم من دون الناس ليكونوا شعبه الممتاز . وعندما قام المسيح يبشر بالمحبة والاخوة وانكار الذات غضب عليه اقطاب اليهود الذين رأوا في تعاليمه خطراً على سلطانهم ونفوذهم، فاضمروا له الشر وتوسلوا الى السلطة الرومانية لمحاكمته كزنديق وساحر وفوضوي يهدف الى تقويض السيادة الرومانية وامبراطوريتها ، فانصاعت هذه السلطة الى توسلاتهم مسايرة لهم وتخوفاً من انتشار مبادئه الى مدى واسع قد يسبب لها القلق ويجر عليها الاضطراب .

اذا ضربنا صفحاً عن الاعمال «العجائبية» التي اتت على وضعها الاناجيل الاربعة والتي يختلف تفسير العلماء لها عن تفسير المؤمنين بالوهية المسيح، وما ذلك الا لبحث التعاليم التي قامت عليها المسيحية والمدنية التي نشأت عن فلسفتها ، فالمسيحية بحد ذاتها فلسفة وتعاليم اكثر مما هي عجائب . ان العجائب التي رويت عن المسيح قد خدمت الفكرة وساعدت على انتشارها لان الناس في تلك الايام كانوا في حاجة الى ظاهرات تبهرهم ليؤمنوا بما يعملون . فالعجائب اذن كانت وسيلة لغاية ، وليس من ينكر النجاح الذي صادفته .

كان الحكم في ذلك الزمان ظلماً واقطاعية واستبداداً ونفوذاً ، وكانت المدنية فساداً وفجوراً واستثماراً ، فجاء المسيح يبشر بالرأفة والرحمة والوداعة والقناعة وعدم الاتجار والاستثمار: «من اراد ان يكون فيكم عظيماً فليكن لكم خادماً»، «لا تعبدوا ربين الله والمال»، «انه ايسر للجمل ان يدخل من ثقب ابرة من ان يدخل غني الى ملكوت الله» . هذه التعاليم لم تهضمها السلطات المدنية ، ولا السلطات الروحية ، لمعاكستها لمبادئهم وعقائدهم وانظمتهم .

اذا اردنا ان نرجع فكرة الاشتراكية الى مرجعها الاصلي فيمكن القول ان المسيح كان الاشتراكي الاول . لقد ولد المسيح ولادة متواضعة في اسرة فقيرة وعاش بين الكادحين البسطاء ، وحصر جهوده في تعليمهم ، وبث روح العمل

والثورة فيهم ، ناعياً على الحكومات والحكام والشيوخ مظالمهم واضطهادهم طبقات الشعب . لقد اختار تلاميذه من عامة الناس ، من صيادي السمك والعمال ، لانه كان يحتقر الاغنياء والتجار . وعندما طرد الباعة من امام باب الهيكل نقم عليه هؤلاء وقالوا ان هذا الرجل ينقض النواميس. وعندما قال: «بعرق جبينك تأكل خبزك» حكم على الذين يتاجرون ويعيشون على حساب العامل الفقير .

انها لثورة اجتماعية هائلة تلك التي اضرمها مولود بيت لحم فكانت الاساس الاول للمذاهب الانسانية الحديثة التي تحارب استثمار الانسان للانسان وترفع من شأن العامل والفقير والفلاح وصياد السمك ، وتقسو على الحاكم المستبد والثري المستثمر والمتاجر بالعقائد والتقاليد دينية كانت ام اجتماعية . واذا كان المسيح قد بنى اشتراكيته على القيم الروحية فذلك لان الشروط المادية والاقتصادية للاشتراكية لم تكن متوافرة في ذلك العصر ، فخاطب الناس حسب مفاهيمهم ، وآمنت به العامة قبل الخاصة ، لان الخاصة رأت في تعاليمه خطراً على امتيازاتها ، ولان العامة رأت في هذه التعاليم تباشير خلاصها من عبودية الظالمين المستعبدين . وهكذا تعاظم ايمان العامة بملكوت السماء الذي يستوي فيه الناس ولا تحكمه امة واحدة ولا فئة خاصة، لا مفاضلة فيه بين البشر مهما كان في البشر من فوارق زمنية او عنصرية او اجتماعية. «مملكتي مملكة السماء» قال المسيح، حيث لا عبد يحتقر ولا فساد ولا افساد ، مملكة روحية قائمة على المحبة والخير والسلام .

الا ان الثورة المسيحية لم تقتصر على الناحية الدينية وحسب بل تعدتها الى النواحي الاجتماعية والاخلاقية والادبية والاقتصادية ايضاً على قدر ما كانت توحي به الاوضاع الاقتصادية السائدة يومئذ . ولم تكن هذه الثورة عديمة التأثير في الانظمة المتبعة فقد سنت شرائع للزواج ومنعت تعدد الزوجات ورفعت من شأن المرأة ورسمت اساس العائلة واوجدت شرائع عدة للتعامل بين الناس . كل هذه المبادىء والتعاليم جاءت اساساً لنظام اجتماعي جديد وبمثابة انقلاب خطير وشامل في حياة الانسان . ومما زاد في قبول الناس لهذه المبادىء وساعد على انتشارها ، ان

هذا الانسان الذي قام بالدعوة لها وتزعمها كان مثالا رائعاً للفضائل ، متواضعاً الى آخر حدود التواضع ، يطوف بين الناس ماشياً على قدميه ، لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، يحادث الجميع ويعطف على الاطفال ، معزياً الحزانى مساعداً الفقراء منتهراً الاغنياء ، داعياً الى المحبة ومقابلة الشر بالخير ، فكانت شخصيته الصالحة والجذابة هذه اكبر عامل في نشر دعوته واتساع رسالته وتعاظم نفوذه بين الناس.

ليست المسيحية ديانة وحسب ، انما هي حضارة انسانية دفعت البشرية خطوات واسعة الى الامام، ولولا ذلك لما ناوأتها السلطة الرومانية والسلطة اليهودية، ولما تحالفت هاتان السلطتان في محاولة مخفقة لخنق هذه الحركة التقدمية في المهد حفاظاً على الرجعية والطغيان والشعوذة. وسرعان ما خاب امل السلطتين الجائرتين عندما تحققتا ان المسيحية لم تمت بعد المسيح بل اتسعت وازدهرت بفضل تلاميذه واتباعه الذين كانوا يتهافتون من كل الاقطار للانضمام تحت لوائها .

ولا ريب في ان الفضل الاكبر في نشر المسيحية يرجع ، من بعد المسيح ، الى تلميذه بولس الذي استحق لقب فيلسوف المسيحية . من قراءة رسالاته الى اهالي روما وكورنثيوس وافسس الخ . تدرك مدى تعمقه في اللاهوتية المسيحية وفي التشريع المسيحي. واكثر القواعد التي يتمشى عليها المسيحيون اليوم هي من وضع بولس . ان الرسل الاثني عشر الذين قال لهم المسيح قبل موته «اذهبوا واكرزوا في الارض » هم الذين نشروا المسيحية ، ولكن بولس قيدومهم ومدربهم وفيلسوفهم . اما التلميذ الثاني الذي عرف بحماسته واندفاعه لأكمال هذه الرسالة فهو بطرس . ان هؤلاء الرسل قد حملوا الرسالة وطافوا بها من المهد الذي نشأت فيه من بيت لحم واورشليم الى دمشق، الى انطاكية، الى اليونان، الى روما فاعتنق النصرانية على يدهم الامبراطور قسطنطين سيد الامبراطورية الشرقية . وعندما ادركت البعثة مدينة روما جعلتها قاعدة لها ، واسست فيها كنيستها ، ووضعت على رأسها الرسول بطرس اسقفاً اذ رأت في حماسته وعناده ما يمكنه من مقاومة التيارات القوية المعادية للديانة الجديدة . وفيما كان اباطرة الرومان بين اخذ ورد في

وجهات نظرهم تجاه الديانة المسيحية كانت الامبراطورية الرومانية تعاني ازمات شديدة اهمها غزوات البرابرة الشماليين مما جعل السلطات الامبراطورية تهادن الرسالة الجديدة ، ولا سيما عندما رأت ان هذه الرسالة اخذت تتسرب الى اعدائها التيتونيين ، وقد استهوت شعوبهم بمثاليتها وتعاليمها الانسانية . وعلى الرغم من ان هؤلاء التيتونيين قد ابقوا على حرمتهم للآلهة الرومانية في بادىء الامر ، فانهم وجدوا في التعاليم المسيحية وفي مسلك رسلها ما استهواهم الى الاخذ بها . فما لبث هؤلاء الرسل حتى تغلغلوا بشجاعة لا مثيل لها في صفوف الغزاة يبشرون بعقيدتهم الالهية متحملين الصعوبات في سبيلها مستشهدين من اجل نشرها ، لا تغرهم مباهج الحياة ، ولا تخيفهم السلطة ، يمشون حفاة عراة حاملين انجيلهم بصبر وعناد مبشرين بخلاص البشر والعالم . فما مر زمن قصير حتى اضطرت السلطة الرومانية الى الاعتراف بالدين المسيحي واصبح اسقف روما «بابا» يتمتع بسلطة الرئاسة للكنيسة المسيحية . وهكذا ظلت الديانة المسيحية تمشي من نصر الى نصر لا تقبل مهادنة في مبادئها وعقائدها . فكان تعصبها لعقيدتها وعدم تراجعها امام خصومها سبباً في ظفرها النهائي . فدانت لها السلطة الزمنية كلها واصبح بابا روما سيد المدنية الرومانية كلها ، يخضع له الملوك ويتودد اليه الزعماء ويحج الى مقره كل ذي سلطان في اوروبا باسرها طمعاً في رضاه والتماساً لبركته . وعلى الرغم من الانشقاق الذي حصل على اثر تعاظم سلطة بابا روما بين السلطة الدينية في الغرب والسلطة الدينية في الشرق ، الاولى تحت زعامة بابا روما والثانية تحت زعامة بطريرك القسطنطينية ، وما جره هذا الانشقاق من اختلافات طقسية وشكلية ، فقد ظلت السلطة البابوية تتمتع بسلطانها على مسيحي اوروبا الذين كانوا يتزايدون اكثر فاكثر ، حتى دان لها ملوك اوروبا وخضعت لها الشعوب القاطنة شواطىء المتوسط ، وسادت في كل هذه الاقطار المدنية اللاتينية ، مدنية البابوية نفسها . ومنذ ذلك الحين اخذ الملكوت السماوي الذي بشر به المسيح وتلاميذه ينقلب الى ملكوت سماوي وملكوت ارضي معاً ، ولم يلبث الثاني حتى تغلب على الاول

بفضل القوانين والشرائع التي كانت تسنها الكنيسة ، او بالاحرى رجال الكنيسة ، وبفضل الطقوس والالزامات التي كانت تقيد المؤمنين في جميع نواحي حياتهم الاجتماعية والعائلية والاقتصادية بل والسياسية ايضاً .

٩. صوت يرتفع في صحراء العرب

« الله اكبر »

القول بان الشرق مهبط الوحي خطا . والصحيح ان جزءاً صغيراً من الشرق هو مهبط الوحي . وهذا الجزء هو الشرق العربي الذي لا يشكل الا بقعة من بقاع الشرق الادنى او قل الشرق الاصغر . والشرق الاصغر محشور كله في زاوية واحدة من زوايا الشرق ، على ان الزوايا الثلاث الباقية يشغلها الشرق الكبير او الشرق الاكبر ، شاملا الصين والهند والتيبت والبقاع القائمة في الباسفيك الخ . ولا نعلم لماذا اختار الله هذه البقعة الصغيرة من الدنيا الجاثمة على شاطيء المتوسط الشرقي والبحر الاحمر فخصها دون غيرها بالهامه الآلهي إما بالمكالمة مع موسى كليم الله كما تقول التوارة ، او بالالوهية المتجسدة في المسيح كما تقول الاناجيل ، او بالوحي المنزل بواسطة الملاك جبريل على الرسول العربي محمد .

كان الاصح لو قيل ان الشرق منبع الديانات بحيث يحتفظ للشرق العربي وحده شرف تقبل الوحي الآلهي . ذلك لان ديانات الشرق الاكبر تدور حول آلهة متعددة ، منها الصنمية ومنها المتجسدة في حيوانات تعيش بين المتدينين ، ينظرون اليها ويلمسونها ، وهي قابلة للتغيير والتجديد ، كما انها معرضة للموت او للفناء . كان الكهان والحكماء والفلاسفة ينطقون بالحكمة او الفلسفة ويذيعون باسمها حكمتهم وفلسفتهم ، فاذا ماغضبت جماعة على هؤلاء المبشرين انتقموا من الآلهة التي تنسب تعاليمهم اليها . ولكن الاله الكلي غير المنظور ، الذي اختص

بالهامه وحكمته انبياء الشرق العربي وفلاسفته بقي متحصناً وراء الغيب ، اذا انكره احد فليس بمقدوره ان يراه او يصل اليه ، وبذلك تقتصر نقمة الناقمين على الذين يخالطونهم من المبشرين الملهمين . ولهذا كانت ميتافيزيقية الديانة التي نبتت في الشرق الاصغر اقل تعرضاً للمجادلات السفسطائية من ميتافيزيقية الديانات التي نبتت في الشرق الاكبر ، وهو امر يرجع الفضل فيه الى هذا السر الغامض في ميتافيزيقية الوحي الالهي ، وقد افسح المجال للديانة الالهية لان تخرج من منبعها الضيق لتفتح اقطاراً بعيدة عنها ، على عكس الديانات التي نشأت في محيط اكبر من الشرق اذ بقيت هذه محصورة في محيطها وحده ، دون ان تمتد منه الى خارجه ، تغزوها بين وقت وآخر ديانة الشرق الاصغر ، وليس بوسعها هي ان تغزو تلك .

كان اليهود اول من قال بالاله الواحد غير المنظور . ثم خرج من هذه القبيلة احد افرادها يسوع الناصري ، داعياً الى عقيدة جديدة شذبت ما في اليهودية من عنصرية وجنوح الى الاستئثار والتعصب وبغض الشعوب الاخرى ، وجعل منها عقيدة سمحة تبشر بالخير والمحبة والسلام . وفي اوائل القرن السابع ارتفع صوت في صحراء العرب : « الله اكبر . لا اله الا الله محمد رسول الله . »

كان صاحب هذا الصوت محمد بن عبد الله القرشي ، يتيم الابوين ، يعيش في كنف عمه . ومع قلة المعروف عن حياة محمد في العشرين السنة الاولى من عمره ، فقد قيل انه كان بهي الطلعة ، رفيع الاخلاق ، صادقاً في قوله ، اميناً في عمله . فاحبته خديجه القرشية ، وهي ارملة غنية في مالها وعقلها ، وتزوجته على الرغم من انه كان يصغرها بخمس عشرة سنة . فاخلصت له واخلص لها ، ولم يعرف محمد امرأه غيرها طوال حياتها . ولكنه تزوج من عدة نساء بعد وفاتها .

ولا شك في ان زواج محمد من خديجة كان فاتحة عهد جديد في حياته ، اذ توفر له بعد الزواج عيش هانيء هادىء . فمن غنى امرأته استطاع ان يتحرر من كدح العمل ليخلو الى نفسه ويطلق العنان لتأملاته واحلامه . ومن شخصيتها ونبلها استطاع ان يجد له عوناً في تأدية رسالته .

كانت تمر على حياة محمد اليومية سويعات يغشاه فيها ذهول ويتراءى له الملاك جبريل ليدله الى الحق ويحثه على التبشير بوحدة الخالق وتخليص قومه من الوثنية والفساد ، فكان محمد يخرج من هذه السويعات بآيات تنطق بالحكمة ، داعياً بني قومه الى الرجوع عن غيهم والايمان بالاله الواحد ، ناقماً على الآلهة الصنمية التي كان القوم يعبدونها . وكان طبيعياً ان يحقد عليه اشراف العرب ويضمروا له الشر لانهم رأوا في دعوته خطراً يزعزع مكانتهم ويحطم الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها باعتبارهم حراس الكعبة والمحافظين على مقدساتها .

هنا تتحول دعوة محمد السلمية الى دعوة يرافقها النضال الحاد . فقد اضطهده العرب بقيادة انسبائه القرشيين ، ونسبوا اليه الكفر والزندقة ، ولكنه مشى في طريقه غير هياب ، فآمن به نفر قليل من الناس واعتنقوا عقيدته ، وكانت امرأته خديجة اول المؤمنين . ثم تبعها الامام علي ابن ابي طالب وابو بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب . وكان هؤلاء باكورة الديانة الاسلامية فاصابهم من الاضطهاد ما اصاب صاحب الدعوة . وعندما كثر عدد المؤمنين وشعر اسياد الكعبة وزعماء قريش بالخطر الزاحف عليهم شنوها عليهم حرباً شعواء حتى اضطر القسم الاكبر منهم لمغادرة مكة الى الحبشة حيث نزلوا في حمى النجاشي مليكها المسيحي الذي اكرم وفادتهم واحسن ضيافتهم لان عقيدتهم بالاله الواحد لا تتناقض مع عقيدة المسيحية . وقد كانت هذه الهجرة أول اتصال بين المسيحية والاسلام . ثم توالت اضطهادات الاشراف على محمد واعوانه ، مما دفع محمداً الى الهجرة من مكة الى المدينة (يثرب) مدينة امه . فهاجر معه اتباعه وجعلوا من المدينة مقراً لهم ، فآمن بالرسالة الكثيرون من اهالي المدينة . ولما كان في المدينة عدد كبير من اليهود ، وهم ابناء العقيدة الالهية ذاتها ، فقد اطمأن محمد الى العيش في المدينة وتابع القيام برسالته التي تحولت من دعوة سلمية وتبشيرية محض الى دعوة نضالية مجاهدة ، الغاية منها تعزيز الدعوة الى الاسلام بالكفاح الحربي . فكان المسلمون يعترضون القوافل التجارية الآتية من مكة او العائدة اليها ويرغمونها على قبول الديانة الجديدة .

ولما رأى محمد ان يهود المدينة يدسون عليه ويساعدون احياناً خصوم عقيدته وعقيدتهم الالهية ، نقم عليهم وشتتهم في المدينة وذبح المسلمون عدداً كبيراً منهم . ومنذ ذلك الحين قطع محمد علاقته مع اليهود والمسيحيين ليجعل من الاسلام عقيدة دينية وعقيدة قومية معاً .

وما كان عيش محمد ليهنأ ما دامت مكة خارجة عن دعوته . ولذلك بقي المسلمون في حرب مع القرشيين الى ان كتب له الفوز بالنهاية ، فدخل مكة في عام ٦٣٠ وحطم اصنامها ، ولكنه ابقى على الكعبة جاعلا منها قبلة المسلمين يحجون اليها في كل سنة ، وحرم على غير المسلمين الوصول اليها . وقد قضى محمد بقية عمره الذي لم يمتد الى اكثر من عام ٦٣٢ ، يعمل على تنظيم الديانة الاسلامية ، ويضع لها الشرائع ليتمشى عليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية والعائلية والقومية ، فكان القرآن كتاب دين من جهة وكتاب اشتراع من جهة ثانية . وهو يختلف بذلك عن المسيحية التي لم تبن ملكاً ارضياً مكتفية بالملكوت السماوي « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » بينما الاسلام شيد الى جانب الملكوت السماوي ملكاً ارضياً يحكمه رئيس الرسالة وينتقل بعده الى خليفة من المسلمين عن طريق الانتخاب او البيعة ، فكان خليفة المسلمين هو رأس الدولة وقائد جيوشها في الفتوحات كما كانت العقيدة الاسلامية رابطة ايمان بالتعاليم الاسلامية لا رابطة قبائلية او لغوية او دموية .

يعتقد المسلمون ان ما جاء في القرآن هو منزل من الله بواسطة ملاكه جبريل الذي كان يملي على محمد كلام الله . ولهذا فهم يتبعون ما ورد فيه دون اي تحريف سواء في المعنى او في المبنى ، لا يتسامحون مع من يلحن بتلاوة الآيات ، ولا يجيزون اي انحراف عما جاء فيه من الشرائع . ولكن قام من ائمة المسلمين وفقهائهم مفسرون ومجتهدون فكانوا يتولون تفسير الآيات القرآنية لتجيء منطبقة على التطورات العلمية ، مستخلصين من جوهر الآيات اساساً لا تداخله الريبة ليبنوا عليه اجتهاداتهم .

ويمتاز القرآن بانه فضلا عن كونه كتاب دين وتشريع ، كتاب لغة عربية فصحى يعود له الفضل الاكبر في ازدهار اللغة العربية ، حتى ان أئمة اللغة سواء منهم المسيحيون والمسلمون يتخذون من لغته قاعدة يتمشون عليها . واذا كان المسلمون يعتبرون ان صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن منزلا من الله ، فان المسيحيين يعترفون ايضاً بهذه الصوابية بقطع النظر عن كونه منزلا او موضوعاً ، ويرجعون اليه للاستشهاد بلغته الصحيحة كلما استعصى عليهم امر من امور اللغة .

قلنا ان الرسالة الاسلامية لم تكن رسالة دينية وحسب بل كانت رسالة دينية واجتماعية وقومية . كانت دينية لانها قامت على عقيدة الاله الواحد غير المنظور فامرت بالعبادة والصلاة والصوم والزكاة والحج الى بيت الله الحرام ، وبشرت الصالحين بالجنة وتوعدت الخطاة بنار جهنم . وكانت اجتماعية فوضعت نظماً للعائلة والزواج والطلاق والارث والحكم ، وبنت هذا الاخير على الشورى والبيعة ، وحرمت على المسلمين عادات وتقاليد مستهجنة كعادة وأد البنات التي كانت مألوفة في الجاهلية ، وقضت باعطاء المرأة بعض حقوقها . وكانت قومية ايضاً لان معتنقيها قد قاموا بغزوات متواصلة لتوسيع نطاق الدولة الاسلامية ليس عن طريق التبشير وحسب بل عن طريق الحرب ، فكان قوادها يغزون الاقطار المجاورة والبعيدة يدعون الناس للاسلام ، فاذا ابوا قاتلوهم وقتلوا ملوكهم وبسطوا عليهم سلطانهم . وهكذا امتدت دولة الاسلام الى سوريا والعراق وشمالي افريقيا واسبانيا وقسم شاسع من اوروبا حتى اصبح الاسلام قوة تخشى شوكتها الممالك الاوروبية كلها .

ولم تنحصر الفتوحات العربية بالناحية العسكرية فقط بل تعدتها الى الناحية الثقافية . لقد قام من العرب علماء وفلاسفة وحكماء ، فدرسوا ونبشوا العلوم اليونانية وفلسفة ارسطو وسقراط وابوقراط واعادوا اليها رونقها . وعندما كانت سلطات الغرب في القرون الوسطى المظلمة ، في خضوعها المطلق للكنيسة الرومانية ، تتصاع مسيرة او مخيرة لحكامها ، وتنفذ ارادتهم دون بحث ولا جدل ، وعندما كانت

الرومانية تطغى على كل معالم الحياة وقيمها في الغرب ، وعندما كانت محاكم التفتيش تقضي بالموت والاحراق والتشريد على كل من نازع السلطة البابوية تعاليمها وعقائدها، عندما كان الجهل مخيماً على ربوع الغرب كلها ، كان علماء العرب يبحثون عن المعرفة اينما وجدت ، وكان خلفاء العرب يسهلون لهؤلاء العلماء مهماتهم ويقدمون لهم المساعدات الكبرى فعكفوا على اخراج العلوم اليونانية من مخبئها ونقلوها الى العربية ، وزادوا عليها من اختباراتهم ونظرياتهم ومشاهداتهم ، ووضعوا كتباً قيمة في الفلسفة والطب والجبر والكيمياء والرياضيات والفلك ، وقام منهم رحالون الى بلاد الغرب والشرق ، فدرسوا اللغات المنتشرة فيها وترجموا من كتبها ما لا يزال الى يومنا هذا يدرس للطلاب ، واشهر هذه الكتب « كليلة ودمنة » الذي وضعه الحكيم الفيلسوف الهندي « بيدبا » وترجمه الى العربية عبدالله بن المقفع . ولو اردنا ان نعدد ما حققه علماء العرب في فترة من التاريخ لا تعدو المائة والخمسين عاماً، لضاق نطاق هذا الفصل عنه لكن يكفي ان ننوه هنا بالشهرة العالمية التي يعترف بها التاريخ للشيخ ابن سينا الطبيب والفيلسوف ، والطبيب الرازي ، والفيلسوف ابن رشد ، والعالم الاجتماعي الاول ابن خلدون وغيرهم وغيرهم . فالرازي هو اول من قال بعدوى الامراض العفنة، واول من وصف الجدري والحصبة. و«القانون» لابن سينا قد ترجم الى كل اللغات الحية ، ولا نظن ان كتاباً علمياً قوبل بمثل ما قوبل به هذا السفر المجيد من الاوساط العلمية . وعلماء الفلسفة والاجتماع في عصر النهضة الغربية لم يجدوا مرجعاً لابحاثهم وفلسفتهم افضل من مقدمة ابن خلدون . والدورة الدموية الصغرى وصفها ابن نفيس قبل سرفيتوس بثلاثمائة سنة ، فكانت مقدمة لشرح « هارفي » للدورة الدموية كما جاء في كتاب هارفي نفسه .

كانت الثقافة اليونانية في اوج ازدهارها عندما تغلبت روما على اليونان . وقد رأت روما ان تغلغل الثقافة اليونانية في الامبراطورية الرومانية يجرح كبرياءها فعمدت الى طمسها ، او بالاحرى الى انتحالها واعطائها صبغة رومانية ، فكان ان اغلقت المدارس التعليمية في اليونان شيئاً فشيئاً . وعندما اخذت الامبراطورية

الرومانية بالانحلال ، عادت الثقافة اليونانية الى الظهور ، ليس في الغرب بل في الشرق ، على يد النسطوريين الذين وجدوا محيطاً رحباً لهم في جنوب غربي بلاد الفرس . وعندما توطدت الخلافة العباسية آلت اليها السيادة الثقافية ايضاً ، وكان انتشار الاسلام يحمل معه انتشار الثقافة اليونانية وما وصل الى الفرس من الثقافة الهندية . فترجم حنين بن اسحاق فلسفة ارسطو الطبيعية ، وترجم الكندي الميكانيكيات ، ونقل ابن الهيثم نظريات اقليدوس وارخميدس الى العربية . ومع ان البوصلة المغناطيسية اختراع صيني ، غير ان العرب هم اول من استعملوها في الاسفار . ومن الانصاف القول ان العرب هم الذين وضعوا اسس العلوم الطبيعية ، ولا ينتقص من فضلهم كونهم استلهموا ذلك من اليونان او غيرهم .

هذا في حقل العلم والفلسفة . غير ان العرب كان لهم قدح معلى في الفنون ايضاً . واذا كان الفن العربي قد انحصر على الاكثر في بناء الجوامع والمراكز الدينية ، بسبب حماستهم الدينية ، فهذا لا يحط من قدر اهتمامهم بالفنون الجميلة . وان زيارة واحدة الى الجامع الاموي في دمشق او جامع سامرا في العراق او جوامع الاندلس لتعطي الزائر فكرة واضحة عن قيمة الفن العربي . ومع ان ابرز مظاهر الفن العربي مستقرة في بيوت العبادة غير ان في قصر الحمراء وجنائنها وفي المخطوطات الفنية التي كان يصنعها العرب ولا سيما القرآنية منها ، وفي حلقات الشعر والغناء التي كان يعقدها الشعراء والمغنون في بلاطات الملوك والامراء لدليل واضح على ما كان للفن من قيمة في عهد الازدهار العربي .

وفي عداد ما اهتم به الفن العربي بناء الجامعات ودور الكتب العامة . فالحماسة الدينية في الاسلام كانت السبب في تحويل اذهانهم عن الانصراف الى بناء المسارح ودور اللهو والتمثيل خلافاً لما تميزت به الحضارة اليونانية والرومانية . ولهذا فانهم قد حصروا اهتمامهم بالعلم والشعر وانشأوا الجامعات والمكاتب يغشاها طلاب المعرفة . وقد كانت المكتبة الملكية في قرطبة ودار الحكمة في بغداد والجامعات المنتشرة في المدن الكبرى اكبر معين على انتهال العلوم المختلفة من ينابيعها .

وقد ساعدهم في هذا المضمار صنعهم الورق للكتابة ، فالعرب هم الذين استقدموا هذه الصناعة من الشرق وروجوها في مراكش واسبانيا مسهلين بذلك نقل المخطوطات وترجمتها وتوزيعها على الغرب. ثم اخذ الطليان والصقليون والفرنسيون صناعة الورق عن اسبانيا العربية ، فكانت هذه الصناعة واسطة لزيادة التفاعل الثقافي .

ان الحقبة التاريخية الواقعة بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر تعد بحق عصر العرب الزاهي . ففي هذه الحقبة كان العرب حاملي مشعل الثقافة الوحيدين . وعلى الرغم من ان فتوحات العرب الغربية لم تمتد الى اكثر من مائة وخمسين سنة وذلك عندما قهرهم شارل مارتل في موقعة «بواتيه» فان التوسع الثقافي العربي ظل يمتد الى الغرب ، وبقي الفكر العربي يصدر من الاندلس وشواطىء افريقيا اتتاجه الخصب الى سواحل اوروبا الجنوبية تغزو به كل اوروبا فتبني عليه نهضتها .

كانت اسبانيا وافريقيا الشمالية نقطة الانطلاق في غزو الفكر العربي للفكر الغربي، وكانت صقلية وايطاليا رقبة جسر لهذا الغزو، فكان مترجمو الغرب يترجمون المؤلفات العربية الى اللغة اللاتينية . والجدير بالذكر ان المقر الاهم للنقل والترجمة كان في الاديرة واهمها « دير كاسينو » في ايطاليا حيث عكف الراهب قسطنطين في مستهل القرن العاشر على نقل مؤلفات الطب والفلسفة والعلوم من العربية الى اللاتينية. ولعل اعظم ما نقله هذا الراهب مؤلف علي بن عباس المجوسي فيما كان رفاق له من رهبان وعلمانيين ينقلون القانون لابن سينا والحاوي للرازي ومقدمة ابن خلدون وفلسفة ابن رشد ومؤلفات ابن الخطيب في الشعر والادب والسياسة . وعندما قدر للغرب ان يكون على عرش ايطاليا رجل منطلق الفكر ومولع بالنهضة الفكرية العربية هو فريدريك الثاني الملقب باعجوبة الدنيا ، فتح هذا الامبراطور بلاطه للعلماء العرب واكرمهم ورفع شأنهم وادخل على بلاطه تقاليد العرب وعاداتهم حتى اصبح بلاطه اشبه ببلاط امبراطور عربي . ثم اسس جامعة نابولي عام ١٢٢٤ وجمع فيها الكتب والمؤلفات العربية، وكانت هذه الجامعة تدرس فلسفة ابن رشد وفلسفة

ارسطو المنقولة بواسطة مترجمي العرب ، ثم تنقلها بدورها الى الجامعات في باريس وبولونيا واكسفوردو جامعة نابولي التي كان من ابرز طلابها القديس توما الاكويني والتي كانت السباقة في تلقف العلوم العربية واليونانية ونقلها الى الغرب ، وان اسم هذه الجامعة ليبقى مقروناً باسم فريدريك الثاني هذا الامبراطور الذي عرف قيمة الفكر العربي فاقتبس منه زاداً لبلاده ولبلدان اوروبا كافة . ومما لاشك فيه ان تعشق الامبراطور فريدريك للعلوم العربية واتصاله الوثيق بالثقافة العربية واندماجه بحضارة العرب كانت من اهم الاسباب التي دفعته لعقد محالفته مع السلطان صلاح الدين الايوبي ، تلك المحالفة التي ادت الى حسم الخلاف الدامي بين الغرب والشرق الذي استمر اكثر من قرنين في الحروب الصليبية .

اننا لنعجب مما يدعيه بعض المكابرين الذين يزعمون ان العرب لا حضارة لهم ولا نرى ادعاء اكثر بطلا من هذا الادعاء . فاذا كانت البحوث العلمية والفلسفية والثقافية واذا كانت الاعمال الفنية لا تؤلف حضارة ذات شأن فما هي الدعائم التي تقوم عليها الحضارات ؟ صحيح ان العرب نقلوا عن اليونانية والفارسية والرومانية والهندية ، ولكن هل ينكر عليهم احد اكتشافاتهم في الطب والكيميا ، والجبر والفلك والرياضيات . وهل هناك من ينكر على فلاسفتهم نظرياتهم في الاجتماع والاقتصاد والادارة ؟ ثم هل يضير العرب انهم نبشوا ما كان خبيئاً ودفيناً من فلسفة اليونان واظهروه الى النور ؟ ان من يطالع الكتب الغربية التي انتجها عصر النهضة يجد فيها اثر علماء العرب واضحاً . فما جاء به مونتسكيو وباكون وعلماء الاجتماع في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، تجده في مقدمة ابن خلدون في القرن الحادي عشر ، هذه المقدمة التي لم تترك حقلا من حقول البحث العلمي الا طرقته ، حتى شهد علماء الغرب انفسهم انها اعظم مؤلف علمي واجتماعي . وكتب الفلك الغربية محشوة بالكلمات الغربية التي لم يجد علماء الفلك الغربيين بداً من تبنيها ، كالعقرب (Akrab) والطائر (Altair) والفرقد (Farquad) والذنب (Deneb) وكذلك الجبر (Algebre) والصفر (Cipher) والارقام العربية دخلت اللغة العلمية

في الغرب . وكل هذا انما يدل على مدى اقتباس العلوم الغربية من العلوم العربية .

ان ما تحويه المؤلفات العلمية والفلسفية من امثال هذه الشواهد لدليل واضح على ان النضج الفكري والعلمي الذي نقرأ عنه في عصر النهضة الغربية وبعدها انما كان متأثراً بالنهضة الفكرية العربية ، بل كان مؤسساً على ما ورد في مخطوطات ابن خلدون ، وابن رشد ، وابن الخطيب ، وعلي بن عباس المجوسي ، وابن الهيثم ، وابن سينا ، والرازي وغيرهم من ارباب الفكر العربي في القرن التاسع والعاشر والحادي عشر الذين لا يحصى لهم عد ، فضلا عن انه برهان قوي على مدى التوسع الثقافي الذي حمل لواءه العرب ابان فتوحاتهم الحربية والفكرية. وهكذا نجد ان من الغبن ان يجرد العرب من فضلهم على الحضارة الغربية ومن الاجحاف القول بان العرب لم ينشئوا حضارة .

١٠. التفاعل بين الغرب والشرق

في الحروب الصليبية

عندما عظمت شوكة العرب وسطعت مدنيتهم عمدوا الى توثيق العلاقات بينهم وبين ملوك الغرب . ويروى ان الخليفة هارون الرشيد والامبراطور شارلمان كانا يتبادلان التمثيل والهدايا الثمينة ، وقد ذهب بعض الرواة الى القول بان هارون الرشيد اهدى الى صديقه شارلمان مفاتيح القبر المقدس دليلا على قبوله بحماية الامبراطور لقبر المسيح . على ان ما قاله هؤلاء الرواة ينفيه رواة آخرون قالوا ان مفاتيح القبر المقدس انما ارسلها بطريرك القدس للامبراطور شارلمان معرباً عن رغبته في ان يضع المسيحيين تحت حماية الغرب المسيحي .

الامر المتفق عليه ان مفاتيح القبر المقدس قد ارسلت لشارلمان سواء كانت قد ارسلت اليه من البطريق طلباً للحماية او من هارون الرشيد اعترافاً بهذه الحماية . وقد كانت هذه البادرة وسيلة لتدخل الغرب في البلاد العربية ، كما كانت سبباً ايضاً لتفاقم النزاع بين الكنيسة الغربية التي تزعمها روما والكنيسة الشرقية التي تزعمها بيزنطية، وهو نزاع سببه الظاهر طقسي، وسببه الحقيقي التزاحم على السيادة الروحية والزمنية . ولما كان الامبراطور شارلمان وملوك الغرب تابعين للكنيسة الغربية ويعترفون بسلطة البابا الروحية والزمنية ويستمدون قوتهم وسلطانهم منه ، فقد آلم الكنيسة الشرقية ان توضع الاماكن المقدسة تحت حماية الكنيسة الغربية ، وزاد ذلك في تفاقم الخلاف بين الجبهتين المسيحيتين . وجدير بنا ان نسجل في هذه

المناسبة ما ذهب اليه بعض المؤرخين اذ قالوا ان هذا الخلاف المذهبي وطمع السلطة الدينية الغربية في اخضاع الكنيسة الشرقية لها ، كان في عداد العوامل التي ادت الى الغزوات الصليبية اذ بدأت هذه الغزوات عندما نزلت في القرن العاشر قبائل تركمانية من الشمال ، وكانت قد اعتنقت الاسلام ديناً لها ، فاستولت على الاراضي المقدسة وحاربت البيزنطيين وهزمتهم ، فاستنجد هؤلاء ببابا روما الذي وجد في هذه السانحة حافزاً جديداً على هامش الحافز الديني الذي اندفع للتبشير به متطرفو المسيحية في اوروبا غيرة منهم على الاماكن المسيحية المقدسة في فلسطين، فكانت الحملات الصليبية .

عندما كان العرب يسيطرون على الاراضي المقدسة لم يعرف عنهم القسوة والجور على المسيحيين . بل كانوا يكتفون بالطاعة والجزية تاركين للمسيحيين حرية العبادة وممارسة طقوسهم الدينية. ولكن عندما نزلت تلك القبائل الشمالية التركمانية وغزت البلاد العربية واستولت عليها ، كان ينقصها التسامح العربي وكانت اكثر تعصباً من المسلمين الاصليين . قام التركمان الفاتحون بألوان من الاضطهاد ضج لها المسيحيون ، وانتشرت في اوروبا الدعوات التبشيرية تحمس مسيحييها على غزو البلاد العربية بغية تخليص الاراضي المقدسة من المسلمين. وقد تزعم هذه الحركة التبشيرية «بطرس الناسك» وتحالفت السلطات الزمنية الاوروبية مع السلطات الروحية الرومانية وشكلت جميعاً الحملات الصليبية ، وتطوع فيها الفرنج من جميع بلدان اوروبا واضعين على صدورهم شارة الصليب . وتوالت الحروب بينهم وبين المسلمين فكانت الغلبة تنتقل من هؤلاء الى اولئك ومن اولئك لهؤلاء . وعندما مشت جنود الفرنجة على الشرق متظاهرة بالدفاع عن مسيحيي بيزنطية انضمت الكنيسة الشرقية المغلوبة على امرها الى الكنيسة الغربية ، وخضعت لزعامتها وبقيت تحت حمايتها ردحاً من الزمن عام ١٢٠٤ حتى عام ١٢٦١ عندما دب الانحطاط الى الكنيسة الرومانية على اثر تنازعها مع ملوك اوروبا ولا سيما ملوك فرنسا .

ويستنتج من هذا ان الحملات الصليبية لم تكن حملات مسيحية بالمعنى الكامل .

واذا كان مسيحيو الشرق قد اضطروا الى مماشاة مسيحيي الغرب فانما فعلوا ذلك تخلصاً من الاضطهاد الذي انزله بهم الغزاة الاتراك . ولكن ما كاد نير الاتراك يرتفع عنهم حتى عادوا عن مساعدتهم لمسيحيي الغرب اللاتين ، حتى ان البطريرك الاورشليمي البيزنطي اعلن اثناء الحملات الحربية ان طائفته لم تقاس تحت سلطة المسلمين ما قاسته عندما آلت السلطة والسيادة الى ملوك اللاتين المؤتمرين بامر الكنيسة الغربية . وعندما استعاد البيزنطيون اكثر قطاعات آسيا الصغرى من الاتراك وجد الصليبيون اللاتين انفسهم تجاه خصمين ، المسلمين والبيزنطيين ، مما يدلنا بوضوح على ان الحروب الصليبية لم تكن دينية بحتة وانما كانت دينية في الظاهر وسياسية استعمارية في الحقيقة . ولكن هو الجهل المتلبس بالهوس الديني قضى باراقة الدماء طوال قرنين خدمة للتوسع الاستعماري . وقد بقيت هذه الحروب سجالا الى ان قام امبراطور عاقل في الغرب وملك حكيم في الشرق ، فتعاقد الامبراطور فردريك الثاني والسلطان صلاح الدين الايوبي على السلام وحسما هذا النزاع في عام ١٢٢٨ بعد ان اعترف صلاح الدين لفردريك بالملكية الاسمية على الاراضي المقدسة . ومع ان بقايا الصليبيين لم يغادروا البلاد الا في الربع الاخير من القرن الثالث عشر فان المعاهدة المعقودة بين الملكين كانت الخطوة الكبرى والحاسمة في وضع حد لتلك الحروب الدامية التي اتخذت الدين ذريعة للاطماع وبلوغ الشهوات الاستعمارية .

كان التفاعل الذي جرى اثناء الحروب الصليبية واسع المدى متعدد النواحي . فالامر الذي لا شك فيه ان هذه الحروب قد زرعت بذور الشر والحقد بين الغرب والشرق . طمع الغرب في بسط سيادته على الشرق فاستعمل الدين لبلوغ غايته وابى الشرق الخضوع للغرب ، فكان الدين سلاحه الاكبر لمقاومة سلطان الغرب . وفي كلا الحالين كان الدين وسيلة لا غاية . وها نحن في القرن العشرين ، وقد مضى على الحروب الصليبية اكثر من سبعة قرون ، ولا يزال اثر هذه الحروب قائماً يذكي نار البغض والضغينة في ضعاف النفوس . ان في التاريخ دروساً ، منها الحسن النافع ،

ومنها السيء الضار . وانه لمؤسف حقاً ان تتذرع قوى الشر في العالم بما تنبشه من بطون التاريخ من احقاد سالفة لتبني تصاميمها المجرمة متخذة من جهل العامة مجالا فسيحاً لتحقيق اغراضها الجشعة . وليس مستغرباً والحالة هذه ان ينقم الكتاب الانسانيون على بعض المؤرخين داعين الى نبذ ما يدبجونه من شروح وتعليقات على حوادث يعتمدها ذوو النيات الطماعة والمغرضة لاستفزاز عقلية البسطاء وتوجيهها توجيهاً تعصبياً لاغراض استعمارية مجرمة .

اما التفاعل الذي جرى بين الغرب والشرق خلال الحروب الصليبية فلم تنحصر نتائجه في الناحية السيئة التي ذكرنا . بل ادت هذه الحروب الى كثير من الحسنات ايضاً. وليت المؤرخين والمعلمين يقصرون شروحهم على بيان هذه الحسنات والافاضة فيها ليزيلوا من اذهان العامة ذكريات السوء والحقد والضغينة . ليتهم يفعلون ذلك لكي يصبح التاريخ عبرة يأخذها الحاضر عن الماضي ويبني عليها المستقبل . فالمفروض في كتب التاريخ ، الا تقتصر على كونها عرضاً لحوادث جرت وقائعها في الماضي ، بل مدرسة للتوجيه الصالح لجعل المستقبل افضل واحسن من الماضي ، فلا تنقلب الفائدة المبتغاة من هذه المدرسة الى مضرة تعيق التقدم الانساني نحو الكمال .

في الحقبة الطويلة التي وقعت في اثنائها الحروب الصليبية ، كان المجال مفتوحاً للاتصال بين الغرب والشرق . فبينما كان غزاة الغرب يفتحون القطاعات الشرقية كانوا يتغلغلون في المدن والاوساط والمجتمعات ، فاخذوا عن الشرقيين عاداتهم وتقاليدهم كما نقلوا الى هؤلاء بعض عادات الغرب وتقاليده . وما اكثر ما حصل تزاوج بين الفريقين لا سيما بين الفريق الغربي المسيحي والفريق الشرقي المسيحي . ويروي بعض الرواة والمؤرخين ان من سكان هذه الشواطىء من يرجع نسبهم الى الصليبيين . وقد عرف عن الصليبيين سرعة امتزاجهم بالحياة الشرقية ، فالكثيرون منهم تزيوا بالزي الشرقي وتعودوا المآكل الشرقية ، وتحالف بعضهم مع اسر وقبائل من الشرق ، وتبادلوا المنافع والتجارة معهم ، وساعدوا على تقوية الاقطاعية

في هذه البلاد لان الاقطاعية كانت النظام السائد في الغرب ، وبنوا القلاع الحصينة التي لا تزال اثارها موجودة الى يومنا هذا .

على ان التفاعل الاقوى انما ظهرت معالمه في الغرب اكثر من الشرق ، وذلك لان الشرق كان اكثر تقدماً من الغرب في اكثر نواحي الحياة . فقد حمل الصليبيون الى بلادهم انواعاً من محصولات الشرق وتاجروا بها ثم اخذوا ينتجونها في بلادهم. غير ان ابرز مظاهر التفاعل كان ولا ريب في الناحية الفكرية والعلمية .

لقد دهش الصليبيون من التقدم العلمي والفكري في الشرق ، وعندما كانوا يعودون الى بلادهم كانوا يروون لمواطنيهم الروايات المختلفة عنه ويشوقونهم للاقتداء بالنهضة الفكرية فيه . وقد كان الامبراطور فريدريك الثاني المتمرد على سلطة البابا اكثر الملوك فعالية في ادخال هـذه النهضة الى بلاده . فقد كان يجمع في بلاطه في جزيرة صقلية علماء العرب واليهود ويغدق عليهم العطايا لينقلوا له الكتب العربية الى اللغة اللاتينية . فهو الذي امر بترجمة فلسفة ارسطو وتعليقات ابن رشد عليها . وهو الذي ادخل الارقام العربية وعلم الجبر الى اوروبا . وعندما اسس هـذا الامبراطور جامعة نابولي وجامعة ساليرنو الطبية كان اعتماده بالاكثر على الدروس التي وضعها ابن سينا والرازي وابن رشد وابن خلدون وامثالهم من اقطاب العلم والفلسفة العرب . ومن هـاتين المدرستين تسربت النهضة الفكرية العربية الى اوروبا كلها فوضعت اساساً للنهضة الفكرية الغربية في العهد الذي عرف بعهد الانبعاث كما ذكرنا في الفصل السابق .

عندما نذكر الحروب الصليبية اذن لنترك لسياسة الطمع والاستعمار والتعصب والقومية المتطرفة مهمة شرح الحوادث الوحشية التي اوقد سعيرها المحاربون باسم الدين والتي تتوخى منها ايقاظ النعرات الدينية والتعصبية ، ولندرس نتائج التفاعل الذي حصل في هـذه الحروب واثره في تمازج الحضارات وفي التقدم الفكري والاجتماعي والعلمي الذي نتج عنه . فالحروب الصليبية على الرغم من وحشيتهـا لم تكن عديمة النفع في سير الحضارة التصاعدي . بقي على المؤرخين والمعلمين ان

يستخلصوا منها المفيد ويحولوا اليه اذهان الذين يطالعون التاريخ دون ان يحذفوا شيئاً من الحوادث والوقائع والنتائج فانهم ان فعلوا ذلك استحقوا لقب مؤرخين وادباء في وقت واحد واشتركوا مع العاملين على تقدم الحضارة الانسانية .

١١. اوروبا في الظلام

القرون الوسطى

اصطلح علماء التاريخ على ان يطلقوا على المدى التاريخي الذي عقب انقراض الامبراطورية الرومانية وسبق عصر النهضة ، اي من القرن السادس الى القرن الثالث عشر ، اسم القرون الوسطى او القرون المظلمة . سميت كذلك لان الرجعية الدينية التي سيطرت على تلك الحقبة كانت تقف سداً في وجه كل حركة فكرية وتقدمية وعلمية . والرجعية كما هو معلوم لا تقوم الا على الجهل . ولذلك كان هم السلطات في ذلك الحين طمس على كل ما بقي من آثار المدنية والعلوم اليونانية والرومانية واتهام كل من ينتقد العقائد او يحارب الخرافات الروحانية بالكفر والزندقة ، وانزال اقسى العقوبات واشدها توحشاً به . ولكي نعطي القارىء صورة عن ذلك العهد يجب ان نرجع به الى التاريخ ونستطلع منه شكل السلطة التي كانت تحكم في ذلك الزمان ، والثقافة التي تميزت بها تلك القرون ، وكيف كان الانسان يعيش فيها وما هي الانظمة التي كانت تفرض عليه .

بعد انقراض الامبراطورية الرومانية على يد برابرة الشمال بقيت السلطة الزمنية مدة ثلاثة قرون تترجح بين امراء وملوك متفرقين مستقل بعضهم عن بعض . ولكن ظل البابا قابضاً على السلطة الروحية . والسلطة الروحية في القرون الوسطى كانت اعظم شأناً من السلطة الزمنية . وكان البابا يسعى بكل الطرق لكي يمنع قيام سلطة زمنية موحدة تناوئه السلطات والسيادة . ولذلك كان السلطان المطلق في ذلك

العهد معقود اللواء للبابا وللكنيسة . وكان الامراء والملوك يتسابقون لاسترضائه واكتساب تأييده . وعندما تولى شارلمان الكبير عرش الامبراطورية بعد ان تغلب على خصومه ووحد الامبراطورية الغربية ، اراد هذا الامبراطور ان يقتسم النفوذ بينه وبين البابا فتكون له السلطة المدنية وللبابا السلطة الروحية . ولكن البابا استبق الامر وقام بمحاولة ناجحة لاثبات سلطته على الامبراطور ، اذ دعا شارلمان الى حفلة كنسية في روما ، وكان قد اعد تاجاً دون ان يعرف الامبراطور بذلك ، فلما انتهى القداس تحايل عليه البابا ووضع على رأسه التاج الذي أعده لهذه الغاية . ثم بارك شارلمان ونادى به قيصراً وامبراطوراً ، تدليلا على ان سلطة الامبراطور مستمدة من سلطته . ولم ترق هذه الحيلة لشارلمان ولكنه سكت عنها واكتفى بان اوصى ابنه ووريثه في العرش ان لا يرضى بان يتولى البابا تتويجه عندما يرث الملك . غير ان ابنه لم يحفل بوصية ابيه بل قبل ان يتوجه البابا . وبقي رئيس الكنيسة يمارس هذا الحق على الاباطرة طوال ذلك العهد ، وبقي الملوك والامراء يخضعون للكنيسة خضوعاً مطلقاً في الامور الروحية والزمنية على السواء ، حتى اذا غضب البابا على احدهم انتزع السلطة منه او أنزل عليه الحرم وهو اقسى العقوبات . من ذلك مثلا ان البابا غريغوريوس السابع غضب على الملك هنري الرابع وحرمه فكان حرم البابا سبباً لتنكر رعايا الملك عليه مما اضطر هنري الى الذهاب الى « كنوسة » مقر البابا ماشياً على قدميه حيث قضى ثلاثة ايام بلياليها الباردة على باب الدير حتى سمح له بمقابلة البابا ، وطلب الغفران الذي تكرم به عليه رئيس الكنيسة بعد هذا الاذلال . بذلك فقط استطاع هنري الرابع استرجاع ملكه .

ومنذ ذلك الحين اصبح القول « ان فلاناً ذهب الى كنوسة » مثلا يعني ان فلاناً هذا قدم خضوعه لصاحب السلطة النافذة . اما فردريك الثاني فكان الامبراطور الوحيد الذي اصاب نجاحاً في مقاومته للبابا ، اذ كان هذا الامبراطور قد قام على الرغم منه بآخر حملة صليبية ، ثم تمرد على البابا وعقد معاهدة ١٢٢٨ مع صلاح الدين الايوبي كما ذكرنا . وكانت ثورة فريدريك على السلطة البابوية

نقطة التحول في العلاقات بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية وبداية انهيار السيادة البابوية ، مما ادى الى انقسام الكرسي الرسولي فبقيت روما مقراً للبابا تعترف به كل الدول الاوروبية الكاثوليكية ما عدا فرنسا التي تفردت باتتخاب بابا ثان وجعلت مقره في مدينة افنيون . وقد دام هذا الانقسام مدة نصف قرن . وعلى الرغم من توحيد البابوية بعد ذلك فانها لم تستعد سيادتها السابقة .

في هذه العهود ، عهود القرون الوسطى ، عندما كانت الكنيسة متسلطة على مرافق الحياة كلها ، وعندما كانت تسير الحكام والامراء فيخضعون لها ، كانت الثقافة في ادنى دركاتها . ذلك لان من شأن التقدم الثقافي والعلمي اضعاف نفوذ السلطة الروحية القائمة على مبادىء يعتقد اصحابها بانها منزلة ولا يقبلون فيها بحثاً وجدلا ، انما يفسرونها للناس حسب رغائبهم وغاياتهم . ولهذا كانت السلطة الكنائسية في ذلك الحين تحارب الفلسفة والعلوم اليونانية المبنية على العقل وتحرمها . بل ذهبت الى اكثر من ذلك فمنعت نشر الكتاب المقدس لكي لا تقرأه العامة ، وتفهم من آياته ما لا ينطبق على مسلك بعض رجال الكنيسة . وعندما اقدم « ايرازموس » «Erasmus» على نشر الكتاب المقدس كان هدفاً للاضطهاد والتكفير . وعندما تجرأ « ويكليف » الانكليزي وبعده « هس » التشيكي على الدعوة لتعاليم المسيح الحقيقية قائلين ان اكثر رجال الكنيسة قد تنكروا لها وخالفوها ، حكم عليهما بالموت حرقاً ، فنبشت جثة الاول بعد موته واحرقت ، واحرق الثاني حياً . وفي القضيتين كانت الكنيسة هي التي اصدرت الحكم . كل حركة فكرية قامت في تلك العهود كانت هدفاً للاضطهاد . « روجر باكون » في اوائل القرن الحادي عشر كان راهباً وكان مفكراً . فلم يستسغ عقله النظريات الغيبية المطلقة ، فحمل عليها منكراً ان الاشياء والطوارىء الطبيعية ذات كينونة مقررة ومستقلة ، قائلا انها مسببات لاسباب يجب البحث عنها ومعرفتها والرجوع اليها في الكشف عن الحقيقة ، وبذلك كان باكون اول من فتح باب الجدلية في الغرب المتخذ بالفلسفة الحتمية المطلقة . كان باكون جريئاً في ابداء نظريته

فلم يجبن امام الاضطهاد الذي لحق به من السلطات الروحية بل بقي مثابراً في طريقه على الرغم من كل الصعوبات التي اعترضته . والجدير بالذكر انه لم تكن لمادية الانسان قيمة في العهود الوسطى ، كأن الانسان وجد في هذه الدنيا ليهيء نفسه للآخرة فقط . فالطب كان على درجة قصوى من الانحطاط اذ لا اهمية للجسد في نظر السلطة الروحية المهيمنة ، ولهذا فقد حصرت العناية الطبية بالقلة من الاسياد الكبار ، وكانت العلوم الطبية التي وضع قواعدها الاغريق والرومان محرمة ، وكذلك شأن المعاهد التعليمية القليلة العدد التي انشئت في جنوبي اوروبا بفضل فريدريك الثاني وبهمة بعض مفكري ذلك العهد الذين ترجموا عن علماء العرب ما اخذه اولئك عن علماء اليونان وما زادوه عليه . ولم يفسح لهذه المعاهد المجال لنشر ابحاثها وتطبيقها . وقد بقيت الطبابة في يد الكهان والمشعوذين والدجالين . كانت الاوبئة تحصد الناس حصداً ، والامراض تداوى بالصلوات ، والجراحة جزارة . كان محرماً ان يدعي طبيب الى مساعدة امراة في المخاض فاذا تعسرت ولادتها دعي الكاهن ليردد عليها الصلوات بينما هي تتألم وتتعذب ، واذا انقطع الرجاء من خلاص الام وتحتم موتها اصبح هم الكاهن ان يعمد الطفل وهو في رحم امه لكي تخلص روحه ، فيدخل الى الرحم آلة خاصة يرش بواسطتها الماء المقدس على الطفل ويعمده كاثوليكياً باسم الله والابن والروح القدس ، وهكذا يطمئن الى ان الطفل والام قد ماتا مسيحيين وكفى الله المؤمنين شر الحياة .

على هذا النمط كانت الحياة تسير في اوروبا في القرون الوسطى ، بينما كانت مدنية العرب تمشي من ازدهار الى ازدهار في البقعة المسماة بالشرق الادنى . ولكن على الرغم من كل وسائل الضغط والارهاب والاضطهاد كانت تتسرب الى هذا الغرب ، الثقافة العربية حاملة معها زاداً مغذيا من الثقافة اليونانية . فمن معرة النعمان شع نور ابي العلاء فالهم « دانتي » روايته الخالدة « الكوميديا الآلهية » سواء كانت هذه الرواية مستلهمة من رسالة المعري الغفرانية مباشرة ام لم تكن . ومن شمالي افريقيا قفزت تعاليم ابن خلدون وابن رشد الى شاطىء المتوسط الجنوبي فبذرت

بذاراً حصده فيما بعد باكون ومونتسكيو وغيرهما من المفكرين والاجتماعيين . وما كاد القرن الثالث عشر يطل حتى بدأ سلطان العقل ينازع سلطان الروح معلنا بداية الانبعاث وعهد النهضة .

في الواقع ان تاريخ القرون الوسطى متشابك مع تاريخ السلطة الروحية الرومانية . غير ان اوروبا نفسها تنقسم الى غرب والى شرق . فاذا كانت اوروبا من البحر المتوسط جنوباً الى بحر الشمال شمالا ، ومن الاوقيانوس الاطلنطيكي غرباً الى نهر الاودر شرقاً ، اذا كان هذا القسم الكبير من اوروبا متشابكاً تاريخه مع تاريخ السلطة الروحية الرومانية فالقسم الباقي شرقاً لم يكن في يوم من الايام تحت تأثير الكنيسة الكاثوليكية البطرسية التي لم تستطع ان تبسط عليه نفوذها .

هذا القسم الشرقي كان مفتوحا امام قبائل سلافية نزلت عليه في القرن العاشر من اواسط آسيا فوجدت في سهوله المروية من انهره مراتع كثيرة الخصب ، فاستقرت فيها وجعلت من مدينة كييف عاصمة لها . ولما كانت هذه القبائل شرقية بطبيعتها فقد آثرت التعامل مع الشرق اكثر من الغرب ، وفضلت الاتصال بالقسطنطينية « بيزنطية » على الاتصال بروما ، فتاجرت معها ، واتاحت للمرسلين البيزنطيين الدخول اليها فاعتنق السلافيون الديانة المسيحية على يد البيزنطيين وانكروا الوثنية واصبحت المسيحية البيزنطية ديانة هذه البلاد السلافية المعروفة باسم روسيا . هي فرصة فاتت الكنيسة الرومانية التي كانت منهمكة بتناعبها مع ملوك اوروبا فانتهزتها الكنيسة البيزنطية وكانت السبب الاكبر لنزاع بين شرق اوروبا وغربها لا يزال مستحكما الى يومنا هذا . وعندما سقطت القسطنطينية في يد المسلمين على يد محمد الفاتح وانهارت الامبراطورية عام ١٤٥٣ اغتنمت روسيا هذه السانحة ووجهت بيانا الى العالم قاطبة بانها وحدها وريثة المسيحية البيزنطية وحاميتها . وقد زاد في التباعد بين مسيحية روسيا الشرقية والمسيحية الغربية وقوف السلطة الروحية البابوية ومن ورائها البلدان الغربية كلها موقف المتفرج عندما اكتسح جنكيزخان بلاد الروسيا في القرن الثالث عشر واستعبدها استعباداً

وحشياً لم يرو مثله التاريخ . فبقي الروس والسلاف مدة مائة وخمسين سنة عبيداً للغزاة التتر يقاسون الذل والهوان من اسيادهم الهمج . ومع هذا لم تتحرك عواطف جماعة مسيحيي روما لانهم كانوا ينظرون الى العنصر المسيحي البيزنطي نظرة ابشع من نظرتهم الى الخارجين على المسيحية نفسها. وهكذا بقيت الشعوب السلافية الروسية تتمرغ في عبوديتها الى ان قيض لها الخلاص على يد الغراندوق الموسكوي ديمتري عام ١٣٨٠. ومن ذلك التاريخ استقل الشعب الروسي تحت سلطة امراء من سلالات شمالية تتوالى على الحكم. ثم عهدت هذه الشعوب الى احد اشرافها ميشال رومانوف بالحكم المطلق ورفعته على عرش روسيا ، ودام حكم آل رومانوف الى عام ١٩١٧ عندما اطاحت بهم الثورة السوفياتية كما سيجيء فيما بعد .

ان القطيعة السياسية والدينية التي وجدت في تلك العهود بين شرق اوروبا وغربها ، وقفت حائلا دون اي تفاعل بين حضارتي القسم الشرقي والقسم الغربي . فلم يتشابه الفريقان الا في الانحطاط والرجعية. في الغرب والشرق كان الاقطاعيون يتحكمون بالفلاحين والعمال . وفي الغرب والشرق كانت الخاصة تستعبد العامة . غير ان النهضة تسللت الى الغرب قبل تسللها الى الشرق . ومرجع ذلك الى ان المناهل التي اخذت منها النهضة الغربية غذاءها كانت اقرب الى غرب اوروبا من شرقها فضلا عن ان من طبيعة السلافيين انهم اكثر انعزالية من الغربيين .

ان الاقطاعية كانت ابرز مظاهر النظام والحضارة في القرون الوسطى سواء كان في شرق اوروبا او في غربها . وكان للسلطة الروحية اليد الكبرى في تغذية النظام الاقطاعي . وعلى الرغم من ان القسم الشرقي من اوروبا لم يكن خاضعاً للسلطة الروحية البابوية فان هذا القسم كان له ايضاً سلطته الروحية البيزنطية ، وكان له اساقفته وبطاركته . ومع أنه لم يكن لهؤلاء سلطان مواز لسلطة البابا ، فانهم كانوا اصحاب نفوذ يخولهم التدخل في الامور الزمنية كلها . وقد كانوا يعملون كزملائهم الغربيين على مساندة الاقطاعية والرجعية ومشتقاتها . ولكن من الانصاف ان نقول ان اقطاعية الغرب كانت اكثر تنظيماً من اقطاعية الشرق لسبب وحيد هو

ان السلطة الروحية في الغرب ومن ورائها السلطة الزمنية كانتا اكثر مهارة من زميلتها في الشرق. ومرجع ذلك مبدأ العصمة الذي تفرضه الكنيسة البابوية. فالبابا في نظر الكاثوليك لا يخطىء، واعماله غير قابلة الانتقاد، ونظامه كلي. ولذلك كانت اقطاعية الغرب مستندة على نظام معين ومنسوب الى الوحي الالهي، بينما كانت اقطاعية الشرق مستندة فقط الى تأخر العامة وجهلها واستبداد الخاصة ونفوذ رجال الدين، لا عصمتهم. ولكن اختلاف النظام الاقطاعي بين الشرق والغرب ليس سبباً لتفضيله في الغرب على ما كان في الشرق. فالدهاء والمهارة في عمل الشر لا يعتبران مزية.

لم يكن للانسان قيمة في العهود الوسطى اكثر من القيمة الآلية والجسدية. هو عبد لسيد مقاطعته، يشتغل له ويحارب ويموت من اجله، والسيد هذا يدفع الجزية للملك ويدفع له ضريبة الرأس. الفلاح يزرع الارض ويحصدها ويقدم محصولاتها للاقطاعي مكتفياً بكفاف العيش. حتى الكفاف درجته موقوفة على كرم الاقطاعي او تقتيره. والكنيسة فوق الجميع توزع اراضي الجنة لقاء ما تأخذه من خيرات الارض. الرهبان مبشرون واطباء وجباة ايضاً. والويل لمن يمسك عنهم ما يفرضونه عليه فان جزاءه الحرم البابوي وعقابه نار جهنم.

١٢. عصر النهضة والانبعاث

(يخطىء من يظن ان للتاريخ حدوداً حاسمة فاصلة . ولذلك ليس لعصر النهضة حدود تاريخية معينة بسنة او بجيل معين. ولا يمكن تحديد تاريخ نهاية العصور المظلمة او بداية عصر الانبعاث فان الوعي كان يظهر احياناً ابان الهجعة ثم لا يلبث ان يختفي اما من تلقاء نفسه او من ضغط قوى الرجعية عليه ، ولكنه لا يختفي الا بعد ان يكون قد زرع بذوره في ارض تهيئها عوامل التطور الزمني . فاذا ما تراكمت هذه العوامل وهطل الغيث ارتوى الزرع ونما واعطى غلالا ومحاصيل تبشر بموسم كثير الخصب والانتاج .)

هكذا كان التطور من الظلمة الى النور ، ومن عصور الهجعة في القرون الوسطى الى عصر النهضة . وقد كشف هذا التطور عن قوى كامنة في الادراك الانساني ما ان تهيأت لها وسائل التحرر حتى انطلقت في طريق الاصلاح الثقافي والاجتماعي والاقتصادي .

وعندما نفتش عن بداية التطور في القرون الوسطى نجد من الحوادث ما يصلح اعتباره نقطة التحول، ولو لم تلاق هذه اليقظات هزات رجعية عنيفة تحد من مفعولها، ولو الى وقت، لكانت استعجلت الانتقال من العهود المظلمة الى عهد النهضة والانبعاث.

لقد رأينا في فصل سابق الامبراطور فريدريك الثاني يخلق في بلاطه سوقاً للادب والعلم والفلسفة فيدعو اليه علماء العرب ويكرمهم ويفتح لهم باب العمل على

نشر الثقافة العربية واليونانية. ثم رأيناه يؤسس مدرستين احداهما في نابولي للعلوم والثانية في سالرنو لعلم الطب. فكان بعمله هذا باعثاً للنهضة الفكرية والعلمية في اوروبا. وفي تلك الفترة نفسها قامت في مدينة باريس جامعة خصصت في البدء للعلوم اللاهوتية ثم مالبثت ان تدرجت الى تدريس العلوم الاخرى. وكانوا يؤمونها من فرنسا وانكلترا والمانيا وهولندا وبقية البلدان الاوروبية. وعلى اثر وقوع انشقاق بين الطلاب الانكليز والفرنسيين غادرها الاولون وانشأوا جامعة في مدينة اوكسفورد في انكلترا وهي الجامعة الشهيرة التي لا تزال قائمة الى يومنا هذا. وفي القرن الثالث عشر قام « روجر باكون» (Roger Bacon) الفيلسوف الانكليزي يدعو الى البحث الفكري مبيناً ان للظاهرات الطبيعية اسباباً يجب التفتيش عنها ومنكرا العقيدة القائلة ان الاشياء وجدت كما هي قائمة. فاحدث باكون رجة في الاوساط الدينية واتهم بالسحر والزندقة. واضطهد علناً فاضطر الى نشر ارائه بطرق سرية. وفي ذلك القرن ايضاً عاش « دانتي » حياة المتألم من الحالة السياسية والاجتماعية والدينية الفاسدة ، وعندما اخذ يجاهر بافكاره قامت عليه قيامة السلطات فشردته وعاش شريداً الى ان مات ، ولكنه ترك اثاراً ستبقى خالدة ابد الدهر. وقد دفعه بؤسه وتشرده الى ابتكار رواية خيالية وصف فيها عالماً مجهولا حمله اليه فرجيل الشاعر والفيلسوف الروماني فشاهد فيه جموعاً من الناس كانوا اشراراً على الارض فما ان ماتوا حتى ذهب بعضهم الى جهنم وقابلوا «لوسيفر» الشرير الاكبر محاطاً بزمرة الخاطئين والمحتالين والكذبة من ملوك واباطرة وامراء وكهان وباباوات ، بينما كان آخرون يكفرون عن خطاياهم الدنيوية في المطهر. ولقد ظن « دانتي » المسكين ان حيلته الادبية هذه خليقة بان تجنبه سخط السلطات، ولكن هذه السلطات التي لا تنطلي عليها الحيل امعنت في اضطهاده فمات شريداً بائساً محروماً.

لقد كان القرن الثالث عشر حافلا باليقظات الفكرية والتحررية وبالمغامرات. جاب « ماركو بولو » الرحالة الفينيسي الاقطار بغية الوصول الى مملكة الصين

والشرق الاقصى ، فدامت رحلته عشرين عاماً وكتب عن مفاتن هذه المملكة ومحاصيلها واهلها اسفاراً عدة شوقت الكثيرين اليها وكانت دافعاً لمغامرات الذين اتوا من بعده . ولم تلاق كتابات « ماركوبولو » من المقاومة والتسفيه ما لاقته كتابات باكون وداتي وغيرهما ، ولعل سبب ذلك ان كتابات « ماركوبولو » كانت ذات فائدة تجارية رابحة للسلطات لا يخشون منها الانتفاض على جبروتهم بعكس ابحاث باكون وداتي التحررية .

حتى السياسة لم تخل من انتفاضة انقلابية في هذه الفترة . فقد اصيب النظام الاقطاعي بهزة زعزعت اركانه عندما ثار الشعب في انكلترا على نظام الحكم الاستبدادي فاجبر الملك يوحنا في عام ١٢١٥ على توقيع الوثيقة العظمى Magna Carta معترفاً ببعض الحقوق للشعب الانكليزي . ومع ان الملوك الذين تعاقبوا على عرش انكلترا كانوا يسعون دائماً لنقض هذا الميثاق فقد بقي الشعب متمسكا به ، يقاوم مساعي ملوكه بالقوة . وقد كان هذا الميثاق اول وثيقة تعترف بحقوق المواطنين وتحد من استبداد الملوك في جمع الضرائب وابتزاز اموال الشعب، وكان من نتائجه ان الملك هنري الثالث عند توليه العرش وجد نفسه مضطراً الى استدانة الاموال من بعض المتمولين والى القبول بايجاد مجلس يشرف على الخزينة الملكية، فكان هذا المجلس فاتحة لعهد المجالس الثورية والنيابية . ولا يزال الانكليز يفاخرون حتى الان بميثاق ١٢١٥ ويعدونه اعظم حدث في تاريخهم . ولا شك في ان هذا الميثاق قد دق اسفيناً في جهاز النظام الاقطاعي فقلبه الى نظام رأسمالي بورجوازي .

ولكن السلطات الرجعية الروحية والزمنية لم تلق سلاحها امام هذا التيار التقدمي فما لبثت ان استعادت نفوذها في القرن الرابع عشر واخمدت تلك الشعلة المباركة وتمادت في جولتها حتى ضعف التيار التقدمي الذي قام في القرن السابق ليستيقظ مرة ثانية في عشية القرن الخامس عشر وفي فجر القرن السادس عشر ممهداً الطريق للنهضة الحقيقية الدائمة التي اسدلت الستار على ظلمة القرون الوسطى .

لقد تميز القرن الخامس عشر بالاسفار التي قام بها مغامرون شجعان قطعوا

البحار الواسعة على مراكب شراعية بغية اكتشاف اراض جديدة واستثمار ما يمكن استثماره من خيراتها . لقد كان الفينقيون اول من اخترع الشراع وقطعوا البحار ولكن اسفارهم بقيت محصورة في نطاق ضيق لا يتعدى الشواطىء من فينيقيه الى افريقيا فاليونان فايطاليا فاسبانيا ففرنسا فبريطانيا . اما مغامرو القرن الخامس عشر فقد ذهبوا بعيداً في اسفارهم عبر البحار والاوقيانوسات الواسعة والبعيدة . وكان ذلك نتيجة لتوطيد الفكرة القائلة بان الارض مستديرة لا مسطحة . وعلى الرغم من ان هذه النظرية هي في الاصل نظرية العالم الجغرافي المصري « بطليموس » الذي عاش في القرن الثاني للمسيح فقد نسختها وقضت عليها رجعية القرون الوسطى فبقيت نائمة ثلاثة عشر قرنا الى ان ايقظها العالم البولوني « كوبرنيكوس » في اوائل القرن الخامس عشر دون ان يجسر على اعلانها قبل عام ١٤٥٣، غير ان مغامري البحار اخذوها اساسا لمغامراتهم ورحلاتهم الخطرة .

اشهر رحالة في التاريخ هو « كرستوفوروس كولومبوس » الجنوي الذي نسب اليه اكتشاف القارة الاميركية. كان هذا الرحالة الجريء مقتنعا بامكان الوصول الى الشرق الاقصى اذا سلك طريق الغرب . فحاول الاستعانة بالسلطات لتساعده على مغامرته وتضع تحت تصرفه الوسائل المادية من مراكب وبحارة ومساعدات مالية . ولكن السلطات اعتبرت مغامرته جنونية لم تأبه لها ، فبقي مصراً عليها ومصمماً على القيام بها الى ان اقنع ملك اسبانيا فرديناند وزوجته ايزابلا في عام ١٤٩٢ بوجهة نظره فعقدا معه اتفاقية تقضي بان تكون الاراضي المكتشفة ملكاً لاسبانيا وقدما له ثلاثة مراكب شراعية شحناها باربعين رجلا من المجرمين المحكوم عليهم بالاعدام او بالسجن المؤبد، فسافر في الثالث من شهر آب فكان كلما حط ببابسة يبشر مليكه بان العلم الاسباني اكتسب ارضاً جديدة . غير ان كولومبوس بقي يجهل وجود قارة ثانية بين اوروبا وآسيا حتى انه عندما وطىء شواطىء اميركا الجنوبية حسب ان هذه الشواطىء ليست الا محطة من المحطات

القائمة بين اوروبا والشرق الاقصى ، فمات عام ١٥٠٦ دون ان يعرف ان الشواطىء التي نزل فيها انما هي جزء من قارة كبرى. ومع هذا فالعالم يعتبر كولومبوس مكتشف اميركا . ولعل العالم على حق في هذا الاعتبار لان بعثة كولومبوس هي اول بعثة نزلت في هذه القارة .

وقد اثار نجاح اسبانيا واستيلاؤها على ممتلكات جديدة حفيظة جارتها مملكة البورتغال . فقام منها الرحالة فاسكو ده غاما في عام ١٤٩٨ وفي عام ١٥٠٢ برحلتين عاد منهما حاملا الخيرات وقد رفع علم بلاده على المقاطعات التي اكتشفها. ثم واصلت الدولتان اللاتينيتان التنافس والتسابق في الاسفار الاستعمارية . وكانت اسبانيا متفوقة . فارسلت بعثة جديدة عام ١٥١٩ مؤلفة من خمسة مراكب يقودها بحار بورتغالي هو «فرديناند ماجلان» متوجهة صوب الغرب، فقطعت المحيط الاطلنطي الى البرازيل ثم نزلت جنوبا حيث وجدت محيطا اقل هياجا من المحيط الاطلنطي واطلقت عليه اسم المحيط الباسيفيكي او المحيط الهادي تدليلا على هدوء امواجه . وعلى الرغم مما واجهته هذه البعثة من المصاعب والاخطار فقد ظلت توالي سيرها فاكتشفت ارخبيلا كبيراً اطلق عليه ماجيلان اسم الفيليبين باسم فيليب ولي عهد سيده الملك شارل الخامس . غير ان ماجيلان لقي حتفه مع عدد من رفاقه اذ صرعهم سكان تلك البقاع المتوحشة عندما سلطوا عليهم نيران مدفعيتهم ليحملوهم على اعتناق الديانة المسيحية بالقوة، وهرب من بقي من افراد بعثته عائدين الى اسبانيا.

ان بعثة ماجيلان كانت من اعظم البعثات واهمها فقد دامت ثلاث سنوات وكلفت الاموال الطائلة ، واليها يرجع الفضل في تثبيت الفكرة القائلة ان الارض مستديرة ، وهي التي اعطت الدليل على ان الارض التي وطئها كولومبوس كانت قارة مستقلة . وعندما اشتد التنازع بين اسبانيا والبورتغال على ملكية الاراضي المكتشفة تدخل البابا لحسم النزاع بين المملكتين اللاتينيتين وقسم هذه الاراضي بينهما ، فبقيت كلها خاضعة روحيا الى المملكة البابوية ، وزمنيا الى مملكتي اسبانيا والبورتغال الى ان اغتصبها منهما تدريجياً البريطانيون والهولنديون في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

وقد فتحت مغامرات اولئك الرحالة باب الاستعمار على مصراعيه . فانبرى تجار الغرب الى استثمار خيرات الشرق وتعرّف الشرق الى مدنية الغرب الذي بقي محتفظاً بالسيادة المطلقة ، فكان هذا الاختلاط من اهم الاسباب لزيادة التفاعل بين الشرق والغرب ولتطور الحضارة في العالمين . على ان هذه الفتوحات البحرية التي قام بها مغامرون غربيون يناصرهم ملوك وتجار واساقفة من الغرب قد رفعت شأن اوروبا وقلدتها اكليل السيادة العالمية الى اجيال واجيال . ولكن يخيل الينا ان سلطان اوروبا قد اخذ في الانهيار منذ الثورة الروسية التي ايقظت الشعوب المستعمرة في الشرق .

١٣. عصر الغليان الديني

وثورة لوثيروس

تبين لنا في الفصلين السابقين ان بوادر النهضة الفكرية قد ظهرت في غضون القرن الثالث عشر ، ثم اخمدت الى حد بعيد في القرن الرابع عشر ، ثم استيقظت مرة ثانية في عشية القرن الخامس عشر . غير ان ابرز مظاهر النهضة انما بدت في القرن السادس عشر . ولعلي لا اخطيء اذا قلت ان ابرز شخصية عرفها هذا القرن هي شخصية لوثيروس الذي قام بثورة اصلاحية وسمت ذلك العصر بطابعها فسمي عهد الاصلاح .

كان لوثيروس راهباً كاثوليكياً دومينيكياً . ولكنه كان مثقفاً واعياً . عكف على دراسة التعاليم المسيحية ، وهاله ما الحقه بها بعض رجال الكنيسة البابوية من تشويه . وكانت الكنيسة تتخبط تلك الايام في متاعب مالية عمدت الى التغلب عليها بطريقة مبتكرة ومستنكرة ، اذ عندما خفت مداخيل الكنيسة من الضرائب بسبب امتناع بعض الامراء والملوك والاقطاعيين المتمردين عن تأديتها ، وافلت من يدها توزيع الاملاك على الارض لقاء ما تقبضه من الاموال لتغذية خزينتها ، فتحت سوقاً ثانية لبيع اراضي الجنة . فمن يدفع المبالغ الكبيرة تبيعه ملكاً في السماء ، ومن يدفع اقل تسهل له عبور المطهر بمدة اقصر من غيره ، حتى اصبحت القيم الروحية تقدر بالأثمان والهبات التي يدفعها الناس للكنيسة . السماء مفتوحة للاغنياء اما الفقراء فلهم نار جهنم او عذاب المطهر .

لم يكن لوثيروس اول من ثار على اعمال رجال الدين فقد رأينا « إيرازموس » وويكليف وهس يثورون من قبله فيخفقون ويضطهدون ، وتقضي محكمة التفتيش باحراق نشرات الاول وجثة الثاني بعد موته بينما احرق هس حياً . ولكن لوثيروس نجا من الموت لانه استطاع اكتساب ثقة الناس ولا سيما العامة منهم بعد ان طفح كيل هذه العامة ورأت من استبداد الكنيسة ما دفعها الى الاخذ بارائه وتعاليمه تخلصاً من ذلك الاستبداد المرهق . وكانت الخطوة الاولى في ثورة لوثيروس الاصلاحية اقدامه على تعليق ما يصح تسميته « مانيفستو » على باب المحكمة الكنسية ، وهو بيان يحتوي خمساً وتسعين مادة ، هاجم فيه اعمال رجال الكنيسة ولا سيما بيع الروح واراضي الجنة . وكان من الطبيعي ان يكون هذا البيان موضوعا للاخذ والرد والنقاش بين الناس ، وان تغضب السلطات الروحية على صاحبه وكل من اخذ به او اقتنع بما جاء فيه . فدعت هذه السلطات الراهب لوثيروس الى روما لتستجوبه عن عمل يعد تحدياً للسلطة الروحية العليا . غير ان لوثيروس عصا امر روما فلم يذهب اليها حيث كان ينتظره الموت المحتوم ، وانما هرب الى المانيا واستقر فيها ، فاكتفت روما عندئذ بانزال الحرم المقدس به .

ومنذ ذلك التاريخ اصبح لوثيروس قائد الجبهة المعارضة للكنيسة التي سميت جبهة البروتستانت من Protest ، والتف حوله كثير من طلاب الجامعات واساتذتها في المانيا، وتطوع لحمايته كبير ناخبي سكسونيا ، فاخفق الامبراطور شارل الخامس عميل البابا في محاولته للقضاء عليه وعلى تعاليمه ، واعتكف لوثيروس في قلعة من قلاع سكسونيا ، وترجم الكتاب المقدس من اللاتينية الى اللغات الحية ، فتلقف كتبه الناس وانضم الى جبهته كل الناقمين على اعمال السلطة البابوية فضلا عن الذين انضموا اليه اقتناعاً بصواب تعاليمه. وعندما مات لوثيروس عام ١٥٤٩ كانت اوروبا في غليان ديني ، وكان هذا الغليان المرحلة الحاسمة في تقويض السيادة البابوية .

على ان لوثيروس لم يكن بطاشا في ثورته بل اعتمد في نشر رسالته على عاملي

التثقيف والتنوير الفكري. ولكن البروتستانتية لم تعدم زعماء بطاشين، ففي فرنسا مثلا تزعّم البروتستانتية « كالفن » وكان زعيما روحيا وسياسيا في آن واحد، فقابل قسوة الكاثوليك بقسوة مثلها، واعدم الخارجين عن طاعته وعقيدته، وتعددت حوادث الاصطدام بين الجماعتين، كل منهما تتهم الثانية بالهرطقة وتستبيح القضاء عليها. الملك فيليب بنعمة الله وبركة الكرسي الرسولي حرض قائده « دوق البا » على حكام المقاطعات البروتستانتية وجرد عليهم حملة عسكرية وقطع رؤوسهم. وفي الوقت نفسه ذبح البروتستانتيون الفرنسيون في ليلة مار بارتلماوس. ولما رأت المقاطعات البروتستانتية الشمالية السبع عدم مقدرتها على مقاومة الجبهة الكاثوليكية عقدت فيما بينها حلفا وانتخبت الامير الالماني «وليم اورانج » رئيساً عليها كلها. فجرد جيشا بحريا من البلاد التي تدعى اليوم البلاد الواطئة اي هولندا وحفر مساحات واسعة من الاراضي غمرها بالمياه، وسير فيها السفن، فاستطاع الدفاع عن بلاده ضد عدوها الكاثوليكي ملك اسبانيا بنعمة الله، فكان لانتصار وليم اورانج البروتستانتي على الملك فيليب الكاثوليكي اثر بارز اذ وضع حداً لاعمال الوكالة الروحية على الارض. وعلى الرغم من مقتل وليم بيد احد اتباع فيليب المتهوسين فان حقد البروتستانتيين في المقاطعات الشمالية على الكاثوليك كان يزيد يوماً عن يوم وتجلت القطيعة بينهما باجلى مظاهرها.

لم يبق الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت خلافاً دينياً وحسب بل تعداه الى النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية. فالكاثوليكية اكثر من دين ومذهب، انها نظام كلي تفرضه سلطة عليا لا تستمد مبادئها من رغبات الشعب وحاجاته ودرجة تطوره، بل تبشر بتعاليم غيبيه ابدية مطلقة، وتقوم على مبدأ الطاعة التامة للرئيس الاعلى. ولو انها اقتصرت على الامور الدينية لما لاقت مثل تلك المقاومة ولما اعتقد المفكرون الاحرار بأنها تحول دون التقدم والتطور. ولكن عندما رأى هؤلاء ان هذا النظام يريد ان يخضع الانسان لشرائعه في حياته الزمنية والمدنية، وانه نظام قائم على الاعتقاد بعصمة الرئيس الاعلى ويعتبر كل خروج على

تعاليم الكنيسة هرطقة وزندقة ، خرجوا عليه وقاوموه وكان العالم البروتستانتي الذي اوجدوه اسبق من العالم الكاثوليكي في مجالات الحضارة . غاليليو العالم الايطالي الذي كان من اوائل مكتشفي الجاذبية ، واول من صنع المنظار الفلكي ، والذي ايد بصورة عملية نظرية كوبرنيك في دوران الارض حول الشمس ، غاليليو هذا الذي لم يعش في القرون الوسطى بل عاش في القرن السابع عشر ، حكمت عليه محكمة التفتيش الكنسية لخروجه عن الايمان . وليس ادل على الروح الرجعية التي سادت الكنيسة حتى في عهد النهضة من هذا الحكم الذي جاء فيه : « بناء على ما بلغ المجتمع المقدس من انك تؤمن بصحة المذهب الخاطىء ، والقائل بان الشمس مركز العالم ، وانها ثابتة ، وان الارض تتحرك حركة يومية ، وبناء على امر سيدنا — بولس الخامس — واصحاب النيافة كرادلة المحكمة العليا ، يرى اللاهوتيون اصحاب الراي والتعريف ، ان القضيتين المتعلقتين بسكون الشمس وحركة الارض مناقضتان للعقل (!) ومغلوطتان في اللاهوت ، فالاولى هرطقة صريحة ، والثانية فيها خطأ من ناحية الايمان ، فنحن نقول ونلفظ ونحكم ونعلن انك انت غاليليو المذكور اصبحت في نظر المجمع المقدس محل شبهة قوية بالهرطقة باعتقادك وتمسكك بنظرية خاطئة ومناقضة للكتب الآلهية المقدسة . ونحن نأمر بمنع كتاب «محاورات غاليليو » بموجب مرسوم علني ، ونحكم عليك بالسجن بالمدة التي سنرى تحديدها » .

ان مذهباً يصدر مثل هذا الحكم ويفرض على العقل البشري ان يبقى خاضعاً ومقيداً بالايمان الغيبي والتسليم المطلق ، ان هذا المذهب وكل مذهب غيبي آخر يقف سداً في وجه التطور العقلي والفكري لا بد ان يرى فيه المفكرون المنورون مذهباً رجعياً وان تسعى مواكب الحضارة التقدمية الى تقويضه .

على ان الكنيسة الكاثوليكية لم ترم سلاحها تجاه الهجوم البروتستانتي اذ قام جبار من جبابرة التاريخ اسمه « اغناطيوس لويولا » كان جندياً اسبانيا اشتهر بشجاعته كما اشتهر بتهتكه وسوء اخلاقه ، ثم تاب على اثر رؤيا الهية يقول انها تراءت

له ، واسس في عام ١٥٣٤ جمعية دينية لخدمة الكنيسة تكفيراً عن خطاياه ،ووضع لهذه الجمعية نظاما قاسيا عسكريا ، فاخذت جمعيته على نفسها مهمة التثقيف الديني ، ونمت نمواً عظيما ، واصبحت ذات شأن في الحركة الدينية ، ثم عمدها البابا بولس الثالث باسم الجمعية اليسوعية ، وبقيت صاحبة النفوذ الاكبر الى عام ١٧٧٣ عندما ضج منها الملوك والامراء الكاثوليك لتدخلها في كل شأن وهي صامدة لا يلين لها عود ، تحيك المؤامرات وتغذي الضغائن ، وقد اتهمت باثارة حروب الثلاثين السنة فاجبر البابا على الغائها . غير ان هذا الالغاء قد زادها تحمساً لمبادئها وتمسكا بنظامها وكان عملها في الخفاء اكثر فعالية من عملها في الجهر ، وهي لا تزال الى هذا اليوم تتمتع بقوة يحسب لها حساب كبير .

ومما زاد البروتستانتيين قوة والكاثوليكية ضعفا ، تمركز الاولى في انكلترا عندما اعتلى عرشها الملك هنري الثامن ، وقد كان هذا الملك مزواجا شهوانيا خرج عن طاعة البابا لانه لم يسمح له بالطلاق ، فاعتنق البروتستانتية ، واقام نفسه رئيسا لها وصادر الممتلكات البابوية في بلاده ، فاغنى بها خزينته وتبعه الكثيرون من رعاياه ولا سيما التجار واصحاب الاملاك والثروات الذين كانوا ينقمون على الكنيسة البابوية لسببين ، اولهما الجعالات الضخمة التي كانت تفرضها السلطة البابوية عليهم والسبب الثاني كره الانكليز لممثلي البابا الايطاليين . ومع ان الصراع البروتستانتي الكاثوليكي استمر زمناً طويلا في انكلترا فان الغلبة الاخيرة كانت للكنيسة الجديدة المتمردة .

ولا شك في ان الثورة اللوثيرية كانت الدعامة الكبرى للنهضة الفكرية في القرن السادس عشر وانها كانت ذات تأثير كبير في تطور الحضارة الاوروبية. وعلى الرغم من محافظتها على كثير من العقائد الدينية الغيبية ، وعلى الرغم من ان عامل التعصب الديني لم يكن في بروتستانتي القرن السادس عشر اقل منه في كاثوليكيه ، فان لهذه الثورة فضل القضاء على عصمة فلسفة الوحي والالهام والتنزيل ، وعصمة الذين قالوا انما نحن وكلاء الله على الارض فاخضعوا العقل

البشري لوحيهم واستيحائهم ، وغمروا تلك العهود بالجهل والذل والمسكنة . ولا شك ايضا في ان الوثبة اللوثيرية قد فسحت المجال لتبدل المفاهيم الاجتماعية والسياسية وهيأت السبل للتطورات التي حدثت في القرون التالية كما سيجيء الكلام في الفصول التالية .

١٤. الديموقراطية البورجوازية

تحلّ محل الاقطاعية

يتصل نشوء الديموقراطية البورجوازية وتاريخها اتصالا وثيقاً بتاريخ بريطانيا. ففي هذه البلاد قامت اول حركة بورجوازية عندما اجبر الملك يوحنا على امضاء الوثيقة العظمى Magna Carta ١٢١٥ التي تسجل ان للشعب حقوقاً، على مليكه ان يراعيها ويرعاها. وفي هذه البلاد قامت اول ثورة شعبية عام ١٦٤٨ على يد «كرومويل» فاطاحت برأس الملك شارل الاول الذي دغدغته احلام ملوك اوروبا السابقين مدعياً ان حقه في الملكية هو من قبل الله لا ينازعه فيه البرلمان. فكانت هذه الثورة فاتحة عهد الحكم البرلماني على الرغم من ان برلمانية ذلك العهد لم تكن برلمانية شعبية بالمعنى الصحيح، وانما كانت برلمانية بورجوازية قائمة على حكم التجار واصحاب الاملاك والاشراف دون العامة. ومن تحصيل الحاصل القول ان انتشار البروتستانتية ولا سيما في شمالي اوروبا وتزعم انكلترا عليها هما اللذان اتاحا لانكلترا فضل السبق في تركيز الحكم البرلماني في اوروبا.

كانت انكلترا قبل القرن الحادي عشر مستعمرة ينتقل الحكم عليها من الفرنسيين الى قبائل شمالية دانيماركية، ثم يعود، فلم تعرف الاستقلال الذاتي الا عندما اكتسحها وليم دوق نورماندیا عام ١٠٦١ واسس ملكاً مستقلا بقي الفرنسيون يطمعون فيه الى اجيال حتى وقعت بين انكلترا وفرنسا حرب المائة السنة، وكانت انكلترا بقيادة مقاطعة نورمنديا الفرنسية الاصل، هي الغالبة. ثم

قيض لفرنسا الخلاص من الانكليز على يد « جان درك » فطرد هؤلاء من الاراضي الفرنسية. وقد دفعت جان درك حياتها ثمناً لتحرر فرنسا من الغزاة على ما هو معروف في التاريخ . ومنذ ذلك الحين عكف الانكليز على تثبيت ملكهم في الجزيرة العريقة وتولى العرش الملك هنري السابع من بيت «تيودور» الكاثوليكي وخلفه ابنه هنري الثامن الذي اعتنق البروتستانتية كما جاء في الفصل السابق . وبعد فترة قصيرة تولى فيها العرش ابن هنري الثامن ثم اخته ماري ، فالملكة اليصابات ابنة هنري الثامن من امرأته « آنا بولين » ثانية نسائه والتي قطع هذا الزوج المزواج رأسها ليتزوج غيرها . وقد كانت اليصابات اشد اعداء الكاثوليكية كما كان عهدها الذي دام نصف قرن اعظم عهود الامبراطورية البريطانية . ففي اثنائه حطم الاسطولان الانكليزي والهولندي الآرمادا الاسبانية . وفي اثنائه قويت شوكة الاسطول البريطاني فجاب البحار ورفع العلم البريطاني على المستعمرات البعيدة في الجزر الهندية وغيرها ، واتصل بالامبراطورية الموسكوية وانشأ معها العلاقات التجارية واصبح الاسطول البريطاني الركن الاساسي لسيادة الامبراطورية وازدهارها وثرائها .

وبينما كانت اليصابات في نزاع مميت مع ماري ستيوارت ملكة اسكوتلندا الكاثوليكية ، قامت ثورة في اسكوتلندا على الملكة ماري اضطرتها الى الهرب والالتجاء الى انكلترا لتعيش في حماية نسيبتها اليصابات فاغتنمت اليصابات هذه الفرصة للقضاء على مزاحمتها الخطرة فحكم عليها المجلس الاستشاري بالموت بقطع الرأس وهكذا تخلصت اليصابات منها وصفا لها الجو لتنظيم بلادها ورفع مستواها السياسي والتجاري والاجتماعي .

والحق ان اليصابات كانت اعظم من اعتلى عرش انكلترا . فلم تترك ناحية من نواحي التقدم الا اولتها من اهتمامها وجهودها ما يساعد على ازدهارها. لقد فسحت المجال لرجال الادب والفكر فقربت اليها الشعراء والكتاب والعلماء وكانت تأخذ عنهم اراءهم ودروسهم لتطبقها في مجالسها السياسية وتضع بموجبها انظمة الملك

الاقتصادية وغير الاقتصادية منتقلة بانكلترا من العهد الاقطاعي الى العهد البرلماني البورجوازي . واعلت شأن الادب والادباء فانشأت المسارح التي مثلت مسرحيات الشاعر الاكبر « شكسبير » . وقد كانت مناصرة شكسبير للملكة اليصابات من اكبر خدمات الحظ لها ، اذ خلع هذا الشاعر الاديب النابغة على العهد الاليصاباتي وشاحاً زاهياً من الأدب والشعر واوجد في انكلترا نهضة فكرية مستلهماً ادبه ورواياته من صميم الحياة في ذلك العهد . ولم تزل مؤلفاته حتى الان تحتل المقام الاول في الادب الانكليزي . وانه لمن الانصاف ان يسمى عهد الملكة اليصابات بالعهد الاليصاباتي الشكسبيري .

بعد موت اليصابات عاد العرش الى عائلة ستيوارت في شخص «جيمس» الاول ابن ماري ستيوارت . ثم توالى على العرش امراء هذا البيت ففرهم ما بلغته انكلترا من السيادة والثراء والنفوذ ورغبوا في استعادة « الحق الالهي» ، فكان الشعب يقاوم محاولاتهم ويثور عليهم، وكان نصيب شارل الاول ابن جيمس الاول الموت على يد « اوليفركرومويل ». كان كرومويل بروتستانتيا متعصباً ينكر حق الملكية الآلهي فنفخ في الشعب روح التمرد على الملك وجرد عليه جيشاً من اتباع الكنيسة الانكليكانية — وهي فرع من البروتستانتية واطلق عليه اسم « جيش الله. » — فقهره اولا وثانياً ثم حاكمه بتهمة الخيانة العظمى واعدمه في عام ١٦٤٩ ووضع بذلك حداً للحروب الاهلية التي لم تنشب بين البروتستانت والكاثوليك وحسب بل بين البروتستانت انفسهم ، البروتستانت الانكليز بقيادة كرومويل والبروتستانت البرسبيتيريين في اسكوتلندا مركز بيت ستيوارت. وعلى الرغم من عودة آل ستيوارت الى العرش بعد موت كرومويل ، وعلى الرغم من محاولات شارل الثاني وجيمس الثاني لاسترداد ما سبق للشعب الانكليزي الحصول عليه ، وعلى الرغم من المساعي التي قام بها الجزويت والسلطة البابوية لاعادة سلطة روما على العرش الانكليزي عن طريق لويس ملك فرنسا الذي امدّ شارل البريطاني بالاموال ، فقد بقي الشعب الانكليزي يناضل في سبيل الحفاظ على ما بلغه في عهد كرومويل واليصابات.

فما كاد الملك جيمس يموت حتى طلب الشعب بواسطة ممثلين عن فئتيه ، المحافظين (Tories) مؤيدي الملك والاحرار (Whigs) ممثلي البورجوازية ، من وليم الثالث صهر رئيس جمهورية هولندا ان يتولى العرش الانكليزي . وهكذا تخلصت انكلترا نهائياً وربحت البروتستانتية الجولة الاخيرة ، وتوطد الحكم البرلماني فاصدر البرلمان قانوناً يقضي بان يكون ملك انكلترا بروتستانتياً انكليكانياً ، كما اصدر وثيقة يعترف فيها الملك بحقوق الشعب ، وقد جاء في هذه الوثيقة انه لا يجوز جباية الضرائب ولا تجنيد الجيوش الا بعد موافقة البرلمان . وبهذا نرى ان انكلترا كانت اول دولة نهجت نهجاً دستورياً ، على رأسه ملك والى جانبه وزارة مسؤولة ومجلس نيابي منتخب . ومع ان حق الانتخاب كان محصوراً في فئة ضئيلة من الشعب لا تتجاوز عشرة ، وهي الفئة المؤلفة من الاشراف والتجار ، فان هذا الحق ما لبث ان اعطي الى الفئات الاخرى ، وما زال يتسع حتى اصبح يتمتع به جميع الطبقات الشعبية من محافظين واجراء وعمال فتوطدت بذلك دعائم النظام الملكي الدستوري الذي ما فتىء يسود انكلترا حتى الان .

كانت انكلترا صاحبة الخطوة الاولى في الحكم الديموقراطي . ومع انه قام في هولندا نوع من الديموقراطية الدستورية فان هولندا لم تكن لها المكانة الكافية لتمشي كبار الدول على غرارها . اما فرنسا ، كبرى دول القارة الاوروبية ، فقد بقيت طوال المدة التي حكمها آل بوربون مناهضة للنظام البرلماني ، يحكمها الملوك بالحق الالهي المكرس لهم من قبل الكنيسة الباباوية مستأثرين بالحكم مع بلاطاتهم ووزرائهم . واذا كان لا ينكر على هؤلاء الملوك ما عملوه في سبيل تقدم بلادهم العمراني والاقتصادي والتوسيعي ، فلا ينكر ايضاً حرمانهم الشعب من حقوقه طوال القرون التي سبقت الثورة الفرنسية . على ان فرنسا قد بلغت مجداً يذكر ولا سيما في عهد الملك لويس الرابع عشر فهذا الملك الذي حكم سبعين سنة ونيفاً ، على الرغم من استبداده وتفرده في السلطان كان يشعر بمسؤولية الحكم ، وكان وزراؤه على الاخص ريشليو ومازاران من دهاقنة السياسة والادارة ، وقد عمل في

سبيل تقدم بلاده وعمرانها كثيراً وأسس في باريس اكاديمية الاداب ، اكبر جامعة في ذلك العهد، واصبح المجتمع الفرنسي ايام حكمه مناراً تحتذيه بقية البلدان، ونشط المسرح الفرنسي الذي اغناه موليير برواياته ومسرحياته الهزلية والتهكمية ، وارتفع شأن الادب الفرنسي حتى اصبحت اللغة الفرنسية اللغة الرسمية العالمية . ودأب لويس الرابع عشر على تنظيم الاوضاع الاقتصادية مستعيناً بوزير ماليته كولبرت اكبر اقتصادي ذلك العصر ، وجعل من البلاط الفرنسي اعظم بلاط في الدنيا ولقب نفسه بلقب الملك الشمس وذهب قوله المأثور مثلا « انا الدولة والدولة انا » ، وفاز بعظمة لم يفز بها ملك سواه حتى بلغت فرنسا في عهده من الشأن والسؤدد ما يخلده له التاريخ .

وهكذا كانت اوروبا في القرن السابع عشر جبهتين ، الجبهة الاولى تتزعمها انكلترا وهي تخطو الى النظام البرلماني الديموقراطي يسوقها اليه تحررها من السلطة الروحية الكلية الكاثوليكية ، والجبهة الثانية تتزعمها فرنسا الكاثوليكية المتمسكة بحق الملك الآلهي الذي لا يتلاءم مع النظام الديموقراطي البرلماني ، وشأن فرنسا كان شأن الدول الاوروبية اللاتينية كلها .

اما في شرق اوروبا فقد كانت روسيا تعمل على تضميد جراحها بعد ان تخلصت من الاستعباد الجينكزخاني والتتري . وعندما طردت منها الغزاة عمدت الى تثبيت كيانها واخذت في التوسع الى الشرق فامتلكت الاصقاع السيبيرية الواسعة . لكنها بقيت دولة متأخرة ومنقطعة الى ان اعتلى عرشها الملك بطرس الكبير الذي اخذ ينقل عن الغرب مناهجه العمرانية ، فبنى المدن وشق الطرقات ، واقام المواصلات بين اطراف مملكته الشاسعة ، وادخل الصناعة اليها ، وانشأ المدارس والمستشفيات ، ولم يرض بان يشاركه احد في الحكم فاخضع لسلطانه رؤساء الدين واقام نفسه رئيسا على الكنيسة الارثوذكسية على غرار ما فعله ملوك انكلترا وجند جيشاً قويا للدفاع عن بلاده ، ونقل عاصمة ملكه من موسكو الى بطرسبورج، وخاض الحروب ضد اسوج تارة مدافعا وتارة مهاجما الى ان استطاع

التغلب على خصومه فاستتب له السلطان ، واخذ يعمل على تقوية الروسيا عسكريا وعمرانيا واقتصاديا . اما شكل الحكم فكان استبداديا . على الشعب العمل والطاعة، لا سؤال ولا جواب، ولا دستور ولا ديموقراطية، بل عبودية شعبية في دولة قوية. وعندما مات بطرس الكبير في عام ١٧٢٥ ظل اولاده واحفاده يتوارثون العرش القيصري الى ان قضت الثورة الشيوعية على آخر ملوكهم عام ١٩١٧ . على انه ما من قيصر من خلفاء بطرس الكبير كان له من القوة والجبروت والاقدام ما خوله اياه استئثاره بالسلطان المطلق ، اذ اخذ الاشراف والملاكون والاكليروس من بعده يتقربون من الملك ويشاركونه السلطة الاستبدادية . اما سواد الشعب فقد بقي في كلا الحالين مرهقاً مضطهداً ومستعبداً مما جعل منه حقلا خصباً لنمو بذور الثورة .

يستخلص مما تقدم ان الديموقراطية البورجوازية ما وجدت في القرن السابع عشر الا في انكلترا وفي هولندا . ومن هذين البلدين اخذت تتسلل الى اوروبا كما سيجيء الكلام في الفصول التالية .

١٥ . هوس الاستعمار

يطغى على اوروبا

كان لنشوء الحركة البورجوازية في اوروبا اثر محسوس في تطور الصراع الانساني . في عهد الاقطاع كانت فئة الاقطاعيين تكتفي بامتلاك الاراضي وتشغيل او تسخير العامة في الزراعة ، فيعطى الشغيل كفافه من العيش بينما يستولي رئيس المقاطعة على جميع المحصولات ، يدفع منها فريضة الجزية للخزينة فيجاز له التحكم بالجماعات القاطنة في اقطاعيته ، يجندها لمحاربة غيره من الاقطاعيين او لوضعها تحت تصرف الملك في حروبه الدولية . ولم يكن الاقطاعي يطمع باكثر من دوام رضى الملك عليه ودوام عبودية الناس له في اقطاعيته . ولم يكن للتجارة ولا للصناعة شأن في ذلك العهد. وانحصر التباين الطبقي في فئتين فئة الاقطاعيين اصحاب الاملاك الواسعة وهي القلة العددية من الشعب ، وفئة العامة المغبونة وهي الكثرة الساحقة غير ان ما حصل من التطور الذي اتينا على ذكره في الفصل السابق فسح المجال لنشوء طبقة جديدة هي الطبقة البورجوازية ، واصبح الشعب مقسوماً الى ثلاث طبقات . الطبقة الاولى وهي مؤلفة من الاشراف والاقطاعيين اصحاب الاملاك الكبيرة ، والطبقة الثانية ويؤلفها التجار واصحاب الصناعات ، والطبقة الثالثة وهي تتألف من العمال والفلاحين وعامة الشعب . وعلى الرغم من ان الطبقة الاولى بقيت الى امد صاحبة الحول والطول ، فانها ما لبثت ان رأت نفسها مضطرة الى التنازل رويداً رويداً عن سلطانها المطلق للطبقة الثانية البورجوازية صاحبة الثروة المالية والتجارية والصناعية لقاء ما تستدينه من اموالها لكي تؤمن بها نفقات السلطان

والوجاهة والفروسية . اما الطبقة الثالثة اي الطبقة العامة ، فقد بقيت مطية استثمار الطبقة الثانية البورجوازية كما كانت مطية استعباد الطبقة الاولى الارستوقراطية والاقطاعية . غير ان اسياد الطبقة الثالثة الجدد كانوا اكثر اشفاقاً عليهم لشدة حاجتهم الى يدها العاملة التي بدونها لا تزدهر تجارتهم وصناعتهم ولا تتكدس الارباح في خزائنهم . والحق ان الطبقة الثانية كانت اكثر الطبقات نشاطاً ووعياً واجتهاداً . ففيما كانت الطبقة الاولى تلهو وتعبث ، وفيما كانت الطبقة الثالثة مستسلمة الى حكم القدر ، قانعة من دنياها بما يؤملها به مستثمروها من سعادة الاخرة ، كانت الطبقة الثانية تعمل جاهدة لاستثمار خيرات الارض والافادة منها في تثبيت مكانتها وازدهار معيشتها ورفع مستواها المادي والفكري ، حتى جاء القرن الثامن عشر فبدأت هذه الطبقة تزحزح الطبقة الاولى من مراكز نفوذها لتنتزعه منها في القرنين التاليين .

كانت الطبقة الثانية البورجوازية تمتاز عن الطبقة الاولى الارستوقراطية بمزايا عدة سهلت لها سبل التفوق والسبق . فهي اكثر تقدمية منها اجتماعياً ، واكثر ميلا للاخذ بسنة التطور ، وهي اكثر وعياً واستطلاعاً وادراكا وتقديراً للقيم الانسانية ، فهي لم يغرها التحصن في برج عاجي بل خرجت من قوقعتها الى ميدان الحياة والعمل ، تصارع وتناضل لاستخراج ثروات الطبيعة من بطون الارض والاستعانة بالعلم والخبرة والتجربة على استثمارها لمصلحة الفرد والجماعة والدولة ، باذلة اقصى الجهود لفتح آفاق المعرفة وخلق جو صالح لحياة تقوم على العمل والانتاج والاخذ والعطاء فيرتفع بذلك المستوى الانساني ماديا ومعنويا .

كانت التجارة العنصر الاهم في توطيد سلطة الطبقة الثانية . وقد انتهجت السبل المختلفة من علمية واقتصادية لاستدرار الكسب والثراء . وبدأ التزاحم بين الدول الاوروبية ، وكل منها تبغي لنفسها اكبر قسط من الارباح . وطمعت اوروبا في خيرات القارات غير الاوروبية كآسيا وافريقيا ، ودفعها طمعها هذا الى التوسع والاستعمار . فبنت الاساطيل التجارية لكي تحمل اليها ثروات البلدان المتأخرة ،

وترسل اليها مصنوعات معاملها . وكانت الدولة التي تملك قسطاً اكبر من وسائل النقل صاحبة الحصة الكبرى . وهنا تبرز عظمة انكلترا التي جعلت من التجارة اساساً لسياستها منذ عهد كرومويل .

يقول المثل : الحاجة ام الاختراع . ولعل الحاجة هي التي فرضت على انكلترا سياستها في التوسع الاستعماري . فانكلترا جزيرة عائمة في البحر ، لا تستطيع ان تكفي حاجات سكانها، اذن لا بد لها من التطلع الى غنى الاراضي البعيدة. هذا فضلا عن ان الشعب الانكليزي الذي سبق غيره في التطور اصبح ذا مطامع لا يشبعها التحصن في جزيرته. من هنا انطلقت ثورة الانكليز على البحار فاخضعوها لمراكبهم فامتدت تجارتهم الى اقاصي المعمورة . وقامت مبارزة حامية بينها وبين فرنسا انتصرت فيها انكلترا على منافستها ، فانتزعت منها القسم الاكبر من تجارة الهند بواسطة الشركة الانكليزية الهندية التجارية في عام ١٦٠٠ ، ثم ضمته الى ممتلكاتها في منتصف القرن الثامن عشر تاركة لزميلتها فرنسا قسماً صغيراً هو الهند الصينية ، وظلت تنازع فرنسا على ممتلكاتها في اميركا حتى استولت عليها.وكانت كلما ازدادت توسعاً بالتجارة عمدت الى فرض نفوذها بواسطة المراكب : فالمراكب التجارية لنقل الخيرات ، والمراكب الحربية لنقل الجنود وحماية ممتلكاتها من اي هجوم تقوم به دولة مزاحمة او اي عصيان يقوم به سكان هذه الممتلكات عليها .

الواقع التاريخي ان الدول الاوروبية كلها قد نهجت في سياستها نهجاً استعماريا توسعياً . غير ان انكلترا كانت دائماً متفوقة على غيرها . ويرجع ذلك الى ان بروتستانتية انكلترا والدول الشمالية اخرجتها من الدائرة الضيقة التي كانت تضرب نطاقا حول فرنسا والدول اللاتينية ، فسهلت لها بذلك التعامل والاختلاط مع القبائل المستعمَرَة ، بينما كانت فرنسا وشقيقاتها اللاتينيات تتوخى من استعمارها فضلا عن الاستثمار التجاري نشر الديانة الكاثوليكية ، فاتحة المجال لرسلها المتعصبين واخصهم الجزويت ادخال الثقافة اللاتينية — اذا جاز ان يسمى التعصب الديني ثقافة — الى ابناء المستعمرات . فكان من الطبيعي ان يصطدم

هؤلاء الرسل بالقبائل الهمجية القاطنة في تلك البلدن، مما ادى الى نفور المستعمَرين، من المستعمِرين، وبينما كان الفرنسيون يستنكفون عن معاملة من لا يعتنق ديانتهم، او يجبرونهم على اعتناقها، ويضطهدونهم من اجل ذلك، كان الانكليز يسايرونهم ويهادنونهم ليحصلوا منهم على اكثر ما يمكن من الثروة. وبكلمة اخرى كان الاستعمار الانكليزي اكثر انواع الاستعمار فهماً لمصالحه، وتذرعاً بجميع الوسائل ليكون مقبولا او محتملا من الشعوب المستعمرة مما جعله اكثر صموداً امام تقلبات الحوادث وتطور الشعوب.

كان طبيعيا ان يرافق العصر الرأسمالي والاستعماري تقدم في العلم والصناعة والاجتماع. فالرأسمالية والاستعمار والتجارة تقضي بزيادة الانتاج لزيادة الارباح. وهذا يقضي بتقدم الصناعة والملاحة وتأسيس الشركات الاستثمارية، ووضع القوانين والقواعد لها وللمساهمين والعاملين فيها. ولذلك ازدهر عصر الرأسمالية الاستعمارية بالعلوم، وكثر عدد المعاهد والمصانع والمؤسسات على اختلاف انواعها. منذ اخترع «جيمس وات» المحرك البخاري عام ١٧٧٧ استبدل بالمراكب الشراعية المراكب البخارية فسهلت الاسفار والتجارة عبر البحار والاوقيانوسات. في هذا العصر تحول العلم من الميدان الروحي الى الميدان العملي والصناعي والمادي وكانت بريطانيا دائماً السابقة الى الاخذ بهذا التحول، فمخرت اساطيلها البحار القريبة والبعيدة، وارتفعت رايتها فوق البقاع المبعثرة في كثير من انحاء الكرة الارضية، وامتلكت من المساحات ما لم يستطع ان يمتلكه سواها، واصبحت عاصمتها عاصمة الدنيا في الاعمال والسياسة والسيادة المالية.

هذه هي اوروبا القرن الثامن عشر. وهذه هي دولها تمتلك خيرات الدنيا وتستثمرها وتتحكم بمصائر شعوب الارض تعطيها القليل لتأخذ منها الكثير. حفنة من الاوروبيين تتحكم بمئات الملايين من البشر. المستعمَرون، يعيشون عيش الرفاه والبذخ، والمستعمِرون، يعيشون عيش الكفاف والذل والمسكنة. هؤلاء يزرعون واولئك يحصدون، والاوروبيون يتذرعون بالحجة التمدينية،

مدعين انهم يقومون بعمل تمديني انساني . ومنذ القديم كانت النزعة الانسانية ذريعة لاشباع المطامع .

مما لا شك فيه ان اوروبا في ذلك العهد بلغت من الرقي العلمي والاجتماعي ما لم تبلغه غيرها من بقاع الارض . ولا شك ايضاً في ان تخالط الشعوب بعضها ببعض قد نتج عن تفاعل اجتماعي وعمراني فيما بينها ، لما كان ينقله هذا التخالط من معالم المدنية من قطر الى قطر . ولكن الاستعمار كان يقظا لامره ، حريصا على ان ياخذ بالشمال ما يعطيه باليمين . انه لنفاق ما يدعيه الاوروبيون من ان امتلاكهم لاراضي غيرهم وسيطرتهم على الشعوب الاخرى كان الغرض منه تمدين الشعوب المحكومة . فلا تجارتهم كانت لاغناء سكان الاراضي المستثمرة ، ولا بعثاتهم الارسالية كانت لتثقيف الجماعات البشرية المرسلة اليها . ما كانت هذه وتلك سوى وسائل جبرية لا غنى عنها لجني الارباح وفرض السيادة الاوروبية اما عن طريق الاخذ والعطاء او عن طريق الثقافة الموجهة توجيها استعماريا صرفا . لم يتورعوا في كثير في الاحيان عن معاملة سكان الممتلكات بجميع ضروب القسوة والارهاب حين كانوا يلمسون يقظة تحررية ، ولو ضئيلة ، او حين كانوا يلمسون ان اولئك السكان قد بدأوا يتلقنون من تعاليم البعثات ما يتعرفون به الى حقوقهم . ولطالما قام الاوروبيون انفسهم باستفزازات مقصودة لكي يجعلوا من الاعتداءات الفردية ذريعة لفرض قيود مالية وعسكرية على السكان البسطاء الوادعين . غير ان المستعمرين كانوا بين أمرين اثنين لا ثالث لهما ، فاما ان يقبلوا بان تنفتح عيون محكوميهم على معالم المدنية وأغرائهم بالتقرب اليهم بغية اكتساب ثقتهم وتسهيل التعامل معهم واستخدامهم للغاية التي يرمون هم اليها ، واما ان يقفلوا عليهم باب المعرفة والتفتح فتقل منفعتهم منهم . وهنا ايضاً تبرز مواهب الانكليز في الاستعمار اكثر من غيرهم ، اذ عرفوا كيف يوازنون بين رقي ابناء مستعمراتهم وبين الرغبة في حفظ النصيب الافر من الكسب لهم . وقد ادت عبقريتهم هذه اذا جاز التعبير الى السماح لسكان المستعمرات بقسم من الكسب المادي يزيد من الكسب الفكري

والروحي ، على عكس سكان المستعمرات الفرنسية الذين كان مستعمروهم يقترون عليهم الارباح المادية والمعيشية ويلهونهم عن شظف العيش محولين انظارهم الى الناحية الروحية التي يوجهونهم اليها .

اننا لا نكون منصفين اذا لم نعترف بان الانتقال من العهد الاقطاعي الى العهد الرأسمالي كان خطوة الى الامام . فعلى الرغم من ان الرأسمالية تمخضت فولدت الاستعمار ، وعلى الرغم من قسوة الاستعمار على الشعوب المستعمَرة فلا سبيل للنكران ان المستعمرين قد ادركوا ان مصلحتهم لا تقوم كما يبتغونها ، الا اذا تسامحوا باعطاء البلدان الطامعين في استثمارها جرعات مقننة من الحضارة . وقد وجدوا انفسهم مضطرين الى فتح المعاهد وتدريب السكان على الزراعة والصناعة ووسائل الانتاج ، بحيث ازدادت قيمة الانسان في عين نفسه ولم يعد يرضى بعبودية جامحة يفرضها عليه الاقطاعي او رئيس القبيلة التي ينتمي اليها . ناهيك عن ان مصلحة الاستعمار تقضي بان لا تكون السيادة لغيره ، وان لا يقاسمه إياها زعيم او رئيس قبيلة صاحب بأس مطلق على قبيلته . ففي الوقت الذي كان الاستعمار يساند الزعماء والرؤساء الوطنيين ، كان من جهة ثانية يلوح لهؤلاء ان لرعاياهم حقوقاً ليس في وسعهم التغاضي عنها ، ممسكاً بذلك طرفي الحبل ، يشد به تارة الى اليمين وتارة الى الشمال ، حرصاً منه على التوازن بين الطرفين ، فيبقى هو المرجع الاخير ، وتبقى كلمته كلمة الفصل .

ان المرحلة الاستعمارية كانت بمثابة جسر عبرت عليه الحضارة من العهود الاقطاعية المظلمة الى عهد الانطلاق التقدمي الانساني . وان ما رافق هذه المرحلة من التقدم العمراني والصناعي والانتاجي ، ورفع مستوى المعيشة ، والدور الذي مثله عنصر العمل في هذه المرحلة والوعي الاجتماعي الذي احرزه العامل ففتح عينيه على ما يلحقه به المجتمع مقابل ما يقدمه للمجتمع من الخدمات ، كل ذلك كان سبباً ودافعاً ليقظة الطبقة الثالثة العمالية ونضالها في سبيل تحررها من الطبقة الرأسمالية كما سيجيء فيما بعد .

١٦. طلائع الحركة

التحررية العالمية

على الرغم من طغيان الرأسمالية الاستعمارية في القرون الثلاثة التي سبقت القرن العشرين ، وعلى الرغم من الطابع الاستعماري الذي ساد الحكومات في هذه الفترة من التاريخ ، وما رافقه من الضغط الفكري والارهاق الاقتصادي ، وعلى الرغم من فرض شرائع مدنية ودينية واجتماعية واقتصادية مستوحاة من نظام قائم على تقسيم الناس الى طبقات ، وعلى الرغم من تشابك الدول في حروب سداها الطمع ولحمتها شهوة التغلب والسيطرة الفردية او القومية ، فان هذا العصر لم يعدم بذوراً ثورية تحررية كان ينثرها هنا وهناك افراد ثائرون على الانظمة القائمة ، بذوراً نزلت في ارض جافة مجدبة ، اذا استطاع الجدب والجفاف ان يعيقا نموها ، فما استطاعا سبيلا الى قتل حيويتها ، فرقدت نواتها في الارض الى حين ثم نمت واينعت واعطت ثماراً طيبة .

ومن الانصاف الاقرار بان طلائع الثورة التحررية الفكرية ظهرت في فرنسا قبل غيرها من البلدان الاوروبية . صحيح ان انكلترا سبقت فرنسا في انتهاج النظام الديموقراطي كما قلنا سابقاً . ولكن العقلية الانكليزية المحافظة تؤثر التطور البطيء وترتاح اليه، على عكس العقلية الفرنسية الملتهبة التي تجنح الى الطفرة. وفضلا عن ذلك كان النظام البورجوازي الديموقراطي البروتستانتي الانكليزي بعد منتصف القرن السابع عشر وفي القرن الثامن عشر ، على شذوذه ، اكثر تسامحاً تجاه

الانفجارات الفكرية من النظام الاوتوقراطي الكاثوليكي الفرنسي .

مذ حمل « روجر باكون » في القرن الحادي عشر على الفلسفة الغيبية المطلقة ، كان يقوم بين فترة واخرى علماء ينهجون نهجه في ابحاثهم العلمية . وكأن سلالة باكون ورثت عن عميدها ميزته هذه ليبعثها من جديد احد احفاده فرنسيس باكون في القرن السابع عشر ، فكان حظ الخلف احسن من حظ السلف اذ ان هذا الاخير لم يتعرض للمقاومة التي قطعت على جده الاكبر طريق العمل الجدي . ولقيت نظرية باكون الجديد تأييداً من علماء تقدميين ابرزهم «باسكال» العالم الفرنسي في البحوث الطبيعية والذي يرجع اليه فضل اكتشاف الثقل الهوائي ، وديكارت الفيلسوف الفرنسي ايضاً . وكان ذلك طبيعياً جداً لانقلاب النظام الاقتصادي السائد من نظام اقطاعي الى نظام بورجوازي .

لم يكن باسكال ولا ديكارت ملحدين ، انما كانا ثائرين على الفلسفة الغيبية المثالية . فاغضبت فلسفتها الاوساط الاكليريكية ولا سيما الجزويتية منها . وحاربتهما محاربة لا هوادة فيها . ومع ان باسكال انصرف الى البحوث الدينية في آخر حياته غير ان انصرافه هذا لم يمنعه من محاولة تطبيق فلسفته الدينية على نظرياته العلمية ، مما اثار حقد الجزويت عليه . فجابههم بمقالات عنيفة اظهر فيها ضلالهم وتضليلهم . ولم ينج ديكارت من اضطهاد الجزويت زعماء الفلسفة الغيبية المطلقة واصحاب النفوذ على اوروبا اللاتينية ، فكفروا فلسفته كما كفروا كل فلسفة مبنية على التفاعل العلمي والادراك العقلي قد تفسح مجال الجدل في الفلسفة الارسطوطاليسية او في فلسفة مار توما الاكويني قيدوم العصر في الفلسفة اللاهوتية الكاثوليكية الغيبية. على ان فلسفة ديكارت لقيت مناصرة واسعة من العلماء والفلاسفة . وما كانت اضطهادات الجزويت له لتزيدها الا اتساعاً وانتشاراً ، فبقي اسم ديكارت يحتل المكان الاول بين فلاسفة الفرنسيس .

من المعقول ان تعجز فلسفة باكون وباسكال وديكارت عن بث الروح الثورية في الجماهير ، اذ ان تعاليم هؤلاء العلماء اقتصر مفعولها على فئة قليلة من الناس وهي

الفئة المتعلمة ، فما اعارها الشعب كثيراً من الاهتمام . فالعامة كانت مغمورة بالتعاليم الدينية ، راتعة في حالة من الجهل لا تمكنها من استيعاب النظريات العلمية . غير ان الفئة الواعية المثقفة استمدت من هذه النظريات ما فسح لها المجال لاطلاق ثورتها الفكرية بطرق اقرب الى مفهوم عامة الشعب المتعطش الى الارتواء من مناهل غير المناهل الدينية البحتة التي تضيق عليه الخناق ، ولا تفتح له باب الانعتاق من قيودها القاسية والمحكمة. فبينما كان الناس لا تشغل افكارهم انظمة الحكم والتشريع كأنما خلقوا للاذعان لما يسنه لهم الملوك والحكام ورجال الدين ، طلع عليهم « مونتسكيو » بابحاثه الحقوقية والاجتماعية التي تحدد مسؤولية الدولة وحقوق الشعب وتوزيع السلطات فمهد السبيل امام الذين قدر لهم فيما بعد ان يضعوا القوانين التشريعية التي تمشت عليها الثورة الفرنسية . ولم يقصر جان جاك روسو الرجل الطريد في هذا المضمار فاوحت له مثاليته ورومنطيقيته كما اوحى له نفوره واستياؤه من فساد المجتمع الذي كان يعيش فيه نظريات اجتماعية وتربوية سبكها في كتبه التي تركها ذخيرة مقدسة لابناء الجيل الناشيء والاجيال المقبلة . وفي وسعنا القول ان الذي فاتته قراءة بل درس ما كتب روسو لاسيما كتبه الثلاثة الخالدة « العقد الاجتماعي » و«اميل» و«اعترافات روسو » ليس باستطاعته ادراك المبادىء التي ارتكزت عليها الثورة الفرنسية ، ولا التبسط في تحليل اسبابها ومقدماتها .

لقد وجد الشعب الفرنسي في روسو وفي مناصره فولتير نصيرين يشعران بشعوره ويتحسسان بآلامه ويستلهمان اثارهما الادبية من واقع حياته ، على ان فولتير كان اعنف من زميله في النقد . فهاجم الكنيسة بقسوة ، واعلنها حرباً لا هوادة فيها على التعصب الديني ، وفضح شعوذات رجال الدين ، وتهكم على الملوك والحكومات المستبدة الطاغية ، كل ذلك بلغة شعبية صافية حببته الى قلوب العامة ، وجعلته هدفاً للاضطهاد والتشريد ، فعاش اكثر حياته هارباً تارة في انكلترا وتارة في بروسيا حيث استقبله ملكها فريدريك الثاني واكرمه وتكفل بحمايته وجعل من بلاطه ملجأ له . لكن فولتير كان ينفر من القيود حتى قيود المجاملة والتودد ،

فرأى في حماية فريدريك وفي ما اسبغه عليه من النعم والخيرات وفي ما تتركه هذه عليه من المنة ما تأباه عليه شخصيته النافرة الثائرة ، ففضل الانتقال الى جنيف حيث عاش طليقاً حراً من كل قيد ، وهناك وضع احسن واشهر كتبه ورواياته وملحماته الشعرية التي خلدته ككاتب وشاعر وثائر انساني لا يشق له غبار .

هؤلاء الاعلام ، اعلام الحرية ، زرعوا بذور الثورة التي ظهرت طلائعها بعد منتصف القرن الثامن عشر . واذا كان البذار قد اثمر خارج فرنسا قبل ان يثمر في فرنسا نفسها فلا شك في ان ما زرعه الزارعون الفرنسيون كان بمثابة نقطة الانطلاق لليقظة الفكرية والتحررية في العالم كله . وعندما هب الجنرال لافايت على رأس جيش فرنسي لمساعدة قوات الثورة الاميركية لم يكن مدفوعاً فقط بالحقد على انكلترا كما يدعي بعض المؤرخين ، وانما دفعه الى ذلك ما كان مشهوراً عن هذا القائد من ميله الى الحرية واعتناقه لمبادئها وايمانه بان انتصار الحرية في اى بلد كان يساعد على انتصارها في بلاده . اما لماذا قامت الثورة البورجوازية في اميركا قبل فرنسا فنظنه راجعا الى قوة الحكومة الملكية الفرنسية وما كان لديها من وسائل البطش في بلادها بينما لم يكن لدي الحكومة الانكليزية مثل هذه الوسائل في مستعمرة تحكمها ولكنها تبعد عنها آلاف الاميال ، يضاف الى ذلك نشوء الشعور القومي في الشعب الاميركي ، واصطدامه بالاستعمار الانكليزي مما ساعد على تحرره قبل شعوب كثيرة .

ان الاميركان يحفظون للجنرال لافايت صفحة مجيدة في تاريخهم يعترفون فيها بجميله عليهم في ثورتهم التحررية وخلاصهم من استعمار انكلترا لبلادهم الذي دام ما يناهز القرنين ولم يتحرروا منه الا بعد نضال دام طوال ست سنوات ، والذي بدأ عندما اجتمع الكونغرس الاميركي واصدر قراره التاريخي في شهر تموز ١٧٧٦ باستقلال الولايات المتحدة الاميركية وانكار التبعة الانكليزية وتأليف حكومة

ديموقراطية . ومنذ ذلك التاريخ يعيد الاميركان في الرابع من شهر تموز من كل سنة عيدهم الاستقلالي .

وليس ادل على تطور الثورة الفكرية في ذلك الحين من الوثيقة التي وضعها «توماس جفرسون» وهو قابع في مكتبه في احد فنادق فيلادلفيا ، واقرها بالاجماع مجلس الكونغرس ليتخذها دستوراً له . هذه الوثيقة التي لا تزال الى الآن معروفة بوثيقة جفرسون ثالث رؤساء الولايات المتحدة وهذا نصها :

« اننا نعد الحقائق الآتية من البديهيات : خلق الناس جميعاً متساوين . وقد منحهم الخالق حقوقاً خاصة لا تنتزع ، منها الحياة ، والحرية والسعي لنيل السعادة. ولتأمين هذه الحقوق تكونت من الناس حكومات تستمد سلطانها العادل من رضى الشعب المحكوم . فاذا قامت اية حكومة لتقضي على هذه الغايات اصبح من حق الشعب ان يستبدلها او يلغيها وان يقيم مكانها حكومة جديدة تعتمد على اسس من المبادىء والانظمة التي يراها اجدى واصلح في صون سلامته وسعادته » .

على اساس هذه الوثيقة التاريخية وضعت الولايات المتحدة دستورها الذي لم يتمالك فيما بعد « وليم بت » رئيس وزراء انكلترا ان يقول فيه « ان هذا الدستور سيكون نموذجاً لجميع الدساتير في المستقبل وموضع اعجاب الاجيال القادمة كافة » .

ولكن استقلال الولايات المتحدة لم يأت عفواً. وانكلترا لم تتخل عن استعمارها لاميركا بسهولة . فقد نشبت حرب قاسية بين المستعمِر والمستعمَر وكان الجيش الاميركي اضعف من خصمه عدداً وعدة وتدريباً ، ولكنه كان قوياً بايمانه وحقه . وقد قيض له رجل عظيم وقائد حكيم في شخص جورج واشنطون ، فقاده الى النصر والحرية ، ووجد في جيش لافاييت الفرنسي مساعدة مادية وفي عطف محبي الحرية في العالم اجمع مساعدة معنوية . فاضطرت انكلترا الغارقة في ذلك الحين في حروبها مع اسبانيا وهولندا الى التسليم عام ١٧٨١ والاعتراف باستقلال اميركا .

ان جورج واشنطن يعد بحق ابا الاميركيين. انه محرر اميركا وبطل استقلالها . ولذلك عندما اقر هؤلاء شكل الحكم على الاساس الجمهوري رفعوه الى مقام الرئاسة

ثم اعادوا انتخابه لدن انتهاء مدة رئاسته الاولى . وعندما رغب الشعب في انتخابه للمرة الثالثة رفض باباء كي لا يفسح المجال لسابقة قد يكون منهـا خطر على النظام الجمهوري الانتخابي .

١٧. الثورة الفرنسية

مما لا شك فيه ان الثورة الاميركيـة ايقظت الشعوب المظلومة من غفوتها ، كما اهابت بالحكومات الى الحذر من انتفاض الشعوب كلها . ولكن لم يكن لثورة الاميركيين التأثير العالمي الواسع ، ولم يقم الفكر الاميركي بغزو الاقطار الاجنبية عنه . قد يكون سبب ذلك راجعاً الى عوامل عـدة ، منها ان اميركا في ذلك العهد كانت بعيدة عن العالم القديم ، بحيث لم يكن هناك كبير اختلاط بين العالمين . فالدنيا لم تكن دنيا سرعة وطيارات وذرة في القرن الثامن عشر . زد على ذلك ان الشعب الاميركي ، وهو خليـط من شعوب مختلفة منهـا الهنود الاصليون ومنها المهاجرون من اوروبا ، لم يكن غنياً لا في انتاجه ولا في تراثه الفكري . يضاف الى هذا ايضاً المذهب المعروف باسم مذهب «منرو» خامس رؤساء الولايات المتحدة ، والذي اتخذته اميركا دستوراً لها الى ان قضى عليه «فرنكلين روزفلت» . ومذهب منرو هذا يقضي بعزل العالم الجديد عن العالم القديم وعدم السماح لاوروبا بالتدخل في شؤون اميركا ، وهـذا اعتراف ضمني بعدم تدخل اميركا في شؤون اوروبا . فاميركا تلك البـلاد الشاسعة اكتفت بنفسها ورأت في غناها ما يلهيها عن الاهتمام بغيرها .

ولكن ما قصرت عن بلوغه الثورة الاميركيـة ، قامت به الثورة الفرنسية ، عندما هب الشعب الفرنسي للنضال في سبيل حريته وخبزه . فقتل ملكه وملكته

وامراءه وابناء الطبقة المفضلة التي كانت تسومه الظلم والفقر والجوع والعبودية ، فكانت ثورته ثورة دموية في فرنسا نفسها ، وثورة فكرية في العالم قاطبة . من فرنسا اشتعلت الشرارة الاولى فوصل لظاها الى كل الشعوب الطامحة الى الحرية خارج فرنسا . وعندما يدّعي الفرنسيون انهم هم الذين زرعوا جذوة الحرية في العالم اجمع فليس في وسع منصف ان ينكر هذا الفضل عليهم .

يحدد التاريخ الثورة الفرنسية بعام ١٧٨٩ . ويعيد الفرنسيون في الرابع عشر من شهر تموز كل سنة ابتهاجاً بحريتهم ، لانه اليوم التاريخي الذي هاجم فيه الشعب حصن الباستيل معقل الطغيان الملكي ومعتقل الاحرار .

كانت الثورة الفرنسية نتيجة لا بد منها للحكم الاستبدادي والضغط على حرية الشعب وحرمانه من العيش الهنيء والسعادة وارهاقه بالضرائب وتسخيره لخدمة طبقة قليلة العدد كثيرة المطامع . وقد رأينا في الفصل السابق ما قام به رسل الثورة والتحرر الفكري لتهيئة العدة لهذا الانقلاب الخطير . ولا يغفر الرجعيون والملكيون ورجال الكنيسة للملك لويس الخامس عشر تغاضيه او تهاونه تجاه الحركات التقدمية والكتابات المثيرة والانتقادات الجارحة التي كان يقوم بها هؤلاء الرسل . لويس الخامس عشر الملك المستهتر والمعشاق الذي طغى عليه سلطان الحب فانقاد الى عشيقته الاولى مدام لومبادور ثم الى عشيقته الثانية مدام دي باري وسلم قيادة الدولة الى وزراء من اخصاء هذه او تلك ، فامعنوا في تفسيخ ادارة الدولة ، والذي اضطهد الجزويت ركن الملكية الفرنسية ، والذي تسامح ولو الى حد ما مع الكتبة والمفكرين والعلماء والفلاسفة خصوم الملكية وخصوم الكنيسة ، لويس الخامس عشر هذا في استهتاره بالحكم واستسلامه لحظياته وانصياعه لوزراء ومعاونين من طرازه ، لويس هذا يعود اليه قسط وافر من الفضل في استعجال الثوره الفرنسية ، ورب شر نتج عنه خير . وعندما اعتلى العرش خلفه الملك لويس السادس عشر ، تنفس الرجعيون والملكيون والاكليروس الصعداء ، وظنوا ان هذا الملك البسيط القلب والعقل والارادة ايضاً له من فضيلته الخلقية ما يكفل للملكية

الفرنسية عهداً من الاستقرار ، استقرار قائم على تدعيم النظام الملكي من جهة وتخدير الشعب من جهة اخرى. فدعا الى عقد المجلس التمثيلي مظهراً رغبته في تحقيق مطالب الامة . ولكن لويس السادس عشر الذي تنزه عن الوقوع في قبضة المحظيات وقع في قبضة اشد واقوى هي قبضة امرأته الملكة الفاتنة المسرفة الطموح ماري انطوانت اميرة النمسا التي لم يكن يحبها الشعب الفرنسي . وما كانت فضيلة الملك ولا تقواه ولا نياته الحسنة لتردع الشعب عن الثورة عليه وعلى الملكة . وعندما اراد لويس السادس عشر بدافع عنجهية الملكة ووحي مستشاريه ، ان يحل مجلس الامة ويطرد اعضاءه ، دوى صوت «ميرابو» خطيب الثورة وصاح في وجه القائد الملكي « اذهب وقل لمليكك اننا هنا باسم الشعب الفرنسي ولن نخرج الا على رؤوس الحراب»، وكانت النتيجة ان اعتقل الملك والملكة ثم حكم عليهما بالموت بقطع الرأس، واعلنت الجمهورية الفرنسية الاولى اعظم حركة تحررية قبل القرن العشرين .

مما لا شك فيه ان الثورة الفرنسية كانت العامل الاكبر في بعث جذوة الحرية في الشعوب . وبالرغم مما تخللها من ملاحم وما رافقها من شذوذ وبالرغم من ردات الملكية والرجعية من وقت الى آخر مما جعل من فرنسا شعلة من نار ، سواء في عهد الامبراطورية او في عهد كانت تعود فيه الملكية الى الظهور فان الجذوة ما لبثت ان انطلقت من مقرها فاشعلت هشيماً مكدساً في اقطار المعمورة قاطبة وبذرت بذور الثورات الشعبية في مختلف البلدان كل على قدر قابليته ومهيئاته .

ان الوثيقة التي اقرها المجلس الوطني الفرنسي في ٤ آب ١٧٨٩ واعلن فيها حقوق الانسان تشكل وحدها ثورة عالمية وهي الى يومنا هذا نقطة الانطلاق لكل وثيقة يطلق عليها هذا العنوان . يكفي ان نذكر من موادها السبع عشرة الفقرات التالية «الامة وحدها مصدر السلطات» (بهذا قضي على حق الملوك الالهي)

« الناس يولدون ويبقون احراراً ومتساوين في الحقوق ، ولن تكون فروق اجتماعية بين الافراد الا بحسب ما يأتيه اولئك من النفع العام »

« لا يجرم ولا يوقف مواطن الا بموجب القانون . وكل من يقدم على تجريم

او توقيف مواطن بدون قانون يقع تحت طائلة العقاب »

« كل انسان برىء الى ان يثبت القانون ادانته »

« كل انسان حر بفكره ومعتقده الديني ما دامت حريته لا يشكل اعلانها خطراً على الغير ومعتقده »

« حرية الكلام والكتابة والخطابة والاجتماعات مضمونة بموجب الدستور »

« الضرائب توزع بالنسبة لمقدرة المكلفين . وهي توضع وتجبى بموجب قانون لخدمة المصلحة العامة ولا تدفع ضريبة الا اذا اقرها ممثلو الامة . »

« الملكية الفردية مقدسة ولا يجوز انتزاعها الا اذا قضت المصلحة العامة وذلك لقاء تعويضات عادلة »

ان مجرد التمعن في وثيقة حقوق الانسان التي وضعها المجلس الوطني الفرنسي في عام ١٧٨٩ لدليل كاف على التطور الفكري في القرن الثامن عشر . واذا كانت الثورة الفرنسية قد عجزت عن احداث انقلاب عالمي ثابت الاركان ، فمرجع ذلك الى ان الثورة الفرنسية لم تكن مبنية على اسس علمية وفلسفة اقتصادية ومعيشية شاملة ، بل كانت وليدة الغوران الشعبي الصرف الذي دفع اليه استبداد الطبقة الحاكمة وارهاقها العامة بالضرائب والفقر والعوز . فكان طبيعياً ان تخلق فئة ثانية غير الفئة الارستوقراطية القديمة وتستثمر غليان الشعب وتأخذ بيدها السلطة وتستبد بها على طريقة لا تخلو من بعض عوامل الفساد وان كانت اخف من طريقة الطبقات الحاكمة القديمة . وهذا ما حدث بالفعل في تلك الفترة عندما دب دبيب الطمع الى بعض القادة وارادوا استغلال الثورة لارواء مطامعهم منها . فكان منهم من لقي جزاءه سريعاً كروبسبيير الذي دفعته غيرته من دانتون الى قتله فاعدم هو بدوره عندما اراد ان يمثل دور الكائن الاعلى في الدولة معيداً الى الاذهان فكرة الحق الالهي الذي كان يدعيه الملوك . ومنهم من ساعدته ظروفه وعبقريته على التربع في دست السلطة المطلقة فحدت به مطامعه الى التراجع عن المبادىء التي فسحت له مجال المجد فكان تراجعه هذا دافعاً لمغامراته العسكرية الجنونية وسبباً لسقوطه وانهيار امبراطوريته.

لا اعلم كم من الناس يعتقدون ان عصر الامبراطورية النابوليونية كان عصراً ديموقراطياً . الحقيقة ان نابوليون بونابرت الذي لمع نجمه كقائد للثورة ما لبث ان اغرته مطامع الملك والسلطة فنصب نفسه قنصلا اول ثم امبراطوراً على الفرنسيين ، واعاد سلطة الفرد على الرغم مما سنه من الشرائع الديموقراطية التي بقيت حبراً على ورق طوال مدة حكمه . فالبلاط الامبراطوري لم يكن اقل زهواً من البلاط الملكي ، والارهاق الشعبي لم يكن في ايامه اقل منه في ايام الملوك البوربونيين. واذا كانت انتصارات نابوليون العسكرية اسكرت الشعب الفرنسي الى حين وصورت له احلاماً خداعة بانه الشعب المختار لقيادة اوروبا كلها ، فالتاريخ يسجل على العهد الامبراطوري مظالم لم تكن وطأتها اخف من وطأة المظالم في العهد الملكي . ان نابوليون الذي قلب الجمهورية الى امبراطورية واقام نفسه امبراطوراً عليها ، وحلم بان يبقى العرش ملكاً متوارثاً في سلالته ، لم يعفّ عن الاقدام على كل ما صورت له مطامعه من الاعمال المهيئة للوصول الى اغراضه ، وقد استغوته الفلسفة الميكيافيلية التي شغف بها واعتنق مبادئها فكان ميكيافيلياً الى اقصى حد ، وفي محاكمته «للدوق انغيان» ثم قتله اعطى الدليل الواضح على تعلق التلميذ بتعاليم معلمه ، وما كانت تصرفاته في البلدان المغلوبة ، وتنصيبه اخوته ومحاسيبه ملوكاً عليها واستبداده بشعوبها واستعباده لها وتفظيعه باسراها ، ما كان كل ذلك الا ليقوي اعتقاد العالم بوحشية حكمه وعدم ملاءمته لروح العصر ومدنيته . لقد كان نابوليون بونابرت معبود الشعب الفرنسي وقبلة انظار الشعوب الاخرى عندما كان قائداً للثورة ، وعندما كان يحكم باسم الشعب ولخير الشعب وحريته ، وعندما كان يوجه ادارة الحكم توجيهاً ثورياً ديموقراطياً يهدف الى تحقيق اماني الشعب فينشىء جامعة باريس العظمى ويستبدل الشرائع القديمة بشرعته المدنية المعروفة باسمه للآن ويعدل الى الاحسن النظام المالي . ولكن ما عتم ان تحول حب الشعب له الى حذر وخوف ثم الى كره عندما رآه يستسلم الى مطامعه وشهواته فينصب نفسه امبراطوراً طاغياً وتدفعه مطامعه هذه الى طلاق امرأته جوزفين التي احبها الفرنسيون

ليتزوج من ابنة امبراطور النمسا عدو فرنسا ، تقرباً من السلالات الملكية وطمعاً بان تنجب له هذه الاميرة وريثاً لعرش فرنسا ، لكي ينشىء امبراطورية وراثية على غرار الملكية القديمة . وعندما تألبت اوروبا على نابوليون وكسرته شر كسرة ، تنفس الشعب الفرنسي الصعداء لانه رأى في نابوليون قائد الثورة خيانة لمبادئها ولاماني الشعب ، متجاهلا ما كانت تبيته اوروبا نفسها له وللمبادىء الثورية الديموقراطية . فاغتنمت الدول الاوروبية هذه الفرصة للقضاء على نابوليون وعلى الحركة الشعبية التي عرفت عبقريته ان تستغلها دون ان تلجم نفسها عن التهور الجنوني الذي اطاح بنابوليون وبالحركة ذاتها . فكانت نتيجة هذا الحلف بين الدول الاوروبية الراغبة في التخلص من نابوليون من جهة ، والشعب الفرنسي التعب من حروب سيده ومطامعه وطغيانه من جهة ثانية ، كانت النتيجة ان تألبت جيوش انكلترا والمانيا والنمسا وروسيا على الجيش الفرنسي فاضاع نابوليون في واترلو كل الامجاد التي احرزها في نضال دام اربع عشرة سنة . فاجمع رجال السياسة والحرب في فرنسا وعلى رأسهم الداهية « تاليران » على الارتماء في احضان الحلف الاوروبي ، وكان ما كان من خلع نابوليون وعودة الملكية .

الواقع التاريخي يسجل ان العهد الامبراطوري كان عهد طغيان واستبداد . فالطبقة الارستوقراطية التي قضت عليها الثورة استبدلت بها طبقة ارستوقراطية ثانية لم تكن خيراً من الطبقة الارستوقراطية الملكية . والبوليس السري الملكي استبدل به بوليس سري امبراطوري . والاسراف والتبذير في قصور الملوك وبلاطاتهم لم يكونا اقل من الاسراف والتبذير في قصر الامبراطور وبلاطه . وغلاء المعيشة والفقر اضنكا رعايا الامبراطور كما اضنكا رعايا الملك . هذا فضلا عما سببته حروب الامبراطور من تقتيل وتجويع وتشريد . كل ذلك اشباعاً لمطامع رجل فرد لم يكن يعرف الشبع ، ففيما كان بونابرت يكيل المديح للشعب الفرنسي ويكثر من تمجيده والتودد اليه كان هذا الشعب يقاسي الحرمان

والمصائب والويلات مما جعله يسأم الحروب ويؤمن بان الاستمتاع بالحرية التي وعدته الثورة بها لا يزال في حاجة الى كثير من النضال . وهكذا لم تمت الجذوة وظلت البذور الصالحة دفينة في الارض بانتظار حراث امناء مخلصين .

١٨. الردة الرجعية

ما كادت اوروبا تتخلص من نابوليون حتى اخذت تفكر في القضاء على الروح الشعبية التي اطلقتها الثورة الفرنسية . فبعد خلع الامبراطور ونفيه اعادت اوروبا الملكية الى فرنسا، وبقيت هذه الملكية البوربونية العوبة بيد دول الحلف الاوروبي الذي قهر نابوليون . وكان يتزعم هذا الحلف الاوروبي بالاسم القيصر الروسي اسكندر ، غير ان النجم الساطع في السياسة الاوروبية في ذلك الوقت كان الداهية النمساوي «ميترنخ» . واذ كان القيصر رجلا تقياً ورعاً ساذج النية والقصد استطاع ميترنخ بالاتفاق مع احلافه الانكليز الذين حبلت بهم امهاتهم دهاقنة سياسيين والوزير الفرنسي «تاليران» الحاقد على نابوليون وعلى مبادىء الثورة ، والذي لا يقل دهاء عن زميله النمساوي مع حفظ النسبة بين داهية غالب وداهية مغلوب، استطاع ميترنخ ورفاقه ان يقلبوا الاوضاع الشعبية التي بدأ بتقويضها نابوليون .

كان لا بد اذن للحلف الاوروبي بعد التخلص من نابوليون ان يعقد مؤتمراً لاقرار السلم . والمؤتمرات كانت وما تزال تعقد تحت ستار العمل في سبيل السلم . دجل سياسي تقليدي سداه ولحمته الخداع والنفاق الدولي . فوقع الخيار على مدينة فينا عاصمة الامبراطورية النمساوية لتكون مقراً للمؤتمر . وهو اختيار يدل بداهة على ذكاء ميترنخ ودهائه .

من هذا المؤتمر برز الى الوجود « الحلف المقدس » . لقد صورت للقيصر

الروسي احلامه ان في وسعه اعطاء العالم سلماً دائماً ، وكان في تصوراته خيالياً الى ابعد حد . وقال قائل ان القيصر وقع تحت تاثير ساحرة المانية الاصل وزوجة ديبلوماسي روسي ادخلت في عقله ان باستطاعته ان يكون بطل السلم العالمي، فاكتفى في بساطته وتقواه بحمل لقب قيصر السلام، تاركاً للدهاة السياسيين ميترنخ وتاليران وملك بروسيا ووزراء انكلترا مهمة تنسيق السياسة العالمية . فاحتفظ اولئك للقيصر بالزعامة ولقب الفخر بينما راحوا يوطدون معالم الرجعية في اوروبا التي كادت تقضي عليها الثورة الفرنسية لولا مغامرات نابوليون .

كان همّ اولئك السادة ان يقتلعوا الفكرة التي قامت عليها الثورة الفرنسية فبدلوا في حدود الممالك ، واقتطعوا من هذه ، وضموا الى تلك ، ووسعوا سلطة الملوك واعادوا اليهم حق الوكالة عن السلطة الالهية ، وجردوا الفرق البوليسية للتجسس حتى اصبحت الحال في بداية القرن التاسع عشر كما كانت في القرون الوسطى . لقد استغل مؤتمرو فينا الرعب الذي كان مستولياً على الشعوب على اثر الحروب النابوليونية ، وتذرعوا نفاقاً ورياء برغبة الشعوب في السلام والهدوء والسكينة ، فباعوا الناس سلماً مذلا لم يعش طويلا مقابل ثمن باهظ دفعته الشعوب من حرياتها وكرامتها . كانت هذه الفترة قاسية جداً على الامم ، تحطمت فيها الامال التي انعشتها وغذتها الثورة الفرنسية في الشعوب ، وعاد الحكم الاستبدادي الى سابق عهده ، وطغت موجة من الارهاق والارهاب على كل من تسول له نفسه منازعة السلطات الحكومية قولا او عملا . وبينما كانت الحكومات الاوروبية تشجع رجال الفكر الاحرار في مقاومتهم الجنون النابليوني ، انقلبت عليهم بعد التخلص منه ، لتجرد حملة اضطهادية قتلا للفكرة التي كانت بالامس تشجعهم عليها. هو جشع الحكام الذي تعب الزمان في مقاومته وهو ما يزال الى الآن يعارك الزمان . ولا بد للتفاعل الفكري التطوري من ان يتغلب عليه في الجولة الاخيرة .

رأت الردّة الرجعية ان تستعين بالسلطة الروحية على كبت الروح الوثابة في

الشعوب فاعادت الى الكنيسة سلطانها ونفوذها ، وانبرى رسل الكنيسة يبثون في الناس تعاليمهم الهادفة الى توطيد سلطة الملوك ، وخرجت الجزويتية من مخابئها بعد ان مضى على تحريمها من البابا كليمنت الرابع عشر مدة خمسين سنة ، واستعادت نشاطها السابق لتبشر بالطاعة والخضوع للملوك « الاتقياء » ولحكوماتهم التي تستمد في زعمها سلطانها من الله ، وجارت الكنيسة البروتستانتية وسايرت زميلتها الكاثوليكية نزولا عند رغبة الملوك والطبقات الحاكمة ، كما جارتها ايضاً الكنيسة الارثوذكسية في روسيا منطقة نفوذها . فاذا كان من الدين ما هو مادة افيونية فلماذا لا يستعينون به على تخدير حيوية الشعوب ؟

جاء الحلف المقدس الذي نشأ عنه مؤتمر فينا تكملة لنظام تسوية امور العالم ومشاكله بواسطة معاهدات تعقدها الدول بعضها مع بعض . وقد لا نكون مخطئين اذا قلنا ان المعاهدات بين الدول لم تكن يوماً اكثر من تسويات موقتة بين المتعاقدين .

عندما يراجع المرء في ذاكرته جميع المعاهدات التي عقدتها وتعقدها الدول بعضها مع بعض ، لا يرى في واحدة منها حلا اساسياً للمشاكل التي تتخبط بها الشعوب . ذلك لان اقطاب الدول من عسكريين وسياسيين ، متى اجتمعوا لعقد معاهدة على اثر حرب ما ، حصر المنتصرون منهم مقاصدهم في الحصول على اكبر قدر من المغانم ، بينما يحصر المنهزمون مقاصدهم في التخلص ما امكنهم من الاجحاف الذي يلحقه بهم المنتصرون . وهكذا تأتي المعاهدة تكملة للحرب التي دارت بين الخصوم . في كل مادة من موادها بادرة من بوادر العسف والتحكم من قبل المنتصر ، وبذرة من بذور التربص والحذر والميل الى الانتقام في الجانب المغلوب . حتى المعاهدات التي تعقد بين الدول ذات المطامع التوسعية في زمن السلم والتي يصفونها كذباً ورياء بانها معاهدات صداقة ومساعدة متبادلة ، حتى هذه تحمل في طياتها مقاصد عسفية مموهة بتعابير منمقة ، تارة بين الدول المتعاقدة نفسها ، ولا سيما اذا كانت غير متساوية في القوة ، وتارة بين هذه الدول مجتمعة والدول الخارجة عنها

فلم يسجل التاريخ حتى الآن نبأ معاهدة واحدة خلت من مضامين طالما كانت سببا لاثارة الحروب . ولم يسجل التاريخ نبأ معاهدة واحدة تهدف اولا وآخراً وقولا وعملا، لاقرار السلام العالمي، مع العلم ان كل معاهدة تبدأ فذلكتها باظهار رغبة المتعاقدين في السلام . رياء سياسي لا يقصد منه غير الخداع والتضليل . . .

لم تشذ المعاهدة المعقودة على اثر مؤتمر فينا عن القاعدة التقليدية التدجيلية . ولم يكن الحلف المقدس الذي اعلنته الدول المنتصرة وطبلت له دعاياتها ، على شيء من القداسة . وانما كان حلفاً مبيتاً لاغراض دعايات تهدف في الدرجة الاولى الى مقاومة الحركة التحررية في الشعوب .

ولكن هذه الردة الرجعية التي تجلت في مقررات مؤتمر فينا ، ككل حركة رجعية ، لم يكتب لها طول العمر . فالشعوب المستعبدة التي تسربت اليها روح الثورة الفرنسية ، ساءها ان يكرس هذا المؤتمر استعباد الملوك والحكومات لرعاياهم ويشجعهم عليه ، فبدأت تتململ من جور الاستعمار الاوروبي ، وتوالت الثورات في مختلف البلدان الرازحة تحت نير هذا الاستعمار . فكانت شعوب اميركا الجنوبية اول الشعوب التي خلعت نير اوروبا عنها ، مستعينة بشقيقتها الكبرى الولايات المتحدة الاميركية ، ورأت هذه ان الفرصة سانحة لابعاد اوروبا عن القارة الغربية الجديدة ، فقام رئيسها « منرو » يعلن عام ١٨٢٣ مبدأه الرامي الى عزل اوروبا عن الشؤون الاميركية ، محذراً دول الحلف المقدس بان كل محاولة من قبلها يقصد منها فرض سيطرتها على اي قسم من القارة الاميركية تعتبر مساساً بسلامة اميركا والولايات المتحدة وعداء لها . فاضطرت دول الحلف المقدس تجاه هذا التهديد المضمن الى الاعتراف باستقلال دول اميركا الجنوبية والمكسيك .

وفي اوروبا نفسها طغت موجة التحرر على الشعوب المستعبدة ، وكانت اليونان البادئة . فبعد ثورة دامية دامت اكثر من ثماني سنوات ، استبسل فيها الشعب اليوناني وريث الاغريق القدماء الخالدين واشترك فيها متطوعاً شاعر الانكليز

الاكبر « اللورد بيرون » استطاعت اليونان ان تشتري بدم ابنائها استقلالها وتحررها من النير العثماني . ومما يجدر ذكره ان اليونان في نضالهم هذا وجدوا لهم حليفاً قوياً في الخلاف بين اعضاء مؤتمر فينا . الم نقل ان المؤتمرات والمعاهدات التي تنبثق منها ما كانت ولن تكون اكثر من تغطية لغايات معينة وموقتة . . .

لسنا هنا في مجال التبسط في حوادث التاريخ التي وقعت في النصف الاول من القرن التاسع عشر . ولكن ما لا بد من تسطيره وتسجيله ان السنوات الخمسين التي عقبت مؤتمر فينا كانت ملأى بالثورات الاستقلالية في اوروبا . فانفصلت البلجيك عن امها هولندا ، وعاد الشعب الفرنسي الى الثورة مرة ثانية فخلع ملكه لويس فيليب عام ١٨٤٨ معلناً الجمهورية الثانية التي لم تعش اكثر من أربع سنوات بفضل مطامع نابوليون الثالث الذي ورث عن عميد الاسرة النابوليونية حب المجد . فقلب الجمهورية الى امبراطورية وانتقل من الرئاسة الى العرش حتى نزلت به ويلاده كارثة ١٨٧٠ فخلع على اثر الكارثة واعلنت الجمهورية الثالثة . وسرت عدوى الثورة الى المانيا التي وجدت في بسمارك قائداً استطاع ان يوحد دويلاتها في اتحاد الماني مستقل . وقيض لايطاليا رجل داهية هو «كافور» الذي جاهد مع رفيقه « غاريبالدي » مغتنمين فرصة حرب القرم وقيام فرنسا وانكلترا بوجه مطامع روسيا، لينتزعا بلادها من حكم آل هبسبورغ ويجعلا منها دولة مستقلة.

وهكذا نرى ان مؤتمر فينا الذي وعد العالم بسلم دائم قد حرك الشعور القومي في البلدان الاوروبية كلها فانهارت الاحلام الخداعة التي صورها للناس الحلف المقدس . وكان هذا الانهيار مقدمة لبعث التيار القومي الاستقلالي في العالم. وسنرى في الفصول التالية كيف استغلت الدول هذه «القومية» لاضرام الحروب فيما بينها ، وكل منها تدعي ان قوميتها هي الفضلى وان عنصريتها هي العنصرية المتفوقة والاكثر كفاءة للبقاء .

١٩. التقدم العلمي

في حضارة القرن التاسع عشر

اذا كان لا بد من اعطاء سمة خاصة لكل قرن في التاريخ يعرف بها ، فبوسعنا ان نطلق على القرن التاسع عشر اسم عصر العلوم . ففي غضون هذا القرن استطاع العقل البشري ان يكشف عن مكنونات الطبيعة وخفاياها ويفضح اسرارها كما استطاع اكثر من اي قرن آخر ان يخضع لمشيئته عواملها وتياراتها .

لم يقنع ابن القرن التاسع عشر بما اورثه اياه آباؤه من آلات بخارية لصناعته وتجارته واسفاره ، فانتزع من الطبيعة قوتها الكهربائية ، ليجعل من ليله نهاراً ، واخترع له معاصروه « فرنكلين » و « كالفن » و « فولت » و « داي » و « امبر » و « فرادي » مولداتها لكي يدير بواسطتها محركات معامله ويزيد انتاجه منها . وعندما عيل صبره من الانتظار الممل لمخابرة زملائه وعملائه في الاقطار البعيدة عنه ، قدم له « صموئيل مورس » جهازاً ينقل له مراسلاته على اسلاك ممدودة في الفضاء وتحت البحار ، ويوفر عليه وقتاً تستلزمه المخابرات البريدية ، وتمكنه من معرفة ما يجري في العالم يوماً فيوماً . « تكتكات » تنطلق من غرفة ضيقة لتبعث صداها على « تكتكات » مثلها في غرفة ضيقة ايضاً عبر البحار والاقطار ، فتنقل اخبار الغرب الى الشرق واخبار الشرق الى الغرب ، وتعرّف بورصة لندن اسعار بورصة نيويورك ، ويقف الانكليزي او الفرنسي على ما يقوله الاميركي في مجلس الشيوخ او على ما يقوم من حركات ثورية في روسيا ، ولا تفوت العالم شاردة من شوارد

الصين واليابان ولا يبقى سراً ما يجري في بلاط عبد الحميد ودهاليزه .

ان اكتشاف التيار الكهربائي فتح باباً لعلماء القرن التاسع عشر للقيام بثورتهم على الوقت . فلم يمض خمس وعشرون سنة على اختراع التلغراف حتى تقدم «كراهام بل» بجهازه العجيب « التلفون » ، جهاز يوضع في اصغر زاوية من زوايا البيت او المتجر او المعهد ، اذا وشوشت في بوقه الصغير تنتقل وشوشتك على موجات الاثير فيلتقطها محدثك البعيد عنك على سماعة من جهازه وهو لا يزيد حجمه عن حجم جهازك الذي توشوش فيه ، فتتبادل معه الحديث ، من فمه الى اذنك ومن فمك الى اذنه رأساً . وفي غضون العشر السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر ظهر الى الوجود التلغراف اللاسلكي ، الذي يتنازع فضل اختراعه عالمان ، احدهما « ماركوني » الايطالي ، والثاني « بوبوف » الروسي . ولعل المصادفة قد وجهت هذين العالمين الى هذا الاختراع في وقت واحد ، دون ان يكون للواحد معرفة بما يعمل الآخر . وربما كان ابتعاد روسيا عن العالم الغربي الاوروبي ، وانكماشها التقليدي على نفسها ، وتنكر الحضارة الغربية لها الدافع الاكبر لتتويج ماركوني على عرش اللاسلكي وانكار فضل بوبوف او تجاهل حقه فيه . اذ حتى في العلم والاختراع لا يعدم غول التعصب مجالا يعمل فيه . . .

وبينما كان هؤلاء العلماء يخضعون الطبيعة لارادتهم ، كان زملاء لهم يعنون باكتشافات اخرى اكثر فائدة من الناحية الانسانية . لقد هال هؤلاء ما تقاسيه البشرية من آلام وامراض واوبئة فتجندوا لانقاذها منها . سبروا غور المرض ورأوا من بعيد ان في الطبيعة عدواً للانسان والحيوان والنبات ، وان هذا العدو هو ذو حياة ايضاً ، يتسلل من ضحية الى ضحية . هو طفيلية حية تفتك بالحياة . عرفوا مضارها قبل ان يثبتوا حقيقتها ، فعمدوا الى مقاومتها بتسليط مواد قاتلة عليها . هكذا فعل الجراح « لستر » الانكليزي في مقاومة التعفن في عمليات الجراحة . وهكذا فعل الطبيب « سميلولي » لمقاومة التعفنات النفاسية . وكان الطبيب « جنر » اكثر جرأة عندما اخذ المواد الصديدية من بثور الجدري

ولقح بها الابقار فاصيبت ابقاره بداء الجدري ، ثم اخذ من بثورها ولقح بها الاصحاء من الناس ليكسبهم مناعة ضد وباء الجدري المخيف . ولكن لا لستر ولا سميلولي ولا جنر استطاعوا معرفة كنه ذلك العدو الخطر الذي نسميه ميكروباً والذي ظل مجهولا حتى قام باستور ذلك البطل من ابطال القرن التاسع عشر . كان يصل ليله بنهاره في البحث عن هذه الطفيلية الخبيثة ، متحملا سخرية زملائه العلماء واضطهاد بني قومه وسلطات ذلك العهد ، ولم يتقدم الى نصرته الا ذلك الجراح الانكليزي لستر الذي وجد في اكتشافه ضالته المنشودة . ومذ ذلك التاريخ لمع اسم باستور قاهر الميكروب ورجل الانسانية الاول . ان في التاريخ لصفحات خالدة لرجال خالدين ، انما يبقى اسماها على الاطلاق تلك التي كتبها باستور بجهاده وتضحيته واخلاصه .

في كل حقل من حقول الطب والصحة كان يعمل حراث انسانيون . « كلود برنارد » و « براون سيكار » الفرنسيان ، و « بافلوف » الروسي كشفوا الستار عن فعالية الغدد في الجهاز الهضمي والدموي . فتوحات باستور فتحت الطريق « لكوخ » وايبرت ، ونيسر ، ولافران ، وارلخ ، وغيرهم الى البحث عن الطفيليات الخبيثة ناشرة الاوبئة الفتاكة . كانت الجراحة اشبه بجزارة والجراحون اشبه بجزارين قبل ان يبين « لمورتون » و « سمبسون » عام ١٨٥٠ إمكان تخدير المريض اثناء العملية بواسطة تنشيقه الاثير او الكلوروفورم . ان الجراحة لم تصبح فناً علمياً الا عندما صار في وسع الجراح ان يجري عمليته على المريض بسكينة وراحة دون ان يشعر المريض بالم المشرط . فاذا اضفنا اهمية التخدير الى اهمية التعقيم ادركنا قيمة الخطوة الكبرى التي خطاها الفن الجراحي بعد منتصف القرن التاسع عشر .

لم يكتف علماء ذلك العصر باخضاع عوامل الطبيعة واسرارها للعقل البشري ، بل تعدوها الى ما وراء الطبيعة ، فقام منهم منازعون للقدرة الالهية التي لم يتجاسر احد على مس قدسيتها قبل ذلك الزمن ، وانكروا عليها حتميتها وانفرادها

بالتحكم بالحياة والنمو ، وجنحوا الى المادية ، واستخلصوا منها فلسفتهم في التحول والتطور وتنازع البقاء في عالم النبات والحيوان والانسان ، وقالوا ان الانسان لم يخلق انسانا انما صار انسانا عن طريق التحول والتدرج وان النفس والعقل والادراك ما هي الا صفة من صفات المادة وتفاعلاتها . ومع ان « دارون » لم يكن اول من قال بنظرية التطور ، فانه كان اول من بنى نظريته على البحث العلمي والاختبار . فبعد ان قام هذا الرجل باسفار دراسية اختبر اثناءها طرق النمو في الحياة النباتية وتحول الانواع ، طلع بنظريته القائلة بان الاصطفاء الطبيعي هو العامل الاساسي والاهم في تحول النوع . لقد جاءت نظرية دارون فاتحة لمعركة حامية الوطيس بين الداروينيين والالهيين ، ولا سيما بعد ان اتسعت وخرجت من النطاق البيولوجي المحض لتكون دعامة من دعامات الفلسفة المادية المعاكسة للفلسفة الحتمية التي بعثها فلاسفة اليونان والرومان والديانات الالهية ، وتطور الصراع بين الفلسفتين الى صراع طبقي اجتماعي سياسي .

لقد كانت نظرية دارون في الاساس ثورة بيولوجية ، رآها الالهيون نذير خطر على تعاليمهم وميتافيزيقيتهم وبالتالي على نفوذهم ، فكفرتها الكنيسة وعدتها تعدياً على المشيئة الالهية ، وشنت عليها حرباً لا هوادة فيها ، ونسبت الى دارون واتباعه الكفر والزندقة . وعندما تبين للميتافيزيقيين انه لم يعد لهم مناص من الاقرار بحقيقة الداروينية العلمية ، عمدوا الى تفسيرها تفسيراً يحاولون ان يجعلوه متلائماً مع ميتافيزيتهم . ولكن المدرسة الداروينية كانت تقف لهم بالمرصاد حتى بعد موت معلمها ، فراح هؤلاء الرسل ينشرون تعاليمها ويستخلصون منها خطأ النظريات العلمية القديمة المنبثقة من الحتمية الجامدة . كانت الوراثة في مفهوم انصار الحتمية (ماندل ، وايزمن ، مورغن) اشبه بعملية حسابية . واذا صح هذا المفهوم كان معنى ذلك ان الجنس يبقى خاضعاً للحتمية وغير قابل للتحول لان ما يطرأ على الجسم من تغير بسبب شروط الحياة ومكيفاتها وما يكتسبه من صفات وخصائص غير قابل الوراثة . ان نظرية ماندل في الوراثة قائمة

على وجود مادة وراثية خاصة قابعة في نواة الخلية (الكروموزوم) وان المادة الغذائية في الخلية لا تأثير لها في النواة الوراثية . وذلك يعني ان هذه المادة الوراثية والكروموزوم القابعة فيه مستقلان تمام الاستقلال عن جسم الحي وشروط وجوده وعن كل ما يكتسبه هذا الجسم من جديد عن طريق التغذية او التحسين ، وان كل تغير يأتي مع الزمن ينحصر في الكمية وليس في النوع . وهذا ما دفع العالم البيولوجي الروسي « متشورين » الى مناهضة النظرية الماندلية لعدم انطباقها على النظرية الاساسية الداروينية ، اذ اثبت هذا العالم ومدرسته ان باستطاعة العلم ان يطوع الطبيعة ويغير عوالمها عن طريق تحسين شروط الحياة وتكييفها لتحسين الجنس بل بالاحرى لتغيير نوعيته . وهكذا فرض متشورين على العلم ان يسعى دائماً الى تطوير النوع بحيث لا يترك للزمن وحده هذا العمل . ومن اقوال متشورين : « لا يكفي ان ننتظر من الطبيعة منحها ، بل المهم ان نتنزع منها هذه المنح » .

تميزت حضارة القرن التاسع عشر بالتقدم العلمي والادبي والفني والاقتصادي . العلماء اشتغلوا في كشف اسرار الطبيعة والبحث عن الحقيقة . والادباء والكتاب والشعراء والفنانون سكبوا مشاعرهم في قوالب مختلفة خلعت على المجتمع حيوية ما عرفتها المجتمعات السابقة ، وعبروا عما يخالج كلا منهم من غبطة او ألم وتحسس بالاوضاع التي كانوا يعيشون فيها . في روايات تولستوي ودوستويفسكي واشعار بوشكين يتجلى لك الألم الذي كان يعانيه الشعب الروسي من حكامه واشرافه ، كما تتجلى لك روح الثورة المكبوتة في فلاحيه وعماله وملايين الروسيين المضطهدين المستعبدين المهملين الحانقين . فيكتور هيغو في ملاحمه الشعرية وفي « بؤسائه » كان اكثر من اديب وكاتب ، كان فيلسوفاً اجتماعياً ورسولا من رسل التحرر . « غوتي » كبير كتاب الالمان شغل عصره بانتاجه الادبي والفكري والعلمي وترك لما بعد عصره خزانة عامرة بالابحاث الفلسفية العميقة الغور . « بيرون » الشاعر المغامر المعشاق الهب الحماسة في صدر امة قلما تستفزها الحماسة .

« بيتهوفن » و « شوبان » و « تشايكوفسكي » وقعوا الحانهم وسيمفونياتهم على اوتار الآلات الموسيقية ليحركوا بواسطتها اوتار القلوب . هـذا التقدم العلمي والادبي والفني جعل لحضارة القرن التاسع عشر طابعاً خاصاً تميز بها اكثر مما تميز بمغامرات نابوليون ، ودهقنة ميترنخ وبسمارك ، ومؤتمرات السياسة ومعاهدات حكومات اوروبا الميكيافيلية .

لكن ألا يخشى ان سلك الأدب هذا المسلك ان ينزلق الى التحليلات الجافة وانواع الجدل والوعظ والارشاد فينكر طبيعته الفنية ويفقد أدبيته ؟

وبينما هناك من يذهبون الى تحرير الأدب من كل نفعية "إذ لا غاية للأدب الا الأدب"

لا بد يجب في رأي هو لاء ان يتحرر الأدب من ربقة الهموم التعليمية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية

كذلك يجب ان يبتعد الأديب عن مشاكل العالم في عمله ليكرس عمله الفني فلا شغل شاغل .

ويذهب بعضهم الى ان يترفع الأدب عن مشاغل الحياة اليومية فلا يتطرق الى الابتذال ويزول الأقذار التي تؤذي الذوق .

ولا يجوز له ايضاً ان يتحول الى بوق دعاية رخيصة للفئة التي ينتمي اليها .

ليبقى الأدب أدباً إذا استوفى كل القضايا التي يعالجها صفة انسانية شاملة ، وحافظ على الوقت نفسه على مقومات الفنية .

٢٠. التقدم العلمي

في خدمة الاقتصاد الاستعماري

لقد اطلقنا على القرن التاسع عشر بحق اسم عصر التقدم العلمي. وقد لا نخطىء اذا اطلقنا عليه ايضاً اسم عصر التقدم الاقتصادي والاستعماري. ان الدول الاوروبية وشعوبها التي بلغت شأواً من العلم والادب والفن والاكتشاف لم تبلغه غيرها من الدول والشعوب، افادت من ميزتها هذه، فعمدت الى استقلالها، وطمحت الى توسيع نفوذها في العالم استدراراً للكسب عن طريق التوسع الاستعماري والحروب. اوروبا معقل العلم والفن والاختراعات، يجب ان تحكم العالم وتحتكر خيراته وتستخدم شعوبه. ولكي يكون لها ذلك يجب ان يبقى العالم غير الاوروبي متأخراً عن عالمها. فالاستعمار لا يقوم الا على شرطين اساسيين يمشيان يداً بيد، والا فقد التوازن الذي لا بد منه في هذه العملية، وهما رقي الدول المستعمِرة وتأخر الشعوب المستعمَرة.

لو لم تكن القارة الاوسترالية، لكانت اوروبا هي الصغرى بين قارات العالم. ولكن اوروبا هي التي بنت السفن وطوعت البحار، وقربت الابعاد، وهي التي اكتشفت المجهول في العلم، واخترعت الصناعات وادركت منافعها، واستدرت منها غناها، وبنت عليها مجدها.

ومن قديم الاجيال كان الشرق الكبير قبلة انظار اوروبا الصغيرة. الشرق هذا الغارق في الروحانية، كثير الخيرات والكنوز. فلماذا لا تتخذ اوروبا من

هذه الروحانية وسيلة لاستثماره ؟ فاذا كانت الروحانية تمنعه من استثمار نفسه فليس صعباً على اوروبا ان تستعير من الشرق روحانيته فتحالفها مع مادية علومها وفنونها لكي تفتح لها هذه المحالفة باباً مغلقاً على كنوز تسيل لها لعابها .

مما لا شك فيه ان الروحانية المسيحية التي اخذتها اوروبا عن الشرق هي اقل انواع الروحانية معارضة للتطور التقدمي والاجتماعي والاقتصادي . والروحانية المسيحية استقرت في الغرب اكثر من استقرارها في الشرق ، فعرف الغرب كيف يستخدمها باخراجه اياها عن الميدان الروحاني الصرف الى الميدان العملي الصرف . فاستعان بتعاليمها ومثاليتها على توسيع نفوذه في اقطار المعمورة . كان في استعماره للشرق يحمل بيده الواحدة انجيل الروحانية بينما يحمل في يده الثانية مغرياتها من العلوم والفنون والاقتصاد . ولقد طالما اهمل مثالية الانجيل مقدماً عليها المغريات ، اذ كان رائده تحبيب نفسه الى الشرق ليأخذ منه اكثر مما يعطيه .

نحن لا ننكر على الغرب حسناته ولكنها حسنات ملازمة حتما لكل تفاعل بين الامم مهما كان المقصود منها . انما كانت هذه جرعات مخدرة لا اكثر ولا اقل . قال الغرب للشرق : خذ بعض العلم ، وتمتع بقسط من العيش والرفاه ، وليحظ افراد منك قلائل بشيء من الغنائم ، ولتكن لهؤلاء السيادة الشكلية على اقوامهم لكي يساعدونا نحن الغربيين على بسط سيادتنا المطلقة على قطاعاتك الواسعة ، نستثمرها ونعطي شيئاً منها للاقطاعيين ولمن يسمون انفسهم زعماء ، وسمهم يا شرق ما شئت ، ملوكاً او امراء او مهارجة ، لهم علينا حق ، ولنا عليهم حقوق . حقهم علينا مساعدتهم على اخضاع شعوبهم لهم ، وحقوقنا عليهم التقيد باوامرنا وتسهيل مهمتنا الاستعمارية لاستثمار مرافق البلاد التي اقمناهم حكاماً وهميين عليها...

هكذا اقتسمت اوروبا الشرق . لبريطانيا الهند وبورما وجنوبي افريقيا ومصر والسودان وقطاعات مبعثرة في آسيا وافريقيا . ولفرنسا الهند الصينية والجزائر ومراكش وتونس ومدغسكر وقسم من صحاري السودان ومستعمرات اخرى

مبعثرة هنا وهناك. ولالمانيا قطاعات في غربي افريقيا وجزر الباسفيك . ولايطاليا طرابلس الغرب وبعض الصومال . ولبلجيكا الدويلة الاوروبية الكونغو . ولهولندا الدويلة ايضاً جزائر الهند التي تفوق بمساحتها وعدد سكانها هولندا الام بعشر مرات . ولروسيا القيصرية سيبيريا وبعض قطاعات في آسيا الوسطى . على ان اوروبا لم تكتف باستملاك البلدان الافريقية والاسيوية ، وانما اقتسمت النفوذ في الاقطار الاخرى التي لم تستطع استملاكها . فالاستعمار له اوجه عديدة ، منها التملك ، ومنها الحماية ، ومنها الانتداب او الوصاية . الفاظ مختلفة بمعنى واحد وغاية واحدة .

ومما يجدر ذكره ان الدول المستعمرة كانت تختلق الاعذار المختلفة لبسط سيطرتها على البلدان المستعمرة . وكثيراً ما استعانت بالدين لبلوغ غايتها . كانت ترسل الى هذه البلدان مرسليها ليبشروا الشعوب بالدين المسيحي بغية خلاص نفوسهم وضمان آخرتهم (كذا) فكان هؤلاء يتوغلون في داخل البلدان ويخالطون سكانها الوطنيين . وكان لا بد احياناً من وقوع اعتداء عليهم من اولئك السكان البعيدين عنهم كل البعد من حيث العادات والتقاليد والتربية فتهتز لذلك دوائر الدولة التي ينتمي اليها المرسلون المعتدى عليهم ، فتقوم وتقعد وتزمجر ، ثم تجيش جيوشها لتأديب المعتدين بحجة حماية رعاياها المرسلين والمحافظة على ارواحهم . ولقد طالما اقترفت هذه الجيوش الجرائم الاجتماعية انتقاما لجريمة فردية لو فتشت عن اسبابها لتبين لك انها ما كانت لتقع لو لم يسبقها استفزاز مقصود لغرض مقصود . هو الاستعمار لا بدّ له من مهيئات ، فلماذا لا يكون الدين احداها .

ثم هذه الصناعات الذاهبة صعداً في اوروبا ، وهذه المعامل العامرة في مدنها وقراها ، من يشغلها ، ومن اين تستورد موادها الخام واين تصرف منتوجاتها ، واوروبا الثانية في الصغر بين قارات العالم ليس فيها من المساحات ولا المنابع ولا الزراعة ما يكفي لتشغيل هذه المصانع ، وسكانها لا يشكلون سوقاً كافية لتصريفها .

فليأخذ الاستعمار اذن هـذه المهمة المزدوجة على عاتقه ، استيراد المود الاولية من مصادرها ، واعادة تصدير المصنوع منها الى المصادر نفسها ، مقابل اسعار تفوق عشرات المرات اسعار مشتراهـا ، فتغني الدولة المستعمرة على حساب الشعب المستعمر . واذا كان لا بد من ابقاء الشعب المستعمر على فطرته لكي يشتغل في ارض يستثمرها غيره ، فلتمخر البواخر والبوارج عباب البحور ، في نقل الجيوش الفاتحة وحمل البضاعة الرابحة ، وليحرص المستعمِرون على ابقاء المستعمَرين في جهلهم وخـلافاتهم الدينية والقبائلية لكي يسهل استعبادهم واستخدامهم . المهم ان يبقى هؤلاء قانعين بالكفاف وما دون الكفاف ، لكي ينعم مستعمروهم بالرفاه ، فيدخل في خلد الطرفين ان الشعوب منها السيد ومنهـا العبد . ميزة مصطنعة لا تمت بصلة الى النزعة الانسانية التي كان ولما يزل يتستر وراءها المستعمرون . الم تر كيف استمر الصينيون طول الاجيال يتعاطون الافيون ، ينهكون به قواهم ويخدرون به عقولهم واجسادهم ، والمستعمر يشجعهم على هذه العـادة القاتلة بحجة عدم التدخل في شؤونهم . لقد اثار على الصين حرباً شعواء باسم حرية التجارة عندما حاولت منع البواخر الاجنبية من حمل الافيون الى شعوبها . الم تر هذا التقاتل الطبقي في الهند الذي كان الركن الاول والاهم لاستعمار الهند مئات من السنين ؟ الم تر الاستعمار يعمل جاهداً للمحافظة على النظام الاقطاعي في البلدان التي يطمع بها لكي تكون عوناً له على اخضاع شعوبها ؟ الم تر كيف كان الاستعمار يحرص على تقنين العلم في المستعمرات ، لان العلم الكامل والتفتح من شأنهما تقويض اركانه . جولة في كل هذه البلدان ندرك منها قيمة هذا التعليم المقنن في معاهد اكثرها بدائية وطائفية لا اثر فيها للثقافة التقدمية الانسانية الشاملة . فاذا طمح احد ابناء المستعمرات الى ما هو اعلى وارفـع من العلم المقدم له في بلاده ، فاهلا به في معاهد لندره وباريس وبرلين ومدريد وروما . من هناك يتزود العلم ويتزود معه المبادىء التي يرغب في تصديرها المعلمون والمربون والتي لا تتنافى مع تصاميمهم الاستعمارية .

ولكن في العقل البشري جذوة كامنة ، مهما سعى الانسان لكبتها ، فلا مفر من اشتعالها يوماً لتحرق نارها الهشيم اليابس المرصوص . ناموس من نواميس الطبيعة ، اذا تسلط عليه الانسان الى زمن ، فمن غير المعقول ولا الطبيعي ان يتسلط عليه الزمن كله .

غاندي رسول الهند وقديسها ومحررها ، تلقى علومه في جامعات لندن عندما كان الانكليز يحكمون الهند حكماً مباشراً استعمارياً . ولكن غاندي هذا بالذات حرر الهند من الانكليز . ان غاندي هو المثل الاعلى لمحرري الشرق من استعمار الغرب . ولقد طالما اقتدى به ابطال التحرر في البلدان المستعبدة . قد يقال ان مثل غاندي يدل على ان الغرب لم يقف حاجزاً في وجه انطلاق الشرق بل بالعكس ساعد على هذا الانطلاق . ولكن ليس في وسع الواقع ان يدلل على ان مثل غاندي كان هو القاعدة انما كان من شذوذ القاعدة . نحن لم ننكر على الاستعمار حسناته القليلة ، ولكننا انكرنا ان تكون هذه الحسنات مقصودة . ولطالما نتج عنها رد معاكس من جانب المستعمرين الذين علموا افراداً كغاندي ثم تبعوهم الى اوطانهم لكي يضطهدوهم ويشردوهم ويسجنوهم ويحدّوا من تأثيرهم على الجماهير القانعة بالجهل المستسلمة للاقدار الغارقة في عبوديتها للاسياد الاصليين من الاجانب ووكلائهم وعملائهم من الوطنيين . ان من يتتبع تاريخ القرن التاسع عشر لا تفوته ملاحظة ان التوسع الاستعماري كان هدف الدول الاستعمارية الاوروبية . ولقد طالما لجأت هذه الدول الى شن الحروب على الشعوب اذا طمحت هذه الى تحررها . والجدير بالملاحظة انه ما من حرب شنت من قبل هذه الدول الا وادعت الدولة الغازية انها انما تحارب بقصد حماية المثل الانسانية وتوطيد اركان السلامة العامة وغير ذلك من اساليب النفاق الدولي والسياسي .

كان لكلمتي الشرق والغرب قبل العصر الاستعماري تحديد لفظي جغرافي وحسب . فاذا بهاتين الكلمتين بعد العصر الاستعماري تعنيان اكثر من ذلك . لقد اصبحتا ترمزان الى عالمين متباعدين في الفكر والروح اكثر مما هما متباعدان في

المسافة او في علاقة هذا وذاك بالنظام الشمسي . وكان من مصلحة الاستعمار ان تتسع الشقة بينهما . ومن تحصيل الحاصل الجزم بان الغرب ظل طوال العهد الاستعماري الذي ما زالت فلوله تناضل حتى زماننا هذا — يعمل في توسيع هذه الشقة مستنداً الى فلسفة عبر عنها الكاتب الانكليزي الاستعماري « كبلنغ » بقوله المأثور « الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا . »

لقد ادرك الغرب في نهضته ان الحياة على هذه الارض ليست مرحلة استعداد لحياة افضل بعد الموت كما تدعي الفلسفة الميتافيزية ، وان الوجود علم وعمل وجهاد في سبيل حياة احسن وانفع هنا في عالم الوجود لا في عالم الغيب . وعندما وعى الغرب هذه الحقيقة ، ولمس حسناتها واستهوته نتائجها ، دب فيه الشوق الى الشرق الغارق في هجوعه وروحانيته ، يلهو عن واقع محسوس بغيب مجهول ، يعيش في وهم الاساطير ، ينبشها من بطون تاريخه ليرضي بها كسله وقناعته في حياة جاحدة تواكلية . روحانية الشرق هذه هي السبب الاكبر والاهم في تأخره ، يسر بها الغرب ، ويساعد على تمكين اواصرها فيه ، لكي يترك له وحده المجال ، يسير قدماً ويتقدم صعداً ، فيكون له حق التحكم المطلق بمقدرات العالم هذا ، غير عابئ كثيراً بالعالم ذاك ، ادراكاً منه ان الفرق بين العالم هذا والعالم ذاك كالفرق بين الواقع والخيال . فللغرب الواقع وللشرق الخيال .

٢١. الطبقة الثالثة تتمخض

فتلد الاشتراكية

نعني بالطبقة الثالثة جميع الفئات الشعبية التي تكدح لتعيش . جميع الفئات التي لا يتوفر لها العيش الا بعملها وكدها واجتهادها . هي الفئات التي لا تفتح اعينها على ثروة ، ولا تعيش على امجاد اسلافها ، ولا تستثمر لقب غيرها ، ولا تنعم من شقاء الآخرين . الطبقة الثالثة هي العامل ، والفلاح ، والزارع ، والطبيب ، والمهندس ، والكاتب ، والفنان ، وكل من يعمل ليعيش . هي تسعون بالمائة من مجموع الشعب ، هي الشعب .

في عصور الاقطاعية كانت هذه الفئة مستعبدة لاسيادها الاقطاعيين . وعندما تحول سير الحضارة بفضل العلماء ، مخترعي الآلة البخارية والقوة الكهربائية ومكتشفي دوران الارض ، ومهندسي المراكب التجارية والحربية ، ومغامري الاسفار الشاقة ، انفتح الباب لفئة ثانية في الشعب رأت من خلاله مجالا للعمل والافادة من التقدم العلمي والصناعي والآلي ، فاستخدمته في التجارة والصناعة لتجني من ورائه الارباح اللازمة لرفاهيتها ولتحويل الحضارة الاقطاعية الى حضارة بورجوازية رأسمالية. فما لبث الاقطاعيون اللاهون عن الاخذ بالتقدم العلمي والصناعي بفروسيتهم وعنجهيتهم وبهرجة حياتهم ، ان وجدوا انفسهم في حاجة الى جماعة الصناعيين والرأسماليين والتجار ، يستدينون منهم الاموال للمحافظة على تراثهم ما امكن . غير ان تراثهم هذا اخذ بالانكفاء تجاه سلطان المال والعلم . فكانت ولادة

الطبقة الثانية البورجوازية ، التي ما ان ولدت وترعرعت ، حتى انتزعت من الطبقة الاولى مكانتها ، ثم ما عتمت ان اصبحت صاحبة النفوذ الاكبر في تسيير دفة الامور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فدخل نوابها المجالس واشتركوا بادىء الامر في سن الشرائع ، ثم انفردوا في وضعها ، وكان رائدهم دائماً احلال النفوذ المالي محل النفوذ الاقطاعي . وتلك خطوة لا بأس بها في طريق الديموقراطية .

غير ان دخول ارباب العمل والصناعة والتجارة في الحياة البرلمانية ، وما احدثه ذلك من تأثير في التشريع والسياسة والتحول الاجتماعي ، خلق مشكلة جديدة لم يكن منها مناص . فالطبقة العامة من الشعب المعروفة بالطبقة الثالثة ، والتي كانت لذلك الوقت مستعبدة من اسيادها الاقطاعيين ، لم تنج من استعباد الطبقة الثانية البورجوازية ، اذ وجدت نفسها تجاه اسياد جدد لتبقى هي على حالها البائسة ، على الرغم من سعي الطبقة الثانية لزخرفة حالة الطبقة الثالثة بالوان فاتنة لكنها شفافة وخادعة .

ان من يتابع مجرى الحوادث ويدرس تطورات المجتمع ، ويدقق في العوامل والاسباب الدافعة والنتائج الحاصلة ، يتبين له بجلاء ان البورجوازية هي وليدة الاقطاعية الطبيعية كما ان الاشتراكية هي وليدة البورجوازية الطبيعية . الاقطاعية خلقت البورجوازية مرغمة عندما وجدت انها بحاجة الى اموال التجار والصناعيين ومعلوماتهم ، فكان رجوعها اليهم سبباً لرفع شأنهم واعترافاً منها بحقوقهم ، هذه الحقوق التي كانت تتزايد مع الزمن والحاجة يقابلها في جهة ثانية تناقص من حقوق الاقطاعيين . والبورجوازية خلقت الاشتراكية ايضاً عندما رأت ان لا مندوحة لها عن محالفة « العمل » لتشغيل مصانعها وتوسيع تجارتها وتضخيم ارباحها. رأس المال بدون عمال لا يجني ، والارض بدون فلاحين لا تعطي اغلالا . والعمال والفلاحون اذا قنعوا بكفاف العيش في بداية المرحلة ، فليس معقولا ان يستمروا في قناعتهم بالزهيد ويتركوا لرأس المال ان ينعم وحده بالكثير . هم يرون ان السعة التي جاءت نتيجة لازدهار الصناعة والتجارة والملاحة ما كانت لو لم يكونوا هم . فمن

حقهم مشاركة رأس المال فيها . اذن في رحم البورجوازية الرأسمالية تكوّن جنين الاشتراكية، تماماً كما تكوّن جنين البورجوازية في رحم الاقطاعية . سلسلة تاريخية علمية لا يحتاج تفسيرها الى فلسفة وعبقرية .

الثورة الفرنسية قامت على سواعد ابناء الطبقات الشعبية الثالثة . هؤلاء هم الذين سفكت دماؤهم ، وهؤلاء هم الذين هدموا الباستيل وقوضوا اركان الملكية . فما ان هدأت الثورة حتى استأثرت بالحكم الطبقة البورجوازية وحدها . لقد حكمت باسم الشعب ولكنها لم تحكم لمصلحة الشعب وحولت حكم الشعب الى امبراطورية على رأسها امبراطور بدل الملك . هذه الفئة نفسها تآمرت على الشعب مع الدول الاوروبية التي قهرت نابوليون واعادت الملكية السابقة . غير ان روح الثورة بقيت تختمر في الشعب الفرنسي فقام بثورته الثانية ثم الثالثة . على ان الشعب بعد الثورة الثالثة لم يسلم كل مقدراته الى فئة الحكام ، فانشأ المجالس العمومية التي وقفت بوجه الحكام فساعدت هذه المجالس على انماء بذور الحركة الشعبية الاشتراكية حتى بعد القضاء عليها من جانب القوى الحكومية البورجوازية .

وعلى الرغم من ان الفكرة الاشتراكية ظهرت مع ظهور الديموقراطية وقيام النظام الاقتصادي ، فالاشتراكية العملية لم تظهر الى الوجود الا في الثلث الاول من القرن التاسع عشر . وقد كان ظهورها اولا في فرنسا وانكلترا في وقت واحد . « سان سيمون » و«فورنيه» و « برودون » في فرنسا ، واوين في انكلترا كانوا في طليعة المبشرين بنظام اشتراكي مستوحى من مبدأ الاخوة البشرية والعدل الاجتماعي وتوزيع الثروات ومنع الاحتكارات. نظام تشرف عليه مجالس مؤلفة من اصحاب العمل والعمال صلاحيتها توزيع الارباح على الذين يجنونها ، اي على اصحاب الرساميل والعمال ، اذ ان ذلك النوع من الاشتراكية لم يقل بالقضاء على رأس المال بل اكتفى باشراك العمل معه في الارباح ، توصلا الى عدم تجمع الثروات . وقام في المانيا اكثر من مبشر بالاشتراكية . وقد تكون المانيا اخرجت من هؤلاء المبشرين اكثر مما اخرجته بقية الامم . فمن « لاسال » الى « بيبل» الى «لينبخت»

الى «كوتسكي» الى «ماركس» و «انكلز» وغيرهم وغيرهم . حتى في ايطاليا الدولة التي يسيطر عليها النفوذ البابوي ، وفي روسيا الدولة القيصرية المستبدة، وفي الولايات المتحدة الديموقراطية قام افراد يدعون الى اعتناق المبدأ الاشتراكي . ولكن الاشتراكية بقيت مثالية وانسانية لا ترتكز على اسس علمية ، ولذلك دبت الخلافات بين اقطابها ، فمنهم من ارادها اشتراكية ديموقراطية ، ومنهم من ارادها اشتراكية نقابية او اشتراكية تعاونية، او تبادلية او اصلاحية. ولهذه الخلافات يرجع السبب في تأخر فوز الاشتراكية التي كانت تقاومها السلطات الحكومية في الدول البورجوازية .

على ان هذه الحركة الشعبية التي اخذت في الاتساع بالرغم مما لحق اقطابها من المقاومة والاضطهاد ، قد احدثت تأثيراً قوياً في النظم القائمة حدا بالسلطات في الدول كلها الى ان تتخذ من التدابير ما يخفف من حدة الحركة ، اذ ادركت هذه السلطات ان المقاومة الاضطهادية وحدها لا تكفي لخنقها، فاملت عليها الحاجة وغريزة حب البقاء ان تساير رغبات الشعوب بعض الشيء. فما كاد القرن التاسع عشر ينتصف حتى كانت الدول تسن قوانين من شأنها القضاء على بقايا العبودية . فما تأخرت دولة من دول اوروبا عن تحرير العبيد والاقنان فيها تحريراً قانونياً . حتى في روسيا ، وفي ابان الطغيان القيصري، امر اسكندر الثاني بهذا التحرير القانوني اتقاء للتحرير الحقيقي الكامل . ومما لا شك فيه ان اكثر ابطال الحرية المثالية اخلاصاً كان لنكولن رئيس الولايات المتحدة الاميركية . فهذا الرئيس لم يكتف بشرعة ١٨٦٣ القاضية باطلاق الحرية لجميع السكان وتحرير عبيد الجنوب ، بل اضرمها حرباً اهلية بين الشمال والجنوب دامت سنوات بين مد وجزر حتى ظفر لنكولن بمبتغاه وانتصرت قوات الشمال على قوات الجنوب. ومع ان قوى الرجعية والعبودية تمكنت من الانتقام من لنكولن عندما دبرت مقتله على يد رجل معتوه ، فما استطاعت هذه القوى القذرة ان تقضي على فكرة لنكولن . ان لنكولن سيبقى في التاريخ نجماً ساطعاً يزيد اشعاعاً كلما مر الزمن يهتدي به ابطال الحرية واعلامها في كل آن واوان.

على ان العبودية لا تقتصر على استعباد الحكام للمحكومين او استعباد البشرة البيضاء للبشرة السوداء . فهناك عبودية المال وعبودية العمل وعبودية الطبقات . والعبودية هذه لا يكفي لتحريرها المثالية والتبشير بالمبادىء الديموقراطية والاشتراكية. حتى الثورات نفسها لا تقضي عليها اذا لم تتوفر الظروف المادية اللازمة للقضاء عليها.

الرجعية لا تقضي عليها المقاومة السلبية لان سلاحها اقوى وأحدّ من السلبية . في حوزتها السلطة وفي حوزتها المال . العقائد الغيبية تناصرها والدين يشد ازرها . والنزعة الانسانية الكاذبة تساعدها. احسان الغني للفقير ملهاة، والعطاء تخدير. الحرية التي تعطى قابلة للاسترجاع، «وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا» على هذا الاساس قامت الاشتراكية العلمية الماركسية .

ولد كارل ماركس عام ١٨١٨ في مقاطعة الرين من اعمال المانيا ، عندما كانت هذه مقسمة الى ولايات ودويلات صغيرة متفرقة ، يحكمها ولاتها وملوكها حكماً استبدادياً ، عندما كان الشعب يرزح تحت نير الطغيان السياسي والاقتصادي والمالي. فافاق ماركس على حركات اشتراكية في بلاده وخارج بلاده ، ان دلت على شيء فانما تدل على ما يقاسيه الشعب من الألم والمرارة. فقد آلمه ان تكون بلاده مسرحاً تختال عليه القوى الرجعية، كما آلمه ان تخفق الانتفاضات الشعبية الاشتراكية والديموقراطية، فعوّل على وضع اسس لاشتراكية ثابتة يستمد فلسفتها من العلم والتاريخ ، لا من المبادىء المثالية والانسانية فقط .

ولد ماركس يهودياً ، وتنصر هو وابوه عندما كان ماركس في السادسة من عمره . وكان الدافع الى ذلك نظرة المجتمع الى اليهود نظرة احتقار وحذر وكره. فاراد ماركس الكبير ان لا تكون يهودية عائلته عقبة في سبيل دخولها الى المجتمع. وكان كارل ماركس حاد الذكاء ، عصبي المزاج ، ضعيف البنية ، عنيداً في رأيه ، جريئاً في اقواله وتصرفاته، لا يؤخذ بالمبادىء الغيبية حتى ما كان منها مجلبباً بجلباب الانسانية والرحمة . كان مادياً في فلسفته ، يعتبر ان الانسان هو الكائن الاعلى الذي تنبثق عنه كل فكرة وعقيدة ، متحدياً فلسفة « هيجل » المالكة سعيداً الى

ذلك الحين .

اتخذ كارل ماركس الداروينية البيولوجية اساساً لفلسفته الاشتراكية العلمية مستمداً منها نظريته الاجتماعية والاقتصادية وبالتالي السياسية . الانسان لم يخلق انساناً انما صار انساناً تبعاً للناموس الطبيعي في تحول الانواع الحية . والانسان منذ ظهوره آخذ بالتدرج صعداً تبعاً لهذا الناموس الطبيعي نفسه . الجد الاول كان يعيش في الادغال . ويأكل من صيد الحيوانات ويسكن المغاور ثم دفعته الحاجة الى الاشتراك مع ابناء جنسه لكي يتمكن من بلوغ ما تصوره له احلامه وشهواته ورغباته . ثم دله ادراكه الفطري على انه لن ينال رغائبه وشهواته الا اذا سعى الى الحصول عليها، فنمت تلافيف دماغه بحيث اصبح يمتاز عن الحيوان بميزته الادراكية التي تسمى العقل المدبر او الخلاق . هذا العقل هو وليد المادة الدماغية ، وهو مستنبط الفكرة والعقيدة تبعاً للحاجة والضرورة ، يتطور كلما تغيرت. هذا العنصر الجديد في الانسان هو الذي جعل منه الكائن الاول مستنبط كل فكرة سواء كانت دينية ام اجتماعية ام عقائدية .

اخذ ماركس بالنظرية الداروينية البيولوجية فرأى فيها ما يصلح اتخاذه قاعدة لنظريته الاجتماعية . اذا كان الصراع بين الفضائل الحية اوصل الانسان الى حالته الحاضرة ، فلماذا لا يكون الصراع بين طبقات المجتمع هو الذي يرفع المجتمع الى القدر الارفع ؟ الحياة البيولوجية صراع . اذن الحياة الاجتماعية صراع ايضاً، ينتصر فيه العامل الذي يعمل والكادح الذي يكدح، اما الخامل المستسلم المتواكل على الظرف والحظ وعلى ما يهيئه له الظرف والحظ من مؤهلات او امتيازات خارجة على صراعه ، فهذا يجب الا يكون .

من هنا بدأ ماركس حملته على البورجوازية والاقطاعية وعلى كل فكرة تعتمد عليها البورجوازية والاقطاعية في حياتها وبقائها . اذا كانت الحياة البيولوجية صراعاً فالحياة الاجتماعية صراع ايضاً . على هذا الاساس بنى ماركس صرحه الاشتراكي .

لم يسمح لماركس بالبقاء في المانيا فغادرها متنقلا بين باريس وبروكسل وجنيف.

وحط به الرحال في انكلترا حيث كان للحرية الفكرية على الاقل مقام مرموق فكان يدير حركته منها . فاسس اللجنة المركزية الاممية الاولى واصدر نداءه المعروف بالمانيفستو او بالبيان الشيوعي عام ١٨٦٤ ، هذا المانيفستو الذي يقضي بمحق البورجوازية واستبدال الحكم البورجوازي بحكم العمال دون سواهم ، ونزع الملكية الفردية لانها تؤدي حتماً الى الرأسمالية ، وازالة الفوارق الطبقية في المجتمع بحيث لا يتألف المجتمع الا من طبقة واحدة هي طبقة العمال ، مهيباً بالعمال الى الثورة لان الثورة لا تفقدهم شيئاً اذ هم لا يملكون شيئاً ، خاتماً نداءه بالعبارة التاريخية المأثورة: « يا عمال العالم اتحدوا » .

على ان ماركس على الرغم من عناده وتمسكه بالاشتراكية العلمية لم يتوان عن تأييد الثورات البورجوازية لانه رأى فيها مرحلة لا بد منها للوصول الى الثورة العمالية . غير انه في تأييده للثورات البورجوازية كان شديد الوطأة على فلاسفتها ، ناعتاً اياهم بابشع النعوت اذا هم اكتفوا بها او رأوا فيها مرحلة نهائية . ولطالما كانت رسائله الى هؤلاء سبباً لنقمتهم عليه . غير ان شخصية ماركس كانت اعظم من ان ينال منها نقدهم او حقدهم . لقد عاش ماركس فقيراً ومريضاً لا مطمع له الا فوز فكرته . اما فقره فقد وصفته امرأته بابلغ المعاني في كتاب بعثت به الى احد الاصدقاء تذكر فيه ما تقاسيه العائلة من العوز : « صاحب البيت اخطرنا بمغادرته غداً لان الايجار استحق علينا ولا مال لدى كارل . الاثاث نبيعه لنسد رمق العائلة. «جني» ابنتنا المحبوبة طريحة الفراش ولا قدرة لنا على معالجتها . بعد عذاب تسعة اشهر وضعت ابنتي الثالثة وليس لدي ما الفها به ، وهل لثدي امرأة مثلي تعبة هزيلة ان يقدم الغذاء الكافي لهذا الملاك الطاهر الذي يفتح عينيه على الدنيا . لقد تبرع احد الرفاق بليرتين اجرة الوضع للقابلة ، ولكن كيف ستعيش هذه الطفلة المحبوبة مع اختيها ؟ » . غير ان هذه المرأة الفاضلة على الرغم مما كانت تتحمله من وطأة التعاسة والحرمان لم تظهر يوماً تذمراً من زوجها ومن تكريس نفسه وجهاده ووقته للقضية التي يحمل لواءها .

في هذه الفترة القاسية كان الى جانب ماركس رجل اعتنق نظريته واخلص لها له، واندفع في سبيل تحقيقها. هذا الرجل كان المانياً ايضاً، وكان على شيء من السعة، ورث عن ابيه عملا يدر عليه ارباحاً لا بأس بها. فكان يقتر على نفسه ليمد ماركس بالاعانات من وقت الى آخر. كان انكلز لا يقل عن ماركس علماً، وكان مدبراً وحكيماً، لم يختلف معه ماركس مرة. وقد كان لانكلز فضل كبير في نشر المبدأ الماركسي، اذ ساعد ماركس في كتابة النشرات والصحف التي كانت تنطق بالاشتراكية العلمية، وكانت حكمته تحد من تأثير شذوذ ماركس في تعامله مع بقية المشتغلين بالقضية التي اخلص لها انكلز اخلاص ماركس نفسه، فكان الرفيقان كتوأمين يكمل واحدهما الآخر، حتى اصبح اسم انكلز ملازماً دائماً لاسم ماركس. وعندما توفي ماركس بقي انكلز حاملا لواء المبدأ الماركسي، واتم القسمين اللذين تركهما ماركس من مؤلفه «رأس المال» فجمع مخطوطات رفيقه الاكبر ونشرها على اسمه. وعندما رثى انكلز الفقيد نعته باكبر مفكري العصر واكثرهم اخلاصاً واسخاهم تضحية وخدمة.

ويعد كتاب ماركس «رأس المال» موسوعة لا مثيل لها في علم الاقتصاد والاقتصاد السياسي، يبين فيها المؤلف ان الناحية الاقتصادية والمعيشية في حياة الانسان هي نقطة الانطلاق في بناء المجتمع الاصلح، وان الوفر بوسعه ان يمتلك الآلات الصناعية والتجارية، ويستأجر «العمل» لتسييرها محتفظاً لنفسه بالقسط الاوفر من الانتاج، بحيث ينفتح المجال لوجود طبقات متباينة في المجتمع، الطبقات المفضلة وهي صاحبة الوفر، والطبقات المهملة والمحرومة التي يستخدمها الوفر في العمل. وقد شرح في كتابه كيف يحصل الوفر، والوسائل التي يستعملها، والاسباب التي يتذرع بها، للضغط على العمل لكي يبقى هذا مرهونا عليه، ولكي يبقى العامل في حالة من العوز يضطر معها ان يبقى مستعبداً للرأسمالي صاحب العمل، خوفا من الجوع، فيفقد بذلك حريته. فاما ان يرضى بالاستعباد ويأكل، واما ان يختار الحرية ويموت جوعا. وعلى هذا الاستنتاج الاقتصادي العملي بنى ماركس نظريته الاجتماعية التي تقضي بثورة العمل على الوفر لكي تصبح الحرية امراً ممكنا لا وهما وخيالا مثاليا.

فحرية الجائع والجاهل والمحروم هي حرية كاذبة .

لقد سلك ماركس في بحثه التطور الاجتماعي مسلك داروين في بحثه التطور البيولوجي مبينا ان الصراع بين الفصائل الحية الذي جعل من الانسان الكائن الاول هو العامل الذي لا غنى عنه لبناء المجتمع الافضل ، مجتمع لا يكون مؤلفا من طبقات منعمة او محظوظة وطبقات معدمة او محرومة ، بل تسود فيه طبقة واحدة تعيش بالعمل في مختلف نواحيه فيأخذ كل على قدر ما يستحقه عمله ، لا على قدر ما تقدمه له ثروة انتزعها من جهود الآخرين ، ولا على قدر ما استنبطه من حيل في التشريع والانظمة املاها عليه جشعه وميله الى التحكم والسيطرة . فالمراحل التاريخية التي تمر بها الحياة الاجتماعية هي اشبه ما يكون بالمراحل التاريخية التي مرت بها الحياة البيولوجية. وكما ان الحياة البيولوجية تدرجت مع الزمن معتمدة الصراع بين الفصائل والانواع هكذا الحياة الاجتماعية تتدرج مع الزمن معتمدة الصراع بين طبقات المجتمع لكي تصل الى مرحلتها الفاضلة التي يصفها ماركس والتي من اجلها بشر بفلسفته الاشتراكية العلمية التاريخية .

لقد وضع ماركس وانكلز اسس الثورة العمالية للقضاء على رأس المال، فاستقبلها العمال ببطء وارتياح ، واخذت الحركة العمالية بالانتشار في اقطار الدنيا قاطبة ، تارة عن طريق الاضرابات وتارة بطريق العنف . وكانت الحكومات تقاوم الحركة ، كل على طريقتها . فبينما كانت انكلترا مثلا تعتمد طريقة اللين والمسايرة وتحسين حالة العمال على قسط لا يؤذي الرأسماليين ، كانت روسيا تجنح الى الشدة والاضطهاد ، فتلجىء الطبقة العاملة المستعبدة الى العمل في الخفاء ، اما عن طريق الاغتيالات الفردية ، او اثارة حركات فوضوية . ومما لا شك فيه ان الثورة العمالية ما غذاها شيء اكثر من التدابير الارهابية والاضطهادية التي كانت تقوم بها الحكومات المستبدة تحت تأثير الطبقات المفضلة والرأسمالية . وفي الواقع ان الثورة الماركسية ما التهبت في بلاد كما فعلت في روسيا ، وما ذلك الا لان الطغيان القيصري كان اشد وطأة على هذه الحركة من اي بلد آخر . وقد كان ستالين دائما يقول ان

للارهاب والاضطهاد القيصري فضلا على نمو الثورة العمالية في روسيا . وسيجيء الكلام عن الثورة الروسية والنظام السوفياتي الاشتراكي في فصل لاحق .

ما من شك ان الثورة الفرنسية ، وانتفاضة لنكولن ، والدستور الاميركي ، وشرعة حقوق الانسان ، كل هذه فعلت فعلها في قلب المجتمع وتطور الحضارة. وما من شك ايضاً ان الفكرة الاشتراكية وُجدت قبل ماركس بالوف السنين . المسيح ومن قبله كنفوشيوس بشرا بالاشتراكية . احرار القرن السابع عشر والثامن عشر نادوا بالمبادىء الاشتراكية ، ومنهم كثيرون استشهدوا من اجلها. ولكن اشتراكية كنفوشيوس والمسيح وكل الذين اخذوا بتعاليم هذين الرسولين ، كانت اشتراكية انسانية وحسب ، مبنية على اسس ميتافيزية وروحانية ، على اعتبار ان الله خلق الانسان على صورته ومثاله ، وان العناية الالهية لم تفرق بين المخلوقات البشرية . ولكن لا تعاليم حكيم الصين ، ولا روحانية مؤسس المسيحية ، ولا حرب لنكولن ، ولا انسانية المعلمين الاحرار ، استطاعت ان تردع الانسان عن استثمار واستعباد اخيه الانسان ، الى ان قام كارل ماركس ووضع قواعد اشتراكيته العلمية والثورية متحدياً بذلك الاشتراكية الانسانية . ومنذ ذلك الحين والصراع قائم بين الاشتراكيتين ، وهو ما زال قائماً الى الآن. الاشتراكية الانسانية صراعها مساومة ، والاشتراكية العلمية التاريخية صراعها ثورة ونضال. ولقد بلغ الصراع اشده عندما تزعمت الاشتراكية الماركسية روسيا ، فنزلت الى ساحته بقضها وقضيضها ، شعارها في الصراع «لا هوادة» .

٢٢. حربان وجريمتان..

الحروب هي النتيجة الحتمية للسياسة الاستعمارية. ولذلك عندما خطت اوروبا خطواتها الجبارة في طريق العلم والاختراعات والاكتشافات، وازدهرت فيها الصناعة وانتشرت فيها المعامل، وكثرت فيها الآلات البخارية والكهربائية، كان لا بد لها من مدى حيوي لتغذي مصانعها وتشغل عمالها وترفع مستوى معيشة سكانها. فتطلعت الى بقاع العالم المتأخرة عنها علماً وعملا، وتسللت الى هذه البقاع، متذرعة بالحجج التي تكفل لها هذا التسلل. وعندما كانت اوروبا تعجز عن بسط نفوذها او سيطرتها على بقعة تطمع في خيراتها، كانت تعمد الى محاربة البلد الذي تطمع به، او الى محاربة من يزاحمها عليه. ولطالما احتجت باعذار واهية وخيالية لتبرر اعتداءها هذا كأن تدعي مثلا ان مرسلا او سائحاً او تاجراً من مواطنيها قد قتل او اضطهد اثناء تجواله في تلك البقعة، او تتذرع باضطرابات تقع بين سكان البلد او بين قبيلة وقبيلة، فتمنح نفسها حق التدخل لنشر الامن او لحماية اقلية من اكثرية، او تقيم من نفسها حارساً على قدسية معبد او حرم، او تستميل زعيماً من زعماء العشائر، فتنتزع منه طلباً بمساعدته او حمايته ضد زعيم آخر الى غير ذلك من الاسباب والمبررات.

ان من يتتبع حوادث التاريخ في القرن التاسع عشر، لا يكاد ينتهي من مطالعة اخبار حرب ما، حتى يطالع اخبار حرب ثانية اكثر فتكا ووحشية من الحرب

الاولى . فما من دولة اوروبية دخلت مستعمرة من مستعمراتها الا والسيف في يدها . وما من مرة امتشقت احدى الدول الحسام الا وادعت انها لم تكن لتفعل ما فعلت لولا حرصها على المبادىء السامية والمثل الانسانية ، ولولا رغبتها في المحافظة على السلام والامن . بالتقتيل تدعي المحافظة على الارواح ، وبالتدمير تريد ان تنشر المدنية والعمران ، وبالاستعباد تبشر بتحرر الشعوب . ومن نكد التاريخ على الحقيقة ، ان يكون المؤرخون ، كلهم او جلهم من ابناء الدول المعتدية والمستعمرة ، فيسخر هؤلاء ما اوتوه من علم ومعرفة وبلاغة لتشويه حوادث التاريخ وتكييف وقائعه لمصلحة حكوماتهم ، فيظهرونها بمظهر المدافع عن الحق والعدالة والمثالية ، فكأن هذه المثل كلها مشتقة من مصالح المستعمرين ومرتبطة بها .

لم يكن بد من ان تقع خلافات بين الدول المستعمرة ، كل دولة تبغي الزيادة لنفسها ، راغبة في ان تكون حصتها من الاراضي المستعمرة ، اكبر من حصة غيرها ، وان تكون الشعوب الخاضعة لها اكثر عدداً من الشعوب الخاضعة لسيطرة الدولة الاخرى ، حتى اذا وقعت الواقعة بين الدولتين ودارت رحى الحرب بينهما ، استطاعت كل منهما ان ترمي الى النار رجالا غير رجالها ، فتوفر بدماء هؤلاء دماء ابنائها . واذا ارجعنا الامور الى اسبابها ومسبباتها ادركنا ان الاستعمار هو نفسه مقبرة الاستعمار . وذلك اذ يبلغ الطمع حده الاقصى ، ويعمي الجشع ابصار المستعمرين الطماعين فيتملكهم البغض والحسد ، ويمسك بعضهم برقاب البعض الآخر ، فتتنفس الفريسة الصعداء وينفتح امامها باب الخلاص والنجاة . «فخار يكسر فخاراً» ، هذا هو امل الضعفاء . ولذلك عندما هبت رياح الحرب العالمية الاولى بين الجبابرة في عام ١٩١٤ ، بزغ فجر الخلاص للامم المستضعفة والمستعبدة . وقد لا نخطىء اذا قلنا ان هذه الحرب ونتائجها كانت نقطة التحول في تاريخ الشعوب وبداية المرحلة التقهقرية في الحضارة الاستعمارية .

ما كادت تمر السنوات العشر الاولى من القرن العشرين حتى بلغ التوتر في اوروبا حداً لا مفر معه من الانفجار . فالحرب البلقانية العثمانية عام ١٩١٢ كانت

علامة الحظر . ثم جاءت بعدها الحرب الايطالية العثمانية في طرابلس الغرب ، القطر الافريقي الواسع الذي كانت تطمع فيه ايطاليا بناء على وعد سابق من زميلاتها الدول الاوروبية . ثم ما لبثت ان انفجرت القنبلة الكبرى في عام ١٩١٤، فكانت قنبلة ذرية قبل ان تكتشف الذرة لم يقتصر مفعولها التخريبي على جزء من العالم بل عم جميع اقطاره .

كانت الحرب العالمية الاولى نتيجة حتمية للنزاع القائم بين الدول الكبرى والتزاحم فيما بينها . فقد نقم غليوم على الوضع الدولي اذ راى فيه افتئاتا على ما سماه حق المانيا ، وهي الدولة الاكثر نشاطاً من غيرها ، وشعبها الشعب الاكثر تقدماً في العلم والصناعة والعمران . لقد اثار غيظه ان تتمتع انكلترا وفرنسا بالقسط الاوفر من المستعمرات تستثمران خيراتها بينما تبقى الدولة الالمانية محرومة من حصة مساوية لهما . فطالب والح في المطالبة بينما كان يشحذ سلاحه لكي يحصل بالسلاح على ما لم يحصل عليه بالسياسة والمساومة . وعندما غضبت الدولتان ، عمدتا الى مقابلته بالمثل فانتصرت لهما روسيا بينما انتصرت الامبراطورية العثمانية لالمانيا ، فوقعت الحرب بين الخصمين ثم ما لبثت ان جرت الى أتونها العالم اجمع الذي انقسم الى جبهتين في حرب دامت اربع سنوات ونيفاً .

لامجال للبحث في هذا الكتاب عمن كان المسؤول الاول عن الكارثة . وانا لست مستعداً ان اوافق الحلفاء المنتصرين على ان مسؤولية الحرب انما كانت على المانيا وحدها . فالحكم الذي اصدره هؤلاء عقب انتصارهم مشكوك في قيمته التاريخية والانسانية . الغالب دائماً على حق لانه غلب ، شرعة القوة هي شرعة الحق . شرعة جاءت مطابقة لما قاله غليوم المتغطرس عندما استل السيف في كلمته التاريخية « الويل للمغلوب » ، فلو انتصرت المانيا في الحرب العالمية الاولى لانقلب الحكم وتغير وجه العدل، ولوقعت المسؤولية كلها على الحلفاء. هو العدل الدولي، ان يبقى هذا رهين القوة ، ما دامت شرعة الانسان مأخوذة عن شرعة الغاب ، القوي يأكل الضعيف بموجب صك قانوني يصدره القوي ويفرضه فرضاً على الضعيف والمغلوب.

ان المسؤول الحقيقي عن الحرب العالمية الاولى هو الجشع الاستعماري لا غير . وكل ما اذيع واشيع باسم الحق والحرية والعدالة والديموقراطية ليس اكثر من نفاق وباطل . فالحلفاء المنتصرون ما لبثوا بعد انتصارهم ان تنكروا للاهداف التي كانوا يبشرون بها اثناء ازمة القتال، وانكروا وعودهم وعهودهم للشعوب المظلومة، بعد ان قهروا في الساحة خصمهم العنيد . فالهند بقيت على ما كانت عليه قبل الحرب. والصين ظلت ملايينها العديدة مستعبدة للمستثمرين الاجانب ، والعالم العربي الهي بمبتكرات استعمارية استنبطها دهاء السياسيين الذين طبخوا معاهدة فرسايل . انتدابات من نوع (ا) و (ب) و (ت) ليست في الحقيقة سوى استعمار مزوق . وافريقيا كلها بقيت لقمة سائغة لاوروبا السيدة . فمعاهدة فرسايل التي وضعت على اثر قهر غليوم لم تكن افضل من معاهدة فينا التي وضعت على اثر قهر نابوليون، ولا هي اختلفت عن غيرها من المعاهدات المعقودة على اثر الحروب التي سبقتها في التاريخ الا بفذلكتها الخادعة وبالاساليب الناعمة المغرية التي اقتضاها تبدل المفاهيم السياسية ودهقنة السياسيين .

وماذا كانت نتيجة الحرب العالمية الاولى ؟

اذا استثنينا غضبة الشعب الروسي والثورة الاشتراكية الروسية ، التي قلبت نظام الحكم والمجتمع في روسيا راساً على عقب ، فلا نجد تبدلا محسوساً في نظام السياسة الدولية . المستعمرات الالمانية انتقلت من يد المانيا الى ايدي انكلترا وفرنسا وبلجيكا وايطاليا واليابان واميركا . الاتراك طردوا من الولايات العربية ليحل محلهم الانكليز والفرنسيون . حرية الشعوب في تقرير مصيرها خفتت نغمتها عما كانت عليه اثناء الحرب. الديموقراطية التي حارب تحت لوائها لويدجورج وكليمنصو ، انكرها لويد جورج وكليمنصو عندما جلسا على اكاليل الغار ، بعد ان ابعد الرئيس ولسون عن مؤتمر النصر وذهبت آياته التبشيرية هباء ، ليصفو الجو لقطبي مؤتمر فرسايل . النير الذي كانت ترزح تحته الاقطار المستعمرة ، ومنها اقطارنا العربية ، لم يرتفع الا ليحل محله نير آخر ، هو الانتداب ، الذي لم يكن اقل ارهاقا من الاستعمار . العالم الذي وعد به البشر بعد المجزرة لم يأت افضل

من العالم الذي كان قبلها . السلم الدائم الذي حاربت من اجله الدول الكبرى — على حد ادعاء كل منها — كان هدفاً للتعكير من قبل هذه الدول نفسها. وكيف ينتظر ان يتمتع العالم بالسلام ما دام في العالم دول شغلها الشاغل استثمار او استعباد غيرها من الدول والقوميات والشعوب . وعصبة الامم هذا المخلوق العجيب الذي حبلت به مخيلة الرئيس ولسون، وتمخضت به ذهنية رجال السياسة ، والذي جاءت ولادته على يد قابلة تتغلب فيها السليقة الاجرامية على سلامة الوجدان ، هذه العصبة كتب لها الموت منذ ولادتها لان عناصر الحياة لم تتوفر لها فعاشت عمرها القصير عليلة لتموت غير مرحومة ولا مأسوف عليها من احد .

لقد ظن العالم ان الحرب العالمية الاولى سيعقبها سلم دائم ، او على الاقل سلم طويل الامد . وما دار في خلد احد ان الانسانية تتحمل مزيداً من الالام والفواجع . ولكن الانسانية نفسها في عرف المتاجرين بها ليست اكثر من بضاعة للسوق ، منها ما هو للعرض فقط ، ومنها ما هو للبيع والشراء على قدر الاسعار . ولو لم يكن الامر كذلك لما واجه العالم مجزرة بشرية ثانية ، قبل ان يمضي على الاولى عشرون سنة .

على ان هذه الفترة القصيرة بين الحربين العالميتين الاولى والثانية ، كانت فترة صراع دائم بين القوى المتجسمة في المجتمع الانساني ، صراع بين مبادىء تدين بها هذه ومبادىء تدين بها تلك . حتى في هذا الصراع لم تكن المبادىء في اكثر الاحيان الا جسراً للعبور الى الاهداف التي كان يرمي اليها اولئك الذين يبشرون بها كذباً وتضليلا . ومن سوء حظ الانسانية ان الاهداف لم تكن من السمو بقدر سمو المبادىء نفسها .

لقد كان منتظراً ان يطرأ تبدل على المفاهيم الاجتماعية بعد الحرب العالمية الاولى . وقد حصل شيء من ذلك فعلا ، ولكن على نطاق محدود . اما السبب فهو ان الفوز العسكري لم يأت بجديد في الحقل السياسي والاجتماعي. انتصر الحلفاء على المانيا وقهروها ، فاستغل الحلفاء هذا الفوز ليسحقوا المانيا المتغطرسة لا

ليسحقوا الغطرسة نفسها . لويد جورج مثلا كان همه توسيع نفوذ الامبراطورية البريطانية ، وكليمنصو وجد الفرصة سانحة للانتقام من المانيا . ولكن لا لويد جورج ولا كليمنصو ولا احد من زملائهما في نشوة الظفر ، فكر هنيهة في هذه المجموعة البشرية الهائمة على وجه الارض : كيف تعيش ، ومن هو الانسان ، وما هي علاقته باخيه ، وما هو المجتمع الصالح العادل ، وما هي رسالة العلم والعقل والضمير .

ان التقدم العلمي والفكري والصناعي الذي تحققت في هذه الحقبة الحديثة من التاريخ انحصرت فوائده في نطاق تستسيغه العقلية المسيطرة في عالم ما بعد الحرب والتي تمثلت في اشخاص من الطراز القديم مثل لويد جورج ، وتشمبرلن ، وتشرشل ، وكليمنصو ، وبوانكاره ، وميللران ، وارلندو ، والملوك والامراء الحاكمين . فلم تكن الحرب كما ظن الكثيرون ثورة جامعة بل كانت اشبه بفتنة عالمية محدودة الهدف والغاية . ولذلك لم يكن بد من عودتها بعد اقل من ربع قرن .

ان المانيا نفسها التي انكسرت في الحرب العالمية الاولى ، كانت بطلة الحرب العالمية الثانية . لا اقصد من هذا ان المانيا كانت هي وحدها المسؤولة عن الحرب الثانية كما انها لم تكن هي المسؤولة وحدها عن الحرب الاولى . فالمسؤول في كلا الحربين هو العقلية التي كانت مسيطرة على اقطاب الدول ، هو سياسة الدول وانظمتها المرتكزة على الكسب والتفوق والاستثمار . الحلفاء الذين انتصروا على المانيا في الحرب الاولى لم يكونوا اكثر اخلاصاً بعضهم لبعض من اخلاصهم لعدوهم الالماني نفسه ، فنهجوا سياسة ملتوية فسحت للقوى الالمانية العسكرية والحربية مجالا لاستعادة غطرستها . فكانهم قصدوا كلهم او بعضهم تدبير مؤامرة ثانية ليقضوا بواسطتها على امل الشعوب في الحرية والمثل السامية ، غافلين عما ستجره عليهم هذه المؤامرة من تقويض الاسس التي بنوا عليها سياستهم ومؤامراتهم . فعندما وجدت المانيا في « هتلرها » منقذاً ، ووجدت ايطاليا في

« موسولينها » محققاً لاحلامها الرومانية ، تحالفت هاتان الدولتان واستعانتا باليابان ، ذات الطموح التوسعي في الشرق الاقصى ، فكانت الحرب الثانية في عام ١٩٣٩ التي قاست فيها البشرية من الويلات والفظائع ما لا ينسيها اياه الا حرب ثالثة ذرية يحاول اشعال نارها في الخفاء والجهر ، « مفبركو » الحروب .

ليس من شأننا في هذا الكتاب ان نأتي على وصف الحوادث التي وقعت اثناء الحربين . وليس غرضنا ان ندلل على المسؤولين عنها . للتاريخ وحده ان يصدر حكمه في هذه الامور . وكل ما يقال او يحكم به قبل مرور نصف قرن على الاقل هو محاولة تبريرية ، لا ترتكز على الحق والعدل . فالذي يصنع التاريخ لا يجوز له ان يكتبه . ان مذكرات اقطاب الحرب والسياسة التي تخرجها المطابع من وقت الى آخر لا تصلح ابداً لان تؤخذ معيناً للتاريخ ، اذ مهما البسها واضعوها لباس الحقيقة ، يبقى عنصر العدل فيها ناقصاً لانها وضعت تحت تأثير الحوادث وتحت تأثير الاعتبارات المتباينة التي اخذ بها مؤلفوها من منتصرين او مغلوبين . كل هذه المذكرات طريفة ولذيذة شرط ان لا يتوخى القارىء منها غير التسلية وحسن الوصف . ولكن القارىء يظلم الحقيقة اذا نشدها في هذه المذكرات . محاكمة نورمبرغ مثلاً لم تكن اكثر من مسرحية . انتصر الحلفاء فكانوا اصحاب الحق ، وغلب المحور فكان هو المجرم والمسؤول عن الحرب . لو انقلبت الآية لكان العكس هو العدل في نظر اولئك الذين يعطون العدل معاني تلائم مفاهيمهم ومصالحهم . لا شك ان الالمان ارتكبوا من الجرائم في الحرب العالمية الثانية ما يشيب له الاطفال ، ولكن سكان هيروشيما وناغازاكي ، وحيوانات هيروشيما وناغازاكي ، ونباتات هيروشيما وناغازاكي ، يدلونك ايها القارىء عن مجرمين زادت فظاعتهم على فظاعة الالمان . فيما مضى كان استعمال رصاص دمدم في الحروب جريمة تستحق العقاب الدولي . اما اليوم فالقنبلة الذرية برأي الذين يباهون بها ، هي وسيلة لاقرار السلم . منطق غريب مستخرج من الغريزة الوحشية لا اكثر ولا اقل .

الدعاية عامل مهم في الحرب . والدعاية في جوهرها هي نفاق الباطل على الحقيقة ، يغلب فيها عامل التضليل والغش والخداع . النور لا يحتاج لمن يقول عنه انه نور . الطبيب الذي يكثر من التحدث عن نفسه وعن مهارته يجب ان يخشاه المريض اكثر من الطبيب العامل الصامت . المرأة التي لا تنفك عن الاشادة بعفافها وامانتها الزوجية يجب ان يشك فيما تتحدث عنه . البائع الذي يلقي عليك موعظة عن جودة بضاعته قبل ان يعرضها عليك اشبه بمن يريد ان يبيعك كلاماً معسولا عن بضاعة مغشوشة . الحقيقة لا تخفى الا لزمن قصير . الدعاية تعني ان الصارخ في بوقها قليل الاحترام للعقل البشري ولميزته الادراكية الواعية . والدول كالافراد ، اذا بالغت في الدعاية عن قوتها ومبادئها وحسناتها ، فهي انما تبغي ان تعوض عن تقصيرها في قوتها ومبادئها وحسناتها . هي تعوض عن الحسنات بالمغريات مستجهلة الناس الذين تبث دعاوتها فيهم .

في الحرب العالمية الثانية ، كما في الحرب العالمية الاولى ، ما اكثر ما سمعنا بالديموقراطية ، وبحرية الشعوب في تقرير مصيرها ، وبالعالم الفاضل ، وبالحضارة المثلى ، وبالمجتمع الاصلح ، وبتحرير الناس من الفقر والجهل والمرض ، وبحريات روزفلت الاربع ، وبشرعة الاطلنطيك . فما ان وضعت الحرب اوزارها ، وانتصر من انتصر ، وانكسر من انكسر ، حتى تبين ان هذه المثل السامية ، التي اكثر المحاربون الاقوياء ترددها اثناء الازمة ، لم تكن اكثر من بضاعة للتضليل والتشويق ، فالدول الاستعمارية لم تتنازل عن مطامعها . والشعوب المستضعفة بقيت عرضة لهذه المطامع . ونقمة الصغار على الكبار زادت في حدتها . وفي هذا الجو المتجهم كان الكبار الطامعون يتحايلون على الصيغ المبتكرة لتسيير سياستهم بقوالب منقمة ، فخلقوا جامعة الامم المتحدة في مؤتمر سان فرنسيسكو ، صورة معدلة عن جمعية جنيف المرحومة . قالوا ان جامعة الامم هذه انما خلقناها لتطبيق المبادىء الانسانية الآنفة الذكر . برنامج مغر ، وتنظيم طريف ، ولجان تعنى بوضع شرعة لحقوق الانسان ، شرعة توضع ولا تطبق ، ومؤتمرات تلقى فيها الخطب البراقة .

اما النية المبيتة وراء كل ذلك فلم تكن على صفاء ترتاح اليه النفوس المتعطشة الى السلام والطمأنينة . فما ان قامت هذه الجامعة حتى بدأ الخصام بين اقطابها ، هذا يبغي مغنماً يروي به غلة دولته واشباع نهمها ، وذاك يحاول احباط مساعي غيره في احتكار الجامعة . فلم تمض سنة واحدة على حرب منتهية حتى بدأت تظهر بوادر حرب آتية . التسلح بقي الشغل الشاغل للدول الطامعة ، والتضييق في التعامل الدولي زاد عما كان من قبل ، والحرمان الذي كانت تشكو منه الشعوب بقي على حاله في بعض البلدان وزاد في بلدان اخرى ، والقنبلة الذرية التي احرقت هيروشيما وناغازاكي اصبحت بعبع العالم كله ، والعقلية الاستعمارية الاستثمارية بقيت مسيطرة على سياسة الدول التي عاشت للآن وتنعمت على حساب الدول الصغيرة والشعوب الضعيفة . ولذلك لم ينج بلد من بلدان العالم ، اما من ثورة انقلابية ، او فتنة داخلية ، او من حرب ضد مستعمر او غاصب ، او من تحفز لحركة مماثلة لذلك . من الشرق الاقصى الى الشرق الاوسط والادنى ، من القارة الاوروبية الى القارة الاسيوية ، الى القارة الافريقية والاميركية اشتعلت النيران ، هنا للتحرر من الاستعمار ، وهناك للتحرر من عبودية العوز والفاقة ، وهنالك للحد من مطامع الطامعين في الدنيا وكل خيراتها . المغبونون يناضلون لقلب الاوضاع الراهنة ، والمتنعمون يحاولون بما لديهم من وسائل للمحافظة على الاستقرار . الرابح دائماً ينشد الاستقرار ويعظ به ، بينما يرى الخاسر في الاستقرار مصدر بلائه ومصيبته . الاستقرار يعني ان يبقى العبد عبداً الى ان يشفق عليه سيده فيعطيه جرعات مقننة من الحرية ، وان يبقى الجاهل في جهله الى ان يتكرم عليه السيد بخيط من النور ، وان تبقى الشعوب المغلوبة شعوباً مغلوبة ، تشملها الدول القوية بالحماية وتمدها الشعوب الغنية بما تيسر من الرحمة الانسانية . الاستقرار مخالف لناموس الطبيعة نفسها . ولن يكون في متناول دعاته ولا في مقدورهم ان يغيروا ناموس الطبيعة وسنة التقدم والصراع في سبيل حياة اكمل ومجتمع افضل .

٢٣. الصراع الدائم

او الثورة المستمرة

كل انقلاب في طبيعة الاشياء ، كل خروج عن المألوف من العادات والتقاليد، كل استنكاف عن الاذعان للواقع الذي لا يتفق مع احكام العقل والمنطق ، كل تحدّ للحالة الراهنة ، هو صراع وثورة .

المسيح كان ثائراً عندما حمل على الوضع الروماني وعلى احكام المجتمع اليهودي في ذلك الحين ، كان ثائراً عندما نقم على الاغنياء والمستثمرين وانتصر للفقراء والمستضعفين ، كان ثائراً عندما حطم اصنام الهياكل ، وعاش بين الطبقات المنبوذة . المسيح الذي بشر بالمحبة فاضطهده الحكام والرؤساء والتجار ، ثم علق على خشبة ومات في سبيل دعوته الى الحق والعدل والمساواة . المسيح الذي يدين بتعاليمه مئات الملايين من البشر كان على الرغم مما انطوت عليه نفسه من الحب والخير والتضحية ، الهدام الاكبر للاوضاع المتعارفة والمألوفة في عصره . فهل من ينعت المسيح بالشر لانه هدم قبل ان يبني ، او لانه ادرك ان ليس في وسعه ان يبني قبل ان يهدم ؟ ايقال ان دعوة المسيح كانت فوضى وان مبادئه هدامة لانها تعكر صفو الاستقرار وتقوض المجتمع القائم ، لتبني على انقاضه مجتمعاً اصلح واعدل ؟ لقد الصقت سلطات تلك الايام بالمسيح كل التهم التي ينسبها مجتمع اليوم وسلطاته وحكوماته الى الثائرين على قسوة المجتمع وظلم الحكومات ، وقيل عنه انه فوضوي وشرير ومخادع ودجال ، وحوكم وصلب ومات ، ولكن هذا كله لم يمنع الحقيقة

من الظهور والانتصار ، ولا يقلل من شان الثورة المسيحية ، التي لا يسع اي مكابر ان ينكر انها كانت من العوامل الكبرى في تطور البشرية الى الاحسن .

محمد بن عبد الله كان ثائراً عندما ابى ان يماشي اهل الصحراء في عبادة الاصنام وفي عاداتهم الهمجية وفي مجتمعهم البربري ، فاضرمها ثورة لاهبة على بني قومه واسيادهم وآلهتهم ، فكفره قومه واضطهدوه واضمروا له الموت ، فهرب تحت جنح الليل مع نفر قليل من اتباعه وبقي يناضل في نشر دعوته ، وما احجم عن تجريد السيف من اجلها ، حتى اخرج من جاهلية الصحراء عقيدة دينية واجتماعية تجمع بين مئات الملايين من المسلمين في اقطار المعمورة . ومع هذا فما اكثر ما اتهم رسول الصحراء بالدجل والشعوذة والعمل على نشر الفوضى وتعكير صفو الاستقرار .

باستور كان ثائراً عندما جابه علماء عصره بالطفيلية الشريرة المسببة للاوبئة والامراض . باستور قاوم الاستقرار العلمي الذي كان يعتبر المرض طارئاً وان الاوبئة مجهولة السبب ، لا يمكن تجنبها ، وانها قد تكون من فعل الارواح الشريرة ، وهو الاعتقاد الذي كان سائداً في القرون الوسطى ، وان القدر وحده هو الذي يفشي المرض ، وهو الذي يشفيه . فكانت ثورة باستور سبباً لاضطهاده وتكفيره واتهامه بالزندقة والدجل والشعوذة ، لان القائم بها خرج عن المألوف والمعروف . ومع هذا فالثورة التي اضرمها باستور على الميكروب وعلى الجهل وحراسه والمنتفعين به لم تخمد قبل ان قلبت الاوضاع العلمية ومن ورائها الاوضاع الاجتماعية رأساً على عقب .

لوتيروس كان ثائراً عندما وقف في وجه الكنيسة ورجالها ، وفضح شعوذاتهم واثارها حرباً عليهم ، وعكر صفو الاستقرار الذي ينشده مستغلو الدين وتجاره .

كوبرنيكوس وغاليليو كانا ثائرين على استقرار النظام الفلكي المغلوط .

وعندما قالا بدوران الارض ، اهتزت مملكة الارض وانزلت عليهما النوازل . ولكن الارض بقيت تدور .

في كل كلمة كتبها فولتير وروسو ثورة على الظلم والطغيان وعلى استقرار الاوضاع . ثورة ما خمدت قبل ان الهبت فرنسا كلها عام ١٧٨٩ ، واطاحت برأس مليكها ، وهزت العالم من اقصاه الى اقصاه .

ليست الثورة فقط اقتتالا في سبيل حكم ، او مجزرة تهدر فيها الدماء . انما الثورة غضبة على ظلم وتافف من وضع شاذ وتبرم من استقرار غير طبيعي ، وهمس بالتحرر والانطلاق من عبودية الجهل والحكم والمال والدين والاستقرار . وما المجزرة التي تسفك فيها الدماء وتبذل فيها الارواح ، الا المرحلة الحاسمة للثورات .

الثورة وثبة الى الامام . الثورة ليست فوضى ، وان لازمتها الفوضى في بدايتها. هي نقمة على الواقع المتأخر ، وعلى الوضع الذي يحافظ على هذا الواقع . هي حركة تحرر من الجمود والرجعية والجهل . هي غضبة الشعب المظلوم على الحاكم الظالم والسلطات المستبدة . الثورة التي لا تواكبها هذه الشروط ، ولا تهدف الى القضاء على الرجعية والجهل والجمود ، واسبابها ومسبيبها ، لا تكون ثورة بمعناها الحقيقي والاصح ان يطلق عليها اسم فتنة . الثورة عقيدة . والفتنة هوس . الثورة صعود ، والفتنة انحطاط . الثورة امل ، والفتنة جشع . الثورة مستوحاة من صميم الشعب وامانيه ، والفتنة مستوحاة من غرور حاكم او طامع بالحكم ، اذا قضت على سلطة مستبدة فلكي تقيم مكانها سلطة مستبدة مثلها او اكثر منها .

عندما نحلل الدوافع الحقيقية للثورة ، نجد ان من اهمها طغيان المطلق على حياة المجتمع وسياسة الحكومات . هذا الطغيان الذي يوصد باب التفتح الجماعي محافظة على استقرار اقتصادي واجتماعي وسياسي مبني على هذا المطلق الذي غالباً ما يكون مطلقاً روحانياً او عقائدياً . والمعروف علمياً وتاريخياً ان ناموس الطبيعة قائم على التطور والانطلاق وليس على الاستقرار والاطلاق . فناموس الطبيعة

اذن لا يقر الحتمية ولا الروحانية القائمة عليها. والروحانية مهما اجتهد فلاسفتها في تفسيرها، لا تخرج عن كونها فلسفة غيبية وحتمية. قال فلان عن فلان الذي نزل عليه الوحي والالهام من القدرة التي لا تُرى ولا تخطىء، فليس ثمة مجال للاخذ والرد. خضوع مطلق لقدرة معصومة، ليس للعقل البشري ان يتمادى في تفسيرها او يمحص افعالها. اتكون الروحانية اذن متعارضة مع التقدمية العلمية والتحررية؟ اقولها نعم واقولها بدون خشية ولا تردد.

قد يقول المتفقهون ان الروحانية على نوعين، روحانية واعية، وروحانية مغمضة، وان الروحانية الواعية لا تتعارض مع العلم ومقتضياته ومستنتجاته، وان روحانية الغرب لم تمنعه من التقدم والرقي، وان الروحانية المغمضة هي التي يبتدعها رجال الدين استغلالا لجاذبيتها السحرية وتأثيرها في العائلة البشرية.

ان حجة المتفقهين هذه تحتاج في نظرنا الى تحليل وتمحيص. فاذا كانوا يعنون بالروحانية ان وراء هذه الحياة، قوة غير منظورة هي مصدر الحياة، وان هذه القوة التي لا يحدها زمان ولا مكان، هي التي تلهم الانسان المحبة والصلاح والخير، وان كينونة هذه القوة هي وليدة الايمان المطلق، فالروحانية هذه ليس من شأن احد، حتى ولو لم يكن مؤمناً، ان يحملها تبعة الجمود الفكري وما ينتج عنه من جهل وتأخر. ليت المتفقهين وقفوا عند هذا الحد في فهمهم للروحانية. غير ان بعض هؤلاء قد توسعوا كثيراً في فقههم وراحوا يحشرون الروحانية في كل امر من امور الدنيا، حتى كادوا يقيدون بها العقل البشري ويمنعونه من الانطلاق، مبشرين بالحتمية التي توحي بها الروحانية، مغلقين الباب دون الجدل والنقاش والمعرفة. ولم يكتف هؤلاء المتفقهون بالتبشير، بل ذهبوا الى ابعد من ذلك، فاخذوا يسنون الشرائع ليتقيد بها الناس في حياتهم الفردية والعائلية والمعاشية والاجتماعية والاقتصادية، موهمينهم ان هذه الشرائع انما هي وحي هبط من السماء، فمن خضع لها كانت له الآخرة، ومن كفر بها او بحث فيها استحق نار جهنم.

لانريد ان نجادل المتفقهين في روحانيتهم الواعية وروحانيتهم المغمضة . ولنترك جانبا ما يسمونه روحانية واعية ، يقصر عقلنا عن ادراكها ، لنقول ان الروحانية المغمضة — اذا شاؤوا — هي المسؤولة الاولى عن الجهل الذي يغمر الشعوب الخاضعة لها . اما لماذا كان الشرق مجالا لها اكثر من غيرها ، فالى القارىء نظريتنا في الامر .

الواقع ان الشرق كان مهبط النبوات الروحانية . ولعل ذلك راجع الى كون الشرق اكثر قدماً في التاريخ من الغرب . فالاديان الروحانية نشأت فيه . ومن الثابت ان ظهور اية حركة جماعية لا بد من ان يرافقها انقلاب جامح وتعصب من قبل القائمين بها والمهيمنين عليها والمنضوين تحت لوائها ، طوعاً ام كرهاً . وهذا الجموح والتعصب يقفلان باب التفتح والانطلاق الى خارج نطاق الحركة . وعندما يغلق باب التفتح والانطلاق يبقى للجهل والرجعية السيادة المطلقة . ثم ان الجهل يولد الجهل ، والرجعية تولد الرجعية ، وهكذا دواليك وتبقى الحلقة مفرغة .

هذا كان ولم يزل شأن الروحانية — سمها روحانية مغمضة اذا شئت — في الشرق وهو يختلف عن الحال في الغرب .

ان روحانية الغرب اقتباس اكثر مما هي ابتكار . والاقتباس عملية غربلة ، يغربل فيها الصالح من الطالح ، فيأخذ المقتبس عن المقتبس عنه ، ما كان صالحاً ويترك ما كان غير صالح ، مع العلم انه لا بد من التصاق شيء من الزوان مع القمح المغربل يسعى الى تنقيته فيما بعد .

ان اقتباس الغرب للروحانية جاء وليد التفاعل بينه وبين الشرق . ومهما قيل ان الروحانية كانت مسيطرة على حياة الغرب في القرون الوسطى المظلمة ، بفضل رجال الدين والكنيسة وسحر تعاليمهم المستوحاة اصلا من مطامعهم الدنيوية لا من جوهر الدين ، فالروحانية هذه ما لبثت ان اصطدمت بنهضة فكرية لم يكن في وسعها ان تتجاهلها على الرغم من الجهود التي بذلتها لخنق هذه النهضة ، والتي

بلغت احيانا حد الاجرام . فلا اضطهاد رجال الكنيسة للوثيروس ورفاقه المنشقين منع ثورتهم الاصلاحية من الانتشار ، ولا قسوة الاحكام على كوبرنيكوس وغاليليو اوقف دوران الارض ، ولا مقاومة السلطة لروجر باكون وتسفيه نظريته في الاعتماد على البحث والاختبار والاستنتاج ، استطاعا تخليد صفة المطلق على كل ما جاء في التعاليم المقدسة وفي فلسفة الاقدمين ، وما تمكنت محكمة التفتيش بكل فظائعها ان توقف الروح التقدمية والفكرية التي بدأت في الوثوب على يد اعلام الحرية والفكر في تلك العصور السوداء .

لا مندوحة اذن عن الجزم بان الثورة الفكرية التقدمية وجدت لها في الغرب مجالا افسح من الشرق . ولذلك كان الغرب اسبق من الشرق في التقدم والوعي والانطلاق . على ان ما حدث في روسيا في عام ١٩١٧ كان ذا شأن خطير في تغيير سير الاتجاه هذه المرة ، فاثبت صحة القول « ان الدهر دولاب » .

٢٤. الثورة الروسية الاشتراكية

لم تكن الثورة الاشتراكية الشيوعية بنت ساعتها . فانقلاب اوكتوبر ١٩١٧ ما كان الا المعركة الفاصلة في ثورة استمرت زهاء نصف قرن .

كان الحكم القيصري في روسيا حكماً استبدادياً طاغياً . ولا شك في ان « شرقية » الشعب الروسي، التي كانت عاملا هاماً في ابقاء هذا الشعب في حالة الجهل والامية والفقر ، والتي كانت تفسح المجال لسيطرة الروحانية عليه ، هذه الروحانية التي كانت تقوده الى الاستسلام والخنوع لرؤسائه ، والخضوع لمشيئة الروح ، وقبوله بتضحية نفسه في هذا العالم مقابل ما يرجى له من السعادة في العالم الآخر ، تقول لا شك ان هذه العقلية التي كان يستثمرها فيه حكامه واشرافه واقطاعيوه ، انما كانت السبب الاكبر في بقائه طوال الاجيال مستعبداً ذليلا متأخراً . ولكن لا شك ايضاً في ان هذه الامور نفسها كانت الدافع الاكبر للانفجار ، والانفجار هو النتيجة المحتومة لشدة الضغط .

اذا راجعنا تاريخ القياصرة ، لا نجد واحداً منهم قد اهتم بسعادة شعبه . حتى بطرس الاكبر ، في عظمته وحنكته واجتهاده ، كان يهدف اولا وآخراً الى تقوية الدولة الروسية وتعزيز صناعاتها ومرافقها لمنفعتها كدولة فاتحة غازية ، دون ان يخطر له ببال ان دولته انما تقوم على شعب يعيش ملايينه عيشة الذل والعبودية والمسكنة . ومن المحال ان ترتكز الدولة ، اية دولة ، على كثرة عدد سكانها فقط ،

اذا كان هؤلاء الملايين مسخرين لاشباع مطامع امبراطور وبلاط وفئة قليلة من المقربين للامبراطور والبلاط .

تملك الدولة الروسية سدس الكرة الارضية . وعلى هذا السدس يعيش عشر سكان الدنيا . وفي هذه المساحة الواسعة من الارض ثروات وكنوز لا توجد في غيرها . غير ان هذه الثروات الكبيرة كانت موزعة على قلة ضئيلة من الروسيين ، من امراء واشراف ، وقواد ورجال دين . اما الجزء الاكبر من الشعب فقد كان محروماً من كفاف العيش ، مستعبداً من ابناء الطبقة المفضلة . فبينما كان ابناء هذه الطبقة يعيشون عيشة البذخ والاسراف واللهو ، كانت العامة تعيش عيشة الفقر المدقع ، تكدح ليلها ونهارها لتقدم لاسيادها ثمار تعبها وعرق جبينها .

كان الفلاح الروسي « الموجيك » مضرب المثل في الجهل والذل والعبودية . وكان الاقطاعيون يتحكمون به كما يتحكمون بالآلة . الويل له اذا خالف لهم امراً ، او ابدي رغبة ، او طالب بحق ، فان جزاءه عندئذ السوط والسجن والتجويع والنفي الى سيبيريا .

كان ثمانون في المائة من الاراضي ملكا لخمسة في المائة من سكان روسيا . وكانت العشرون الباقية موزعة على ملكيات صغيرة لعشرة في المائة من السكان المحظوظين والمفضلين من محاسيب الخمسة بالمائة الاولى . اما تلك المجموعة البشرية الباقية التي تشكل خمسة وثمانين بالمائة من السكان ، والتي يطلق عليها اسم العامة ، فقد كانت تقاسي اقسى الوان الذل والفقر والاستعباد . كان طبيعياً اذن ان لا تستثمر الاراضي كلها استثماراً واسعاً ، ما دام العمال والفلاحون يكدحون ولا يشبعون . ولا عجب ايضاً اذا تعددت المجاعات في تلك البلاد الواسعة بسبب افتقارها الى استثمار واسع . والواقع التاريخي يثبت انه لم تكن تمضي سنتان او ثلاث سنوات حتى تقضي المجاعة على الوف والوف من الناس .

كانت الصناعة في روسيا محدودة ، لان الاقطاعيين كان يعتمدون النتاج الزراعي فقط ، ليغنيهم هم ولا يغني الشعب . وكان القعود عن تعزيز الصناعة سبباً لرواج

الصناعات الاجنبية التي يتعذر على الفلاحين المساكين شراؤها . الاقطاعية منذ كانت في التاريخ هي عدوة العمال لانها عدوة الصناعة . وفي عدائها للعمال هي حليفة طبيعية للصناعات الاجنبية وشركاتها وسياستها . لباس الاثرياء من مخازن باريس وبرلين ولندن . الآلات المحركة من مصانع انكلترا والمانيا واميركا وفرنسا . مفروشاتهم اجنبية الصنع . حتى في لهوهم وسمرهم كانت خمورهم ومشروباتهم، باستثناء الفودكا ، تأتي من خارج روسيا فما كان يصنع في روسيا الا حاجيات الفلاحين الفقراء .

كان التعليم في روسيا وقفاً على طبقة الخاصة القليلة العدد بينما كانت الامية نصيب ثمانين بالمائة من الناس . كانت اللغات الاجنبية من فرنسية وانكليزية والمانية ، هي لغة الطبقة الارستوقراطية في حفلاتها وسهراتها ، وفي اخذها وعطائها ، بينما كانت اللغة الروسية هي لغة العامة المنبوذة وحدها . طباخو البيوتات الكبيرة كانوا فرنسيين او المانا . مجتمع غربي وثقافة غربية في قلب روسيا .

كانت الاوبئة نزيلة البلاد الروسية الدائمة ، لان الصحة من حق الطبقة الارستوقراطية وحدها، واطباؤها في الاكثر اجانب. وكان الفقر والمرض والجهل حلفاء العامة الطبيعيين .

كانت سيبيريا من اولها الى آخرها سجناً لخمسة ملايين من البشر. بعضهم سجناء طبيعة تلك البلاد الواسعة ، القاسية الماحلة ، وبعضهم سجناء الحكم القيصري الظالم المستبد .

كان الدين عبادة اصنام اكثر مما هو عبادة الله . وكان رجال الكنيسة الارثوذكسية — كنيسة الدولة الرسمية — يعظون بالشعوذة الدينية اكثر مما يعظون بالتقوى والمحبة والصلاح ، يخدرون العامة بتعاليمهم ودجلهم لكي تبقى العامة قانعة بذلها ، مستسلمة لظلم الخاصة ، لان رجال الكنيسة هؤلاء من تلك الخاصة، فما تورع رجال الله والدين عن تشويه سمعة الدين والله .

هكذا كانت روسيا القيصرية ، اوسع امبراطورية على الارض .

ولكن على الرغم من الطغيان القيصري واستبداد الطبقة الحاكمة ، وعلى الرغم من تخدير الشعب بالمخدرات الروحية ، وعلى الرغم من الجهل الموجه الذي كانت تتبناه السياسة القيصرية ، وعلى الرغم من الفقر المدقع الذي كانت تعيش الطبقات العامة تحت نيره ، وعلى الرغم من الاوبئة التي كانت تكتسح الجماهير المحرومة ، وعلى الرغم من ظلمات السجون ومنافي سيبيريا ، وعلى الرغم من كل العوامل الداخلية والخارجية التي كانت تسعى وتعمل في سبيل استقرار الحالة الراهنة ، فان الشعب الروسي لم يحرم من رسل للحرية، شقوا لهذا الشعب طريق الخلاص فكتبوا وناضلوا واضطهدوا وسجنوا واعدموا ، فالقوا في تربته بذرة التحرر ، بذرة شد ما حاول الطغيان ان يبيدها ، ولكنها بقيت وعاشت وترعرعت ، ثم انتصبت شجرة باسقة لتخيم بظلها الوارف على شعب سيكتب له التاريخ صفحات البطولة والمجد.

كان القرن التاسع عشر حافلا بالحركات الثورية في روسيا . في كتابات بوشكين، وتولستوي ودستويفسكي وامثالهم ، تتجلى الحالة المرة التي كان يتخبط فيها الشعب الروسي . لقد نفخ بوشكين في هذا الشعب روح الثورة . في منافي سيبيريا كان المساجين يتغنون باشعاره اللاهبة ، فتوقظ فيهم روح الانفة ، وتحيي فيهم الامل بالخلاص من مظالم الحكم الاستبدادي . وما كان مصرع بوشكين الا مؤامرة حبك خيوطها البلاط تخلصاً من هذا الشاعر الثائر .

الكونت تولستوي ، تنازل عن كونتيته ، وطلق بيئته الارستوقراطية ليعايش الشعب المحروم ، مشاركاً اياه بؤسه وشقاءه. في روايته «السلم والحرب»، اعظم تحفة ادبية واجتماعية، وصف شامل للمجتمع الروسي ولاماني الشعب ولمحبته لامه روسيا، ووصف دقيق للنفس الروسية ، حليفة الآلام والكفاح والتضحية والعذاب المكبوت . وفي روايته «انا كارنين» صورة ناطقة عن الحياة الارستوقراطية في روسيا وتهتكها واستهتارها ، الى جانب الحياة المسكينة التي تحياها العامة ، المخدرة بافيون الكنيسة لكي ترضى عن عبوديتها وتقبل ضروب التضحية المطلوبة منها .

روسيا القيصرية هذه ، التي عرفها الى الناس هؤلاء الكتاب ، روسيا هذه ،

على تأخرها ، لم تكن تخلو من جذوة كامنة ، تنتظر عوداً من الكبريت لكي تشتعل وتشعل بنيرانها الحضارة الراهنة ، فتدك اسسها ، وتبني على انقاضها حضارة جديدة ومجتمعاً يختلف عن المجتمع الذي كان قائماً في ذلك الحين ولا يزال قائما في قسم من المعمورة .

والجدير بالملاحظة ، ان الشعب الروسي على الرغم من النوازل التي كانت تنزل به من اسياده وحكامه وحلفائهم الاجانب ، بقي متمسكا بوطنيته ، غيوراً على بلاده ، يقاوم الفاتحين بضراوة ، كأن هذا الشعب الجبار كان يدرك ان لا بد من يوم يتحرر فيه من عبوديته . ولذلك نراه يتناسى ما يقاسيه من الحكام فيهب لمحاربة اي عدو خارجي تسول له نفسه غزو روسيا ، ولا يهدأ له بال حتى يقهره ويرده خائبا على اعقابه ، مؤجلا تصفية الحساب مع مستعبديه الداخليين الى يوم الحساب .

ماكسر شوكة نابوليون في اوروبا غير الشعب الروسي . معركة روسيا كانت بحق نقطة التحول في الحروب النابوليونية في القرن التاسع عشر ، كما كانت نقطة التحول في الحركة الهتلرية في القرن العشرين . اريدك ايها القارىء ان تقرأ «السلم والحرب» لتولستوي ، لتتعرف الى عقلية شعب انتفض ، كما ينتفض الطير المذبوح عندما اراد المجتاح ان ينزل به الضربة القاصمة ، فهب بقضه وقضيضه ، وحارب الفاتح ، وقهر جيوشه ، ودك صرح الامبراطورية النابوليونية . ومع هذا فالحقيقة التي لا تنكر ان غزوة نابوليون لم تكن عديمة الاثر ، اذ انها اذكت في الشعب الروسي روحا كانت مكبوتة ، هي روح الشوق الى التحرر والانعتاق التي اضرمتها مبادىء الثورة الفرنسية .

كانت ثورة الديسمبريين فتنة اضرمها النبلاء على القيصر فلم يكن طبيعيا ان تنجح ثورة اضرمها النبلاء على النبلاء . الثورة بمعناها الحقيقي هي يقظة الشعب المظلوم . وفي بلد مثل روسيا ، وفي شعب مستعبد ، مثل شعب روسيا ، من المحال ان تستطيع حفنة من النبلاء المحظوظين ، ان تشعر شعور العامة المستعبدة .

ولذلك كان هينا على القيصر ان يقمع ثورة الديسمبريين وينكل بهم . ومع هذا

فقد تركت هذه الثورة اثراً في الشعب اذ بذرت فيه بذور الثورة ، وايقظته من سباته العميق ، وكان من نتائجها ان اجبرت القيصر على الغاء الرق ونظام القنانة ، واوحت للشاعر بوشكين ، اروع اشعاره ورواياته فالهب روسيا من اقصاها الى اقصاها . اقرأه في ملحمته عن المنفيين الديسمبريين :

في جو المناجم السيبيرية القاتمة
ترقبوا الفجر بكبرياء وصبر
سيكون اثر لهذا الكدح المرهق الذي تكدحون
ولهذه الاشواق السامية التي بها تمجدون
للبلاء شقيق هو الرجاء
يناديكم نداء غبطة وقوة
يا ايها الذين يتململون تحت احكام الاشغال الشاقة
وفي الظلمة يتلمسون السبيل الى النور
لينفجرنّ عليكم النهار خلل قفل ومفتاح
وليسرعنّ اليكم الاصدقاء ويقبل الحب دونما ابطاء
كما يطوف بكم الآن صوتي طليقاً رناناً
اذ انتم في دياجير الاقبية
ستقع عنكم السلاسل دفعة
وتنهد جدران الحبس مدحورة
فتستقبلكم الحرية باسمة الابواب
ويرد الاخوان الى ايديكم الحسام

* * *

ثم يرد بوشكين باسم الديسمبريين المنفيين :

وصلت الينا النبرات الحارة
التي عزفتها على اوتار تحركها روح النبوة

فامتدت ايدينا الى السيوف
على انها لم تصادف الا السلاسل
ومع هذا فكن مطمئناً ايها الشاعر
لنا العزة بقيودنا ومصيرنا
نحن وراء اقفال السجون
نضحك من القياصرة
ليس عملنا المتواضع سدى
فنحن الشرارة تقدح الشعلة
وعندئذ يهرع شعبنا المستنير
ملتفاً حول اللواء المقدس
لنسكبنّ من سلاسلنا سيوفاً
ولنجددنّ شعلة الحرية
ولنثبنّ جميعاً على الملوك
فيتنفس الشعب اخر الامر الاغتباط

* * *

كانت ثورة الديسمبريين مقدمة لثورات وفتن واضطرابات، كما كانت ايضاً حافزاً لتشديد السلطة الحاكمة في مراقبة كل حركة تحررية وقمعها والتنكيل بالقائمين بها. واذا كانت السلطة قد استطاعت بوسائلها الارهابية خنق الانتفاضات الشعبية الى حين، فانها قد عجزت عن اطفاء الشعلة الثورية المتغلغلة في عامة الشعب التي نهجت طرقاً مختلفة في اظهار شعورها. في هذه المدينة اضراب وفي تلك مظاهرة، وفي غيرها اغتيالات فردية، يقوم بها جماعة النهيليست لالقاء الرعب في نفوس الحكام. وفي عام ١٨٨١ قتل الفوضويون القيصر اسكندر الثاني. وفي عام ١٨٨٧ دبرت مؤآمرة على القيصر اسكندر الثالث. وفي عام ١٨٩٦ اندلعت ثورة استطاعت الحكومة ان تخنقها بالقوة. وكانت اعظم الثورات تلك التي هبت بعد انكسار روسيا في الحرب

اليابانية الروسية عام ١٩٠٥ وعام ١٩٠٧ . ولكن هذه ايضاً على الرغم من اتساعها وحدتها ، لم يكتب لها النجاح . الا ان الغليان استمر في مجراه ، حتى دخلت روسيا الحرب العالمية الاولى ، وكان ما كان من انكسارها في الحرب وانهيار النظام الامبراطوري القيصري على يد حزب لينين البولشفيكي .

اذا كان لابد من تعيين تاريخ انطلاق الثورة الاشتراكية العمالية ، فبوسعنا القول ان عام ١٨٨٧ راى ولادة هذه الثورة . ففي هذه السنة اعدم اسكندر اوليانوف شقيق لينين لاتهامه بتدبير المؤآمرة على القيصر . وقد كان مصرع اسكندر اوليانوف سبباً لازدياد حقد اخيه لينين على النظام القيصري . لينين الفتى الذي لم يكن يزيد عمره على السبع عشرة سنة في ذلك الحين ، لينين هذا ، لم يكن يخطر ببال احد عندئذ ، انه سيكون القائد الاكبر لثورة اشتراكية عمالية تدك معالم الامبراطورية القيصرية الروسية ، ثم ترسل لهيبها الى اقطار واسعة من المعمورة .

تمتاز ثورة لينين عن جميع الثورات التي سبقتها بكونها مبنية على اسس علمية وتاريخية واقتصادية . فهي ليست وليدة الهوس والحقد على الظلم وحسب . انها ثورة سلبية وايجابية في وقت واحد . خذ الثورة الفرنسية مثلا ، فهذه الثورة اشتعلت نتيجة لطغيان الحكم الملكي واستبداد الطبقة الخاصة المفضلة بالطبقات المهملة ، مما اجبر هذه الطبقات على الانتفاض وتقويض النظام الملكي . ولكن ما كاد النظام الملكي ينهار ، حتى اخذ الفساد يتسرب الى النظام الجديد . لقد كان شعار الثورة الفرنسية ، حرية ، اخاء ، مساواة . على ان هذا الشعار الجميل لم يسلم من الاعتداء عندما قام في النظام الجديد طبقات مفضلة ، ما لبثت ان حلت محل الاقطاعية والبورجوازية والانتهازية . ذلك لان العنصر العلمي كان مفقوداً في الثورة الفرنسية . هذا ما ادركه لينين اكثر من غيره ، وهذا ما دعاه الى تأسيس ثورته على اسس علمية وتاريخية واقتصادية لا على اساس الهوس والارتجال والمثالية الانسانية .

بدأ لينين في عام ١٨٨٨ يدرس فلسفة كارل ماركس ، فوجد فيها ضالته

المنشودة . الانسان هو العنصر الاول والاهم في المجتمع ، فلولا الانسان لما كان مجتمع . والانسان ما وصل الى ما وصل اليه لولا الصراع البيولوجي بين الانواع . والمجتمع الانساني لن يصل الى المجتمع الافضل الا عن طريق الصراع بين الطبقات، لكي تسود الطبقة العاملة وحدها وتقضي على طفيليات المجتمع البورجوازي . الصراع الاجتماعي يجب ان يحذو حذو الصراع البيولوجي الطبيعي التاريخي، وبدون ذلك لا سبيل الى قيام مجتمع لائق بالانسان الذي تطلق عليه الفلسفة الماركسية اسم الكائن الاعلى .

رأى لينين — كما رأى قبله ماركس — في النظام البورجوازي مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي، مرحلة يجب ان تتبعها مرحلة حاسمة لبلوغ المجتمع المنشود ، اذ ان الطبقة العاملة ، على الرغم من تقدمها على زميلتها في النظام الاقطاعي بقيت مغبونة في النظام البورجوازي ، فلم تكن نقمة لينين على البورجوازية اقل منها على الاقطاعية . ولذلك دعا لينين هذه الطبقة المغبونة ، وهي الكثرة الساحقة ، الى الانتفاض والثورة لكي تحصل على ما تستحقه . وعندما نفخ في الطبقة العاملة روح الثورة لم يرض ان تتنازل هذه الطبقة عن اي حق من حقوقها . الحكم يجب ان يستلمه الذين يعملون الثورة وليس الذين يستغلونها . وعندما اسس حزب البولشفيك لم يكن يتساهل مع احد من الذين ينبغون التعاون مع الطبقة البورجوازية ، واصفاً الثورات السابقة بانها ثورات يقوم بها العمال ليهرع البورجوازيون بعدها الى الحكم . فوضع نصب عينيه القضاء على كل فكرة تعاونية مع الطبقات غير العمالية التي تضم اليها الفلاحين غير الملاكين . واذ اصطدم بفئة الثوار التعاونيين ، فقد شن عليها حملة لا هوادة فيها وفصلها عن الحزب، فعرفت هذه الفئة بالمنشفيك ، وبقي لينين يحاربها طول حياته ، تاركاً لخلفه ستالين مهة تصفيتها النهائية .

اعتنق لينين الماركسية وحمل انجيلها وراح يبشر بها في المؤتمرات التي كان يعقدها خارج روسيا وداخلها وفي الصحف التي كان ينشرها ويوزعها اتباعه وتلاميذه سراً . ووقف في وجه الاضطهاد والارهاب ، فكان لا يخرج من السجن

حتى يبعد الى منفى ، او يبعد نفسه الى بلاد اجنبية ، فيرسل منها منشوراته ويذكي حماسة محبذيه الذين لم يكن نصيبهم من الاضطهاد والتشريد والنفي اقل من نصيبه .

بقي الحزب البولشفيكي اللينيني اميناً للتعاليم الماركسية ، وابى ان يحيد عنها او يتعاون مع من يحرف فيها . هو حزب الثورة الشاملة الكلية . هدفه الوصول الى السلطة عن طريق الثورة وليس عن طريق المفاوضة او المساومة . لم يرض الاشتراك بالدوما الذي دعا اليه القيصر ، بل حاربه حرباً لا هوادة فيها اذ رأى فيه وسيلة للتخدير وحسب . السلطة كلها للعمال وللفلاحين ، لا بورجوازية في الحكم ، الارض ملك الدولة تعطيها لمن يستغلها ويستثمرها ، فتأخذ الدولة نصيبها من الانتاج ويرصد الباقي على الفلاحين حسب نظام تعاوني وضعه الحزب (الكولخوز والسوفكوز) لا ملكية خاصة ، ولا تجارة خاصة ، ولا مهنة حرة خاصة . الدولة هي المالكة وهي المهيمنة والناس موظفون ، كل يأخذ اجرته على قدر كفايته وانتاجه .

كان الحزب البولشفي هدفاً لمقاومة الاحزاب اليمينية الرجعية والاحزاب اليسارية المعتدلة فما لانت له قناة . وكان لينين ورفاقه طويلي الاناة احياناً وقساة احياناً اخرى . وقد ساعدهم تطور الحوادث في روسيا ، كما ساهمت في نجاحهم المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تواجهها ، مما قوى روح النقمة في العامة ، التي لم تجد لها نصيراً الا في البولشفيك . وعندما وقعت الحرب العالمية الاولى تنبأ لينين بان روسيا ستخرج منها خاسرة ، ولما تحققت نبوءته وجد في هذا الانهيار مجالا لبذر فكرته الثورية . فما كادت روسيا تغلب على امرها حتى اسرع في العودة الى بلاده بعد ان سهل له الالمان سبيل العودة ، ظانين ان وجود لينين في روسيا يساعدهم على نيل رغائبهم . مساكين هؤلاء الالمان ، فهم ما عرفوا ان هذا القائد الشعبي الكبير الذي رضي بمصالحة المانيا وابرام معاهدة برست ليتوفسك كان يضمر لالمانيا ولكل الدول الرأسمالية كرها لا يفوقه كره .

كانت غاية لينين اثر عودته الى روسيا ان يشعل الثورة فيها . فما كاد يصل الى

بطرسبورج (لينينغراد فيما بعد) حتى التف حوله قواد الثورة الموجودون في روسيا. وفي اول خطاب القاه في الجماهير سحر الناس والهب حماسهم. وعندما اعلن على الفلاحين ان الارض بعد الآن هي لهم لا لملاكيها الاقطاعيين اصبح منذ ذلك الوقت معبود الشعب الروسي. ثم ما لبث ان اعلن الحرب على حكومة كيرنسكي التي كانت تألفت على اثر تنازل القيصر نقولا الثاني، ثم كان يوم ٢١ اوكتوبر عام ١٩١٧ عندما هاجم جيش الثورة القصر الملكي في بطرسبورج واحتله وطرد كيرنسكي والف حكومته باسم الحزب البولشفي.

لم يكن لينين قائداً وحسب، بل كان فيلسوفاً، بعيداً عن الغرور، متواضعاً ولكنه كان ذا شخصية ساحرة، اذا تكلم في مؤتمر اقتنع برأيه الجميع حتى من كان منهم يخالفه في الرأي. وكان رفاقه الامناء، وفي رأسهم ستالين، يخلصون له اخلاصاً لا حد له لانه كان مخلصاً لعقيدته، امينا لمبادئه الماركسية نزيهاً الى آخر حدود النزاهة، مجرداً عن المطامع الشخصية. كان لينين اكثر من عبقري، كان «سوبرمان» فلم يخطر ببال احد من اقطاب الثورة ان ينازعه القيادة والزعامة كل حياته.

من المعلوم ان فلسفة لينين قائمة على الماركسية الديالكتيكية. الطبيعة وجدت قبل الانسان. الانسان وليد التطور المادي البيولوجي. الوجدان نتيجة هذا التطور. القوى الادراكية العاقلة والصفات والاخلاق هي ايضاً وليدة هذا التطور. وقد عبر لينين عن فلسفته بثلاث نظريات:

١ — ان الاشياء وجدت مستقلة عن الانسان وعن شعوره ووجدانه.

٢ — لا فرق بين الاشياء وما ينتج عنها. الاختلاف مرهون بما يعرف من الحقائق وما لم يصل الانسان الى معرفته.

٣ — المعرفة بنت الجدل، وهي كغيرها من العلوم، ليست محدودة، ولا مطلقة، وهي قابلة للبحث والاستكشاف. لا عصمة في المعرفة. الجهل بالشيء لا ينفي وجوده او صحته.

على هذه الاسس بنى لينين فلسفته،وعلى هذه الفلسفة بنى ثورته الشاملة. المجتمع، الاقتصاد ، الدين ، السياسة ، السلطة ، كل هذه الامور تتطور حتماً بتطور المعرفة والزمن والحاجة. لا اطلاق في الحياة. ما كان حسناً او حقيقة في القرن الثامن عشر قد يظهر فاسداً وخطأً في القرن العشرين . الحقيقة نسبية . الطبيعة مستمرة في ناموسها التطوري . الجمود محال .

كان طبيعياً اذن ان تتألب على لينين جميع القوى الرجعية المتمسكة ، اعتقاداً او مصلحة ، بالفلسفة الميتافيزية الغيبية والحتمية. وكان عليه ان يحارب على عدة جبهات. النظام القيصري الديكتاتوري جبهة ، الكنيسة الارثوذكسية بمعتقداتها وتعاليمها ومخدراتها، جبهة ثانية. الاقطاعية الزراعية والوراثية، جبهة ثالثة. البورجوازيون، الثوار منهم وغير الثوار ، جبهة رابعة. الاستعمار الاجنبي ومصالح شركاته المسيطرة في العهد القيصري ، جبهة خامسة . كل هذه الجبهات توحدت لمحاربة لينين وحزبه بغية القضاء على ثورته الاشتراكية الكبرى .

لم يلن لينين وحزبه ، ولم يجبنا امام هذه القوى كلها . قالا للشعب ان السلطة القيصرية والكنيسة والاقطاعيين والبورجوازيين والاجانب حرموك حقك في الحياة، ونحن انما نبغي اعادة هذا الحق اليك . ان السلطة القيصرية تمنع عنك النور والحرية، والسلطة الكنائسية تخدرك بمورفينها الروحاني،والاقطاعيين يستعبدونك، والاجانب يستثمرونك ، وليس لك من خلاص الا بالانضمام الى حركتنا الهادفة الى تحريرك من عبودية الجهل والفقر والمرض . فوقف الشعب الى جانب لينين وحزبه . وبقيت الحرب سجالا بين البولشفيك ومناوئيهم واعدائهم الى ان تمت الغلبة الاخيرة للشعب وتوطدت اشتراكية لينين في البلاد كلها .

مما لا شك فيه ان الثورة البولشفيكية جنحت الى التطرف في اقصى حدوده في بادىء الامر ، فنزعت الملكية كلها ، واقفلت الكنائس ، واضطهدت رجال الاكليروس وقضت على كل شركة او مصلحة اجنبية ، واعدمت المئات من الزعماء ، وشردت كل من سولت له نفسه مقاومة الثورة. كان التطرف واجباً في تلك الظروف

لمقاومة التطرف الرجعي القديم ، حتى اذا ما استقر نظام الثورة ، عمد الحزب فيما بعد الى الحد من هذا التطرف شيئاً فشيئاً تبعاً لمستلزمات الزمن . فتعدل الدستور ، وسمح بالملكية الخاصة الصغيرة التي لا تدع مجالا للاستثمار والاقطاع ، وابيحت حرية ممارسة الدين بعد ان انتزعت من رجال الدين كل سلطة غير دينية. على ان مقاومة اي نفوذ اجنبي قد بقيت في صلب النظام ، لان الاتحاد السوفياتي ما يزال يشعر بعداء العالم الرأسمالي الخارجي له واستعداده للانقضاض عليه لدى اول فرصة تسنح له .

من المحقق ان النظام الذي ساد البلاد الروسية بعد نجاح الثورة هو نظام ديكتاتوري . ولكن من المحقق ايضاً ان ديكتاتورية هذا النظام تختلف عن ديكتاتورية النظام القيصري . فالديكتاتورية السوفياتية هي ديكتاتورية الطبقة العاملة ولمصلحتها ، والطبقة العاملة هي الكثرة الساحقة في الشعب الروسي ، بل هي الكثرة في كل شعب بينما ديكتاتورية النظام القيصري كانت ديكتاتورية الطبقة المفضلة ولمصلحتها دون مصلحة الشعب . الديكتاتورية السوفياتية ذات نظام قاس جداً ، ولكن هذه القسوة انما سببها قطع الطريق على الذين يحلمون بالعودة الى النظام القديم واستغلال المجموع لفئة الخاصة الاقلية . لولا هذه القسوة لما استطاع مدبرو الثورة وقوادها ان يركزوا نظامهم ، ولما استطاعوا ان يقضوا على جشع الاقلية التي تعودت استثمار الاكثرية طوال الاجيال الماضية بتحالفها مع المطامع الاستعمارية الاجنبية ، واستخدامها السلطة الروحية بغية ابقاء العامة في ظلمات الجهل والفقر والحاجة فتظل مغمضة ذليلة مستعبدة . بالقسوة فُرض الاصلاح الاجتماعي ، وبالقسوة فرض التعليم الاجباري والتطبيب الجماعي ، وبالقسوة فرض على الشعب المستعبد ان يقبل التحرر .

كل ثورة يُفرض فيها قيام سلطة ديكتاتورية . وقد تكون هذه الديكتاتورية بيد القلة من الشعب . فالثورات غالباً ما تقوم بها اقلية تفرض حكمها على المجموع . فمتى كانت هذه الاقلية واعية وساهرة على المصلحة العامة ، ومتى كانت سلطتها محققة لاماني الشعب ، فلا يلبث الشعب ان يلتف حولها بحيث تصبح اكثرية ، والا برزت

من الشعب جماعة غيرها تثور عليها. فالقول بان حكم الاقلية بطريقة ثورية حكم ظالم، هو قول مردود من اصله . ان الاكثرية في كل نظام هي واحدة من اثنتين ، اما اكثرية راضية عن الحالة العامة ولا تجد دافعاً للقيام بعمل ثوري ، وهو ما لم يكن حاصلا في روسيا القيصرية ، او اكثرية جاهلة مستعبدة خاضعة للحكم الراهن مهما كان قاسياً وظالماً ، فتجد في ثورة تقوم بها جماعة منها على الحكم القائم معيناً لها على الخلاص، ولا تلبث الاكثرية ان تنضم اليها بحيث تصبح الاقلية الثورية اكثرية، وهو ما حصل بالفعل في روسيا .

ان قسما من الشعب الروسي قاوم الثورة في بدايتها، اما تزلفاً لأسياد الف استعبادهم له ، او هرباً من انتقام هؤلاء الاسياد في حال اخفاق الثورة ، او تخوفاً من استبداد قوى الثورة به . والفئات الشعبية التي وقفت موقف المتربص في بادىء الامر ما لبثت ان انقلبت على النظام القديم عندما وثقت بنية الثورة والقائمين بها ، وعندما تحررت من العبودية الماضية ، وفتحت لها ابواب العمل والعلم والعيش ، وعندما تخلصت من جور المستبدين بها ، وحصلت على الضمانة الاجتماعية والمعيشية التي لم تكن تعرفها من قبل . ان الفترة التي مر بها النظام السوفياتي في سنواته الاولى كانت فترة قاسية جداً . السلطة الجديدة تجاه اخطار شاقة في الداخل والخارج ، والشعب ينوء باعباء ثقيلة من الحرب والجوع. ولكن النتيجة جاءت اخيراً كما يعلم الجميع وكما سيذكرها التاريخ عندما يتحرر التاريخ من الدعايات المغرضة والكاذبة .

لم يقتصر مفعول الثورة السوفياتية الاشتراكية على البلاد الروسية وحسب ، وانما تعداها الى الدنيا كلها . ففي كل بلد شكلت احزاب شيوعية واشتراكية اخذت على نفسها مقاومة الاستثمارات والاحتكارات ، مؤيدة الطبقات العاملة المستثمَرة . وكان من الطبيعي ان تجد هذه الاحزاب تربة صالحة في البلدان المتأخرة اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً . واذا كان طبيعيا ان تجد هذه الاحزاب تأييداً من الاتحاد السوفياتي ، فمن الصعب التدليل على ان الاتحاد السوفياتي كان يقدم لها الاعانات ، اللهم الا في البلدان المتاخمة له والتي تشكل خطراً عليه اذا وقعت الحرب بينه وبين

الدول الرأسمالية في حال بقائها ارجوحة بيد الدول المتحاربة .

الواقع ان العالم بعد الحرب العالمية الثانية قد انقسم الى جبهتين جبارتين، الجبهة الاشتراكية بزعامة الاتحاد السوفياتي ، والجبهة الرأسمالية بزعامة الولايات المتحدة الاميركية . فما كادت الحرب العالميـة تنتهي حتى بدأت بين الجبهتين حرب باردة ، اسلحتها الدعاية والتهويل . كل منهما ينشد السلم على طريقته . ولعلنا لا نكون مخطئين اذا قلنا ان الاتحاد السوفياتي يملك رجحان الكفة . فالرأسمالية لم يعد لها من سبيل للانتصار على الاشتراكية الا سبيل الحرب المدمرة لتمنع تغلغل الاشتراكية في العالم . ولكن العالم لم يعد يهضم الحروب اذ رأى ان المنفعة من الحرب انما تقتصر على القلة العددية من البشر الطامعة بالتحكم بمقدرات الشعوب . على ان الرأسمالية التي بدأت تشعر بضعفهـا ، قد عمدت الى محاولة الجمع بينها وبين الاشتراكية ، عن طريق احداث انظمة واحزاب اشتراكية تقدمية غير متطرفة ، تجمع بين طمع رأس المال وانسانية المبادىء التقدمية . ولكن منطق الحوادث يظهر ان هذه الانواع من الاشتراكية ليست اكثر من ستار شفاف تختفي الرأسمالية وراءه . ولهذا رأينا الاشتراكية السوفياتية تشن حرباً على كل اشتراكية غير عامية وغير ثورية . وكانت في حربها هذه لا تقل قسوة عن حربهـا للرأسمالية السافرة . واني اجيز لنفسي القول بان الجبهة الرأسمالية في تصرفها تجاه الاشتراكية الاصلاحية وفي تصرفها تجاه الحركات التقدمية ولا سيما في البلدان المتأخرة، قد اظهرت حقيقة نياتها المبيتة، وكانت تخدم عن غير قصد الاشتراكية الثورية الى حد بعيد . واذا القينا نظرة على مجرى الحوادث في السنوات القليلة التي عقبت الحرب العالمية الثانية ، تبين لنا كيف كانت الاشتراكية الثورية تسرع الخطى ، وتنتقل من نجـاح الى نجاح ، فتشمل اقطاراً واسعة من الدنيا ، اكبرها على الاطلاق الصين التي تبلغ في مساحتها وعدد سكانها ما يقارب ربع الكرة الارضية . هذا عدا عن بلدان اخرى اصغر من الصين اعتنقت الشكل السوفياتي في الاشتراكية ، وعدا عن بلدان غيرهـا ما زالت تناضل فيها الاحزاب الموالية للاشتراكية الثورية للوصول الى السيطرة المطلقة على

هذه البلدان .

من هذا يستخلص ان مصلحة الاشتراكية المتطرفة تتمشى مع حالة السلم بينما مصلحة الرأسمالية لا تقوم الا على الحرب. ولهذا كان التسابق الى التسلح في الجبهتين: الجبهة الرأسمالية تتسلح لتقضي على الجبهة الاشتراكية ، والجبهة الاشتراكية تتسلح لتقف سداً في وجه الرأسمالية وكل عدوان يخطر ببالها شنه عليها. ولا تزال الحرب الباردة تستعر بين الجبهتين . وكلما بعدت الحرب الحارة المدمرة كان ذلك في مصلحة الاشتراكية المتطرفة . والعالم كله على انتظار .

٢٥. المدنية الفضلى

يتميز الانسان عن سائر الفصائل الحية بعقله وادراكه. فهو الكائن الاكمل والاصلح لتكييف عناصر الطبيعة ووضعها تحت تصرفه وفي خدمته. ان الطبيعة غنية بالخيرات اذا قدر للانسان استثمارها كلها. وقيمة هذه الخيرات بقدر ما يجني الانسان من فائدة منها. على ان منها ما هو سهل المنال، ومنها ما هو دفين ينبغي للانسان ان يستخرجه من طيات الارض، او من قعر البحر او من ذرات الفضاء. هنا يأتي دور العمل الخلاق، ميزة الانسان على الحيوان.

لا يخلو الحيوان من صفة الادراك. ولكن هذه الصفة فيه، هي غريزة وشهوة وعادة. بينما هي في الانسان خلق واستنباط وابتكار، تنبثق عنها مزايا خاصة بالنوع الانساني، تعرف بالقيم الانسانية او الروحية. فالانسان كائن اجتماعي، لا يقتصر مروره في هذه الدنيا على الاكل والشرب والنوم، والسير على نظام محتوم، بل هو يحمل رسالة ترفعه فوق سائر الانواع ذات الحياة وتؤهلة الى خلق مجتمع انساني ذي قيم وفضائل. وهذه القيم والفضائل حرية بان تخطو بالمجتمع الى الهدف الاكمل والمدنية الفضلى بقدر ما تتوافر لها سبل النمو والسمو.

فالانسانية قيم وادراك وخلق، بينما الحيوانية غرائز وشهوات وعادة. الانسانية كالحيوانية، تتطلب بديهيات الحياة وتحتاج الى ضرورات بقائها ولكنها

تختلف عن الحيوانية ، بل تسمو عليها بمشاركات الحياة ، بمناها ، بجعلها وسيلة لغاية اوسع وارفع من الحيوانية الاهية .

الحيوان يدرك انه يجب ان يعيش ، فهو يفتش عما يكفل له العيش وتدفعه الشهوة الى الاستمتاع بلذاذات الجنس ، دون ان يكون الدافع له الرغبة في اكثار النوع وتحسين الجنس . فالغريزة هي التي تدفع العصفور الى بناء عش يأوي اليه ويضع فيه صغاره ليقيها خطر البرد او الحر والهلاك . والنحل يبني قفيره المحكم الهندسي بدافع غريزة حب البقاء ، وليس في النحل ولا في العصافير قدرة ادراكية خلاقة تجعلها تحيد عن النمط الذي الفته في تدابيرها تلك . بدافع الغريزة يهجم الاسد على فريسته ويفترسها ، وكل اسد عندما يلتقي بالفريسة سواء اكانت انساناً او حيواناً آخر ، يبادر فوراً الى مهاجمتها وافتراسها ، دون ان يكون ثمة تبدل في استراتيجية الهجوم بين الاسد الكبير والاسد الصغير ، الا بمقدار الفرق بين الاثنين في القوة العضلية . ان الغريزة سليقة حيوانية وراثية ملازمة للنوع او للفصيلة كلها وهي لا تختلف في الفرد من النوع الواحد عما هي عليه في الفرد الآخر .

غير ان هذا لا يعني ان الغريزة غير قابلة التحول او التطور . ولكن تحولها او تطورها ، لا يحدث عن طريق الوعي والادراك وانما يحدث استجابة للحاجة . فالعصفور مثلا يحتاج الى القش لكي يبني به عشه ، فيبحث عن القش حتى يجده ، فاذا ما قدّر ان تجدب الارض من القش ، اندفع العصفور بدافع الحاجة وغريزة حب البقاء الى البحث عن مادة اخرى يبني بها عشه ، اذ ان غريزة حب البقاء تخلق فيه غريزة ثانية تكون وسيلة لدوام الغريزة الاصلية . ولكن في هذه الاثناء وقبل ان تتحول الغريزة الفرعية يكون الهلاك نصيب عدد من افراد النوع ، لان الفرد من النوع العصفوري الحيواني ، ليس له قدرة الابتكار التي خص بها الانسان وحده ، وهي صفة ملازمة للعقل البشري الخلاق . فلو وجد انسان ما في ارض قاحلة من لوازم العيش ، لخلق مما يجده في طريقه ما يدفع عنه الموت جوعاً او عرياً ، الا اذا اجدبت السماء والارض جدباً تاماً وهو امر مغاير

لناموس الطبيعة .

ان الميزة الادراكية الخلاقة في الانسان هي التي بوأته المركز الاعلى بين الانواع وهي التي خولته التسلط على الحيوان والنبات والجماد لخدمته ومنفعته وتقدمه . هذه الميزة الادراكية الخلاقة لازمت وجود الانسان منذ ان ظهر النوع الانساني في التدرج التاريخي ، وتقدمت بتقدمه ، ووجودها يشمل النوع الانساني كله . واذا كان هناك تباين في مستوى هذه الميزة بين الناس . فمرجع ذلك التباين الحاصل بينهم في الظروف والتربية والبيئة والحاجة ، وليس في وسع احد ان يرجع هذا التباين الى طبيعة الاشياء ، كأن يقال ان الانسان في هذه البقعة من الارض هو من نوع يختلف عن نوع الانسان في تلك البقعة . وعندما نرى تميزاً في القوى الادراكية بين جماعة من البشر وجماعة اخرى ، فلا شك في ان الجماعة المميزة قد اكتسبت ميزتها من ممارسة قواها تلك على التفاعل لمواجهة مقتضيات الحياة واستنباط المؤهلات الكافية للافادة مما يمكن الافادة منه من خيرات الطبيعة ، ولا سيما الكامن منها والتي يحتاج الكشف عنها واستثمارها الى مفاعيل القوى الادراكية .

سبق القول ان قدرة الخلق في الانسان هي ميزة النوع كله وليست ميزة الفرد وحده ، وان هذه الميزة قابلة للتطور والنمو بواسطة المراس والتربية والتوجيه ، فكلما زاد مفعول هذه العوامل في الافراد والجماعات ، كان النمو والتطور اوفر واعم ، وهذا مما يزيد في الكشف عن خيرات الطبيعة الفنية والافادة منها . ليس صحيحاً ان تزايد سكان العالم المستمر من شأنه خلق مشكلة اقتصادية عالمية . ان هذه النظرية التي قال بها توماس مالتوس ، احد اقتصاديي الانكليز في فجر القرن التاسع عشر والتي تبعث على التشاؤم والقنوط قد دحضها العلم . عندما قال مالتوس بها لم يكن العالم يعرف بعد ، المدى الذي سيتوصل اليه العلم ، باكتشافه للقوة الكهربائية واستخدامه محركاتها وتياراتها ، واخضاعه عناصر الطبيعة لاختراعاته واكتشافاته . لقد بنى مالتوس نظريته على واقع ، حسبه ازلياً ومطلقاً ، فلم ير

حلا لمشكلة تزايد عدد سكان العالم الا بتحديد النسل ، ولا سيما في الطبقات الفقيرة من البشر ، ابقاء على مستوى المعيشة في حالته الراهنة. فليس عجباً اذن ان توصف نظرية مالتوس بالجمود والرجعية ، بل العجب ان يتطوع اناس ، ومنهم من يسمونهم علماء ، للدفاع عنها لا تمشياً مع التطور العلمي ، بل مراعاة لنظم اقتصادية مبنية على تقسيم البشر الى فئات متفوقة ومؤهلة لاستثمار الفئات الاخرى .

ان التقدم العلمي قد دحض النظرية الملتوسية لان تزايد عدد سكان العالم ، يقابله من جهة ثانية تزايد في الكشف عن خيرات الارض . ان الانسان الخلاق ، والانسان بطبيعته خلاق ، بمقدوره ان يكتشف ويخترع ، وبمقدوره ان ينتزع من الطبيعة كنوزها وخباياها ، اذ ماذا يبقى من ميزة الانسان على الحيوان اذا اكتفى بتناول الخيرات التي تعطيه اياها الطبيعة دون جهد ؟ ان النظرية التي تقوم على عدم الاقرار بقدرة النوع الانساني كله على الخلق ، وحصر هذه القدرة بفئة او فئات مخصوصة من الناس ، هي مخالفة صارخة لناموس الطبيعة وسنة التطور . اما توفر هذه القدرة على الخلق في قسم من الناس افراداً او جماعات اكثر مما تتوفر في قسم آخر ، فمرجعه تدخل الانسان الفرد في صقل هذه القدرة او عدم صقلها ، هذا التدخل الذي تبعثه الشهوة في الانسان الى التذرع باساليب مختلفة للحد من القدرة الخلاقة في غيره من الناس ، لكي يبقى هو متفوقاً عليها ، هذه الشهوة الراجعة الى بقايا غريزية حيوانية فيه . ولنسرع الى القول ان تدخل الانسان على الشكل المذكور ، يعد تحدياً للناموس الطبيعي وافتئاتاً عليه . اما القول بان الناس منهم الموهوبون ، ومنهم غير الموهوبين ، فهو ادعاء باطل وغير علمي . فالنقص الادراكي في الانسان هو نتيجة النقص في الصقل والتربية . حتى النقص الادراكي الناتج عن خلل صحي ، فأن مرجعه هو ايضاً نقص الصقل والتربية ، واهمال البيئة اهمالا يؤدي الى افساد السلالات البشرية وابقائها بحالة التأخر والجمود والضعف .

ان تزايد عدد سكان العالم من شأنه زيادة مجموع القوى الادراكية الخلاقة ومن شأنه بالتالي زيادة ما يمكن استخراجه من خيرات الارض . فاذا اصطنعت

عثرات وحواجز لعدم انطلاق هذه القوى الخلاقة في مجموعة ما من البشر ، فقد التوازن بين الانسان المستهلك وبين الانتاج المعد للاستهلاك ، وسنحت الفرصة لاتباع مالتوس وتلاميذه للتدليل على صحة نظريتهم . وهذا ما تبشر به وتسعى الى توطيده ، النظم الاقتصادية القائمة على استثمار الانسان للانسان . ان العالم يتسع لاكثر من ملياري انسان ، وان في هذا العالم من الخيرات ما اذا كشف عنها كلها ، لكفلت لسكانه ولاكثر من سكانه الحاليين حياة سعيدة ، ولكن عندما تهمل بقاع من الارض واسعة بحجة ان سكانها غير موهوبين ، ومتأخرون ولا يصلحون الا ليكونوا مجرد آلة في يد من يطمع في استخدامهم واستعبادهم من اصحاب المواهب ، وعندما يدخل في خلد الموهوبين ، انهم وحدهم القادرون على استثمار ما في وسعهم استثماره ، لمنفعتهم الخاصة لا لمنفعة المجموع ، عندئذ يتراءى لبعض الناس ان الارض تضيق بسكانها فتحجب عنهم هذه الرؤيا الحقيقية الواقعة .

والامر الذي يؤسف له ، ان الانسان نفسه هو الذي يعمل على الحد من مفعول القدرة الخلاقة في النوع الانساني . وهو انما يفعل ذلك بدافع من صفته الغريزية ، اذ ان البقايا الغريزية لا تزال ماثلة فيه ، وهي ميراث من طبيعته الحيوانية . ومن هذه البقايا ، بل اهمها ، الشهوة . وما زالت هذه البقايا الغريزية تصارع القوي العقلية الخلاقة في سبيل بقائها ، فهي اشبه بفلول جيش مهزوم ، يحارب منكفئاً ، ولا يريد ان يرمي سلاحه ولو كان فشله امراً محتوماً .

لنتكلم بامثال .

بالامس توصل العقل الانساني الخلاق الى تحطيم الذرة ، مما يبشر بفتح آفاق جديدة لتطور المعرفة وقدرة الخلق في الانسان . غير ان البقايا الغريزية الكامنة في طبيعة الانسان ، اثارت فيه الشهوة الى حصر فائدة هذا الفتح العلمي بقسم محدود من الجماعة البشرية . وبدلا من استخدامه كوسيلة تعميرية لفتح آفاق جديدة اخرى ، يفيد منها النوع الانساني كله ، فتسهل له الحياة ، وتعينه على الكشف عما يحتجب عنه من كنوزها ، وعما في الطبيعة الغنية من خيرات ،

تساعده في معيشته وتحسين صحته وتوسيع مداركه، وترفع من قيمه الانسانية، تحاول هذه البقايا الغريزية الحيوانية ان تشبع نهمها على حساب المجهود العقلي الجبار، ولو كانت محاولتها سبباً لتأخير تقدم النوع الانساني.

مضى زمن والعلماء يشتغلون للتوصل الى تفكيك الذرة، بغية استخدام طاقتها في الاعمال الانشائية والتعميرية التي يحتاج اليها التطور البشري. وكان منتظراً ان يجيء هذا الفتح العلمي، مكملا للمجهود العقلي في الانسان، هذا المجهود الذي يزيد في صفات الانسان الكمالية، ويمكنه من التغلب على ما يعترضه من صعوبات في حياته المعيشية، وما ينتج عنها من مشاركات، كالفقر والمرض والحاجة والبؤس، وغير ذلك من آفات اجتماعية واقتصادية واخلاقية. وكان مؤملا ان تستخدم هذه الطاقة في قلب طبقات الارض وحرثها ونبش كنوزها، وزيادة انتاجها، كما كان مؤملا ان يستعمل اشعاعها لبلوغ ما لم يبلغه اشعاع « اكس » والراديوم، من المشاريع الصناعية والعلمية والطبية. ولكن الشهوة الغريزية في الانسان ما لبثت أن طغت على القوة العاقلة فيه، فجعلت من هذه الطاقة العجيبة، مصدراً للشر بدلا من الخير. وفيما كانت الانسانية تأمل ان تنفتح امامها كوة من النور، تبعث الرجاء على التوصل الى مكافحة آفات الانسانية ولاسيما السرطان، شر الآفات واخبثها، بواسطة الاشعاع الذري، اذا بالقوى الشريرة القابضة على هذه الطاقة وكنهها، تحصر اهتمامها في احتكار هذا الفتح العلمي العجيب، لصنع القنبلة الذرية، بغية الفتك بكل ما لايخضع لعنجهيتها الشهوانية وتدمير معالم الانسانية التي لا تلائم غريزتها الحيوانية.

ليس طبيعياً ان تبقى الغريزة هي الرابحة في الجولة الاخيرة من الصراع القائم بينها وبين العقل الخلاق. غير ان التاريخ الانساني سيكتب ابشع صفحة من صفحاته، لهذه الفترة من التاريخ التي سادت فيها غريزة الانسان، او بقايا الغريزة فيه، على ميزته الادراكية الخلاقة، هذه الفترة التي اقترف فيها من الجرائم ما لم يسبق له مثيل في تاريخ النوع الانساني.

عندما كانت الحرب العالمية الثانية قائمة، ادعى الانسانيون الدجالون، ومبشرو السلام المنافقون، وحفظة القيم الانسانية الكاذبون، انهم ما رموا قنبلتهم الذرية على «هيروشيما وناغازاكي» الا رغبة منهم بانهاء الحرب، واقامة سلم دائم في العالم، كأن السلم الدائم، لا يقوم الا على تدمير المدن الآهلة، وابادة سكانها، كل سكانها، رجالا ونساء واطفالا ورضعاً، دون اي تمييز او تفريق بين الخاطئين والابرياء، وكأن من مقومات هذا السلم ان يجاز لقوي ما، ان ينتزع من العلم، سراً من اسراره ويضعه تحت تصرفه الخاص او يستعمله لغايته الشريرة، ضارباً عرض الحائط بالسنة العلمية الانسانية، التي تمنع سرية العلم، بل تحسب هذه السرية كفراً بالعلم نفسه، كل ذلك بعمله بدافع الغريزة الشهوانية الحيوانية الكامنة فيه، لابادة معالم الحياة بالجملة واقفار الارض المفتوك بها، من سكانها وحيواناتها ونباتها، واستمرار جدبها واستئصال السلامة البشرية منها، او على الاقل تشويهها وقتل قدرة الخلق فيها.

ان العائق الاول والاهم للمدنية الفضلى هو الفقر. فهو الافة الكبرى، ومعالجتها مرهونة بتوسيع مدى الخلق في البشر، فلو توفرت القدرة الخلاقة في المائة وخمسين مليوناً من الناس في افريقيا، في المليار من الناس في آسيا، وفي مئات الملايين في سائر البقاع المتأخرة، او بالاحرى لولا المساعي الشريرة التي تقوم بها الفئات الطامعة من الناس، ولولا النظريات الخاطئة التي تتذرع بها هذه الفئات لتبرير مساعيها في الحد من القدرة الخلاقة في المجموعة الانسانية، لما بخلت الارض على ساكنيها، بما يكفيهم شر الفقر، وبالتالي شر النتائج الحاصلة من الفقر، كالجهل والمرض، وما يتأتى عن ذلك من الفساد الخلقي والانهيار في قيم الانسان، ولما اتيح للفئات الطامعة ان تنعى هذه القيم في الفئات الكثيرة التي تطمع هي باستثمارها، ثم تتطوع بين الفينة والفينة لمساعدتها وتحذيرها بما يسمى احساناً او حماية، او صفات انسانية اخرى مبتكرة.

من العبث ان يطمح العالم الى مدنية فضلى اذا لم يتحرر النوع الانساني كله من

الفقر ومشاركاته. فالانسان لا يحيى بدون ان يأكل. والغذاء الجسدي هو الضرورة الاولى والاهم لحياة الانسان ولغذاء نفسه. فالجائع والمحروم، والجاهل والمريض، وكل هذا من مشاركات الفقر، لا يمكنه ان يتحرر لا سياسياً ولا اجتماعياً ولا اخلاقياً، وبالتالي هو محكوم عليه بالحرمان من القيم الانسانية. ان البحث عن الحرية والتحدث بالقيم الانسانية في مجتمع نصفه عبد للرغيف ولمن يمسك عليه الرغيف، هو من قبيل البحث عن العنقاء. ان للحرية مقومات لا يستغنى عنها، اولها ان يؤمن المجتمع لكل فرد من افراده حياة مادية راقية، فلا يأتيه غذاؤه عن طريق الاحسان، ولا بواسطة عمل يحد من انطلاق قواه الادراكية الخلاقة. فالانسانية ليست آلية ولا حيوانية، انما هي صفة لها ميزة الابداع. ومتى قلنا الابداع، فنحن لا نقصره على الاعمال الخارقة كاكتشاف الكهرباء، او تفكيك الذرة، او اختراع المحركات الكبرى والتفوق في العلوم والفنون. فالابداع اوسع من ذلك كثيراً. ان العامل البسيط في المصنع، والفلاح وراء المحراث، وماسح الاحذية على الرصيف، والخادمة في البيت، والمربية التي تسهر على تربية الطفل، والممرضة في المستشفى، هؤلاء كلهم اذا احسنوا اعمالهم، وانتزعوا الاعجاب بها مبدعون. ان الابداع لا يقدر بضخامة العمل او اهميته، وشموله، بل يقدر بما للعمل، من حيث هو عمل، من الحرمة في نظر المجتمع هذه الحرمة التي تلاصق العمل الصغير ملاصقتها للعمل الكبير، متى كانت الجودة هي هدف العامل. فليس في المدنية الفضلى عمل وضيع وعمل رفيع.

ان اكثر انواع المعالجة عقماً وضرراً للفقر هو الاحسان. فهو كالمورفين في الطب، يخدر ولا يشفي، بل يقتل النفس، اذ ينفخ في المحسن روح العظمة والكبرياء، ويثير في المحسن اليه لواعج الألم والضعة والمسكنة، والميل الى الكسل والجمود. لا ليس الاحسان انسانية كما يبشر المبشرون بالاحسان، بل الانسانية عمل وعدل وقيم قائمة على العمل والعدل. والمجتمع الذي يكثر فيه عدد جمعيات البر والاحسان هو مجتمع فقير الى العدل الاجتماعي، العلاج الوحيد لمرض الفقر والحاجة،

ومشاركات الفقر والحاجة . ان الاموال التي يتحمس في جمعها اولئك الذين يصطنعون الغيرة على الانسانية وعلى الفقير والمريض والمحروم ، هي غالباً ان لم يكن دائماً منتزعة من كدح الفقراء ، الذين يسلبهم جشع المحتكرين والمستثمرين مالهم بطرق تعطيها الانظمة صفة الشرعية ، فتسميها احياناً تجارة حرة ، تبيح للتاجر حرية التحكم بالسلع التي يتاجر بها ، يمسكها عن المحتاجين اليها ، او يحتكرها ويخزنها ، فلا يبيعها الا اذا اخذ مقابلا عنها اضعاف الاضعاف عن ثمنها ، واحياناً تسميها مهنة حرة تبيح لصاحبها ان يقدم خدماته او يمنعها على قدر ما يحلل له وجدانه استغلالها . هذا المفهوم المشوه للحرية ، الذي يعتبر الحرية مطلقاً ، والذي لا يقيم وزناً لمقومات الحرية الصحيحة ، هذا المفهوم الغريب هو شر آفات المدنية . اليس ما يدعو الى العجب بل الى التمرد على مدنية ، حريتها تبيح للانسان ان يستثمر اخاه الانسان ، وان يجوعه ، ويفقره ، ويشقيه ، ثم تعطه بالاحسان على من كان هو سبباً لتجويعه وفقره ومرضه وموته . لولا الفقر لما كان الغنى ، ولو لم تتغاضَ الانظمة والقوانين عن وجود فقراء ومحرومين ، وتعساء ، وعاطلين ، وجهلاء اذلاء ، وبائسين ، لما سنحت الفرصة لوجود اثرياء مستثمرين ، ومحتكرين وطماعين . وعندما تدعي هذه الانظمة والقائمون عليها ، ودعاتها والمروجون لها ، بان الفروق الاجتماعية تلك مرجعها الفروق الحاصلة بين البشر في المواهب وحدة الذكاء والاجتهاد في العمل ، وان الحياة سباق ، يفوز فيه الاقدر والاكفأ ، فادعاؤها هذا لا يخرج عن دائرة النفاق ، اذا هي تجاهلت ، كما هي فاعلة ، ان السبق يجب ان ينطلق من نقطة واحدة ، وان التزاحم على الفوز وبروز الكفاءات ، يقضي بان تتساوى او تتعادل الفرص المهيأة للمتزاحمين والمتسابقين . اما ان تنحيز هذه الانظمة الى فريق دون آخر او تكفل للواحد ما لا تكفله للثاني ، وتتذرع بحجج مبتكرة وواهية ، كأن تقول مثلا «ان الناس خلقوا متساوين ، ويجب ان يبقوا كذلك» ، اتماماً للمشيئة العليا التي خلقت الناس ، هذه المشيئة التي يتكلمون باسمها ، وهم يسيئون اليها ، تارة باسم الحرية كما يفهمونها ، وتارة باسم ما تسميه انحذاليتهم حظا . اما هذا التحيز فمرده شهوة في

النفس ، هي علة النفس ، لا يسمو المجتمع الانساني الا بشفائها ، وهي لا تشفى الا عن طريق نظام اجتماعي يعدل بين الناس ، نظام مستوحى من ناموس حق الانسان الطبيعي في الحياة والتقدم والارتقاء .

الحرية ليست مطلقاً بل مفهوماً له صفة النسبية . حريتك لها حدود تنتهي حيثما تبتدىء حرية غيرك . انت لست حراً في ان تجعل من حقك في الحرية سبباً لحرمان غيرك من حقه فيها . الحرية اذا نظرت اليها كمطلق ، تبيح لك الامتناع عن استعمال لقاح الجدري او الطاعون او غيرهما من الامراض الوبائية . صحيح انك حر في ان تموت ، ولكن اصابتك بالجدري ، او الطاعون ، قد تنتقل منك الى غيرك ، فتكون انت السبب في انتشار الوباء في محيطك . افيجوز ان يكون حقك في الحرية ، وحقك في اختيار الموت لنفسك ، سالباً لحق غيرك في الحياة ؟ اذن هناك قانون ، يسمى قانون الصحة العامة ، مفروض فيه ان يضع حداً لحريتك .

الحرية المطلقة تبيح لك ان تخرج عارياً الى الساحات العامة ، وان تكشف عن عورتك بين الناس ، ولكن عملك الشائن هذا ، يثير اشمئزاز الجيران والمارة ، فيقفلون ابواب بيوتهم ونوافذها ، لكي لا يشاهدوا منظرك القذر ، ويحرمون انفسهم من ارتياد الساحة والشارع هرباً منك . هذه مشكلة لا يحلها قانون الحرية المطلقة ، بل يحلها قانون الاخلاق العامة ، المفروض فيه ان يضع حداً لحريتك .

الحرية المطلقة تخولك ، ان كنت ثرياً ، ان تشتري او تستأجر فندقاً او بلداً بكامله ، وهي تخولك ان تشغله او لا تشغله ، بل تعطيك كل الحق في اقفال ابوابه كلها ما دام في حوزتك ، وتحرم سكان البلد ومرتادي الفندق من مأوى يأوون اليه . انت دفعت الثمن او الايجار من مالك ، وانت حر في كيف تربح وكيف تصرف ، وفاقاً لمبدأ الحرية المطلقة ، ولكن الى جانب هذا المبدأ ، الذي يجيز لك ان تتصرف بمالك وملكك كيفما تريد ، مبدأ آخر بديهي يقضي بان يتمكن اهل البلد الذي امتلكته بمالك ، ومرتادو الفندق الذي استأجرته بمالك ايضاً ، من ايجاد مأوى يأوون اليه . هذه ايضاً مشكلة لا يحلها مبدأ الحرية الشخصية المطلقة ،

بل يحلها قانون ، سمه اذا شئت قانون العدل الاجتماعي ، قد ترى فيه انت افتئاتاً على حريتك في التصرف باموالك ، بينما يرى فيه اولئك الذين حرمتهم حريتك المأوى عدلا وضمانة، وتجاه هذا القانون انت مغبون ، وتطبيقه اعتداء صريح على حريتك، انت تنعى الحرية ، وهؤلاء ، يشكرون .

اذا كنت صاحب مصنع او مؤسسة كبيرة ، يكثر فيها عدد العمال ، واذا كنت في بلد يتمتع بالنظام الديموقراطي الانتخابي ، فالحرية المطلقة تجيز لك ان تخير عمالك ، اما ان ينتخبوا المرشح الذي تؤيده انت او يختاروا العمل في مصنع آخر . وقد يكون مرشحك آخر من يرشحه عمالك ، وهذا طبيعي جداً ، اذ ان هدفك يرمي الى مساندة نظام يفتح لك باب الغنم الكثير ، وتخفيض اجرة العامل ، بحسب تقديراتك انت للربح والخسارة ، وهم يهدفون الى اقامة نظام ، ينصفهم منك ويحد من تحكمك فيهم . انت لك الحرية المطلقة ، كما هي لغيرك من اصحاب الاعمال ، في تشغيل من تريد وطرد من تريد . وللعامل الحرية المطلقة في تأييد مرشحك ، لو كان عدواً لمصلحته ، او التعرض للطرد ، ثم البطالة ، ثم الجوع ، ثم الموت . بالطبع انت استعملت حريتك المطلقة ، وتركت لعاملك الحرية باستعمال حريته . ولكن اي مبدأ انساني يقر هذين المفهومين المتناقضين للحرية ؟

قد لا تكفي صفحات هذا الكتاب لسرد جميع الامثلة الدالة على ان الحرية مفهوم له صفة النسبية ، وان الحرية ليست مطلقاً . على ان الحرية اذا ظلت انشودة وحسب ، يتغنى بها الناس ، بينما هم يتناقضون في مفاهيمها ، ويعطونها التفاسير التي توحي لهم بها غرائزهم وشهواتهم ، ويستبعدونها عن دائرة الحياة الواقعية ومشاكلها ومقتضياتها المعيشية والاجتماعية والاخلاقية ، فقدت مدلولها ، وتشوهت في اسطورتها القيم الانسانية ، هذه القيم التي يحرص الانسانيون الكاذبون على تسميتها بالقيم الروحية بدلا من تسميتها بالقيم الانسانية ، بغية اخراجها عن دائرة العقل والادراك والواقع واخضاعها لفلسفات غيبية ونظرية ، مفقودة منها مقومات المدنية الفضلى .

في العراك القائم بين المدنيات في هذا العصر ، ما اكثر ما يتحدث الناس عن الحرية والقيم الانسانية والعدل الاجتماعي . ان التحدث عن هذه المثاليات لا يكفل وحده استتبابها . ان حرية الجائع والجاهل والمحروم وهم ، والتحدث عن القيم الانسانية في طبقة من الناس تنعدم فيها ميزة الانطلاق العقلي وقدرة الخلق خيال ، والتحدث عن العدل الاجتماعي في نظام يبيح لحفنة من الاسياد والاقطاعيين والمحتكرين ان تتحكم بمجموعة كبرى من المستعبدين الجهلاء المحرومين نفاق ودجل . ان للحرية والقيم الانسانية والعدل الاجتماعي مقومات بديهية . وهذه المقومات ليست وليدة الغيب المجهول ، وليست هي الروح التي تخلقها خلقاً في الانسان توزعها حصصاً على الناس ، وانما هي صفات مكتسبة بفضل العقل البشري وميزته الادراكية الخلاقة ، وهذه الصفات والمقومات تنمو كلما نما العقل ، وكلما سمت قدرة الخلق فيه . والعقل لا ينمو ، وقدرة الخلق لا تسمو الا اذا توفر للجسد الغذاء . فما العقل الا من مكملات الجسد في النوع الانساني .

عندما يستعرض المرء ما تنوء بعبئه البشرية من قلق وخوف وفوضى ، وعندما يستعرض حالة البؤس التي يتخبط فيها اكثر من نصف سكان العالم ، وعندما يرى ان اكثر من ثلثي مساحة الكرة الارضية في حالة من الجدب المقصود او الموجه ، وان الثلث الباقي مرهون بعناية القلة العددية من سكان هذا السيار الذي يسمى ارضاً ، وعندما يرى الغيارى على القيم الانسانية والمتحمسين في الدعاية لها ، يتنكرون لمقاومتها ، وتتغلب عليهم الشهوة والغريزة فيعملون ما بوسعهم على تقويضها ، متذرعين بحجج توحيها لهم فلسفات غيبية وعقائد يصفونها بالعقائد الروحية والانسانية ، وهي في الحقيقة لا انسانية ولا روحية ، عندئذ يدرك المرء مدى تأثير هذه النقائص في الانظمة القائمة ، ويعرف بالتالي كيف يجب ان تكون المدنية الفضلى ، هدف الانسانية الاسمى ، والدرجة العليا في ناموس التطور التاريخي والارتقاء الاجتماعي .

فهرست

		صفحة
١	نشوء الحياة	٣
٢	نشوء الانسان	٧
٣	نشوء الحضارة والممالك	١٠
٤	اليهودية على مسرح التاريخ	١٥
٥	الحضارة الاغريقية	١٨
٦	روما تثب الى المقدمة	٢١
٧	رحلة خاطفة الى داخل آسيا	٢٦
٨	ملكوت السماوات ومملكة المسيح	٣١
٩	صوت يرتفع في صحراء العرب	٣٧
١٠	التفاعل بين الغرب والشرق في الحروب الصليبية	٤٧
١١	اوروبا في الظلام	٥٣
١٢	عصر النهضة والانبعاث	٦٠
١٣	عصر الغليان الديني	٦٦
١٤	الديموقراطية البورجوازية	٧٢
١٥	هوس الاستعمار يطغى على اوروبا	٧٨
١٦	طلائع الحركة التحررية العالمية	٨٤
١٧	الثورة الفرنسية	٩٠
١٨	الردة الرجعية	٩٧

صفحة

١٩ التقدم العلمي في حضارة القرن التاسع عشر ١٠٢
٢٠ التقدم العلمي في خدمة الاقتصاد الاستعماري ١٠٨
٢١ الطبقة الثالثة تتمخض فتلد الاشتراكية ١١٤
٢٢ حربان وجريمتان ١٢٤
٢٣ الصراع الدائم او الثورة المستمرة ١٣٣
٢٤ الثورة الروسية الاشتراكية ١٣٩
٢٥ المدنية الفضلى ١٥٥

تصويب

ص ٦٢ السطر ١٦	إقرأ : المجالس الشورية
ص ٧٥ السطر ١٠	» : عُشره

٥١/١١/١٤٥

الدار العالمية للطباعة والنشر
شارع القبيات — بيروت

Dept 4 17

[redacted]
حنا، جورج
قصة الانسان: وهو عرض تحليلي شامل
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01021361